بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

العدد الواحد والسبعون ● السنة الثامنة عشرة ● خريف سنة ١٤٣٣هـ / ٢٠١١م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم. ص.ب: (٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

www.ahlulbaytportal.com

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

البريد الإلكتروني للمجمع: info@ahl-ul-bayt.org

رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

- تعنى بالدراسات والنتاجات الفكرية، خصوصاً التي تصبُّ في خانة الدّفاع عن حريم القرآن الكريم والنبي ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.
- تستقبل رسالة الثقلين نتاجات العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:
  - أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً ومضموناً.
  - أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
  - أن لا تكون عملاً مكرّراً، بل لا بدّ أنْ تحتوي على شيءٍ من التّجديد والحداثة. والأولويّة دائماً للدّراسات الفكريّة المستحدثة.
  - أن لا تنقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصّفحة الواحدة تتضمّن (٢٥٠) كلمة.
  - أنْ تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحةٍ واحدة.
- الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي ا لـ مع أو ا لـ لة.
- تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنّية محضة.
- لا تعاد المقالات المرسلة إلى ا لـ لة، نُشرت أم لم تنشر.

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

* **البصيرة في العمل**

رئيس التحرير ٤

□ من أريج القيادة الحكيمة

* **كلام القائد، قائد الكلام**

إعداد: قسم الأرشفة ٨

□ في رحاب الوعي واليقظة عند الشعوب

* **الجرائم المرتكبة في البحرين، واختصاص المحكمة الجنائية الدولية**

د. عبد الحميد عباس دشتي ٣٩

* **الحرية والديمقراطية، كآلية للحكم المؤسساتي في الدولة العربية الحديثة**

أ. نبيل علي صالح ٧٠

* **تجليات اليقظة الإسلامية في الشعر العربي المعاصر، قضية فلسطين نموذجاً**

د. جهاد فيض الإسلام ٩٢

* **الوعي في القرآن الكريم**

الشيخ عبد الجليل مشموشي ١٠٥

□ كنتم خير أمة

* **سنّة الاختلاف، لنعرف كيف نختلف؟**

أ. حفيظ الرحمن الأعظمي ١٣١

* قـراءة فـي مفهـوم الوحـدة، مـن حيـث التأصـيل والتحديات المناهضة
..... الشيخ مصطفى ملص ١٤٠

□ دراسات فكرية
* شيخ المدينة، الإمام علي بن الحسـين ‘ ، قـراءة في السلوكيات (القسم الثاني)
..... السيّد أمين السعيدي ١٥١
* الدعاء وتكوين الشخصية الإيمانية
..... أ. علي عبد اليد عباس ٢٠٢
* مصطلحات فكرية عامة (القسم الأول)
..... إعداد: المحرر الثقافي ٢٢٠

□ كلامهم نور
* مع المولى أبي عبد الله الحسين عليه السلام في مواعظـه، اتخاذ المعصية ذريعة لفضاء الحوائج
..... رئيس التحرير ٢٣٨

□ متابعات متنوعة
..... إعداد: هيئة التحرير ٢٤٧

المجمع العالمي لأهل البيت

المشرف العام
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن
المعاونية الثقافية ـ إدارة المجلات

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير
الشيخ علي محسن

العدد الواحد والسبعون
السنة الثامنة عشرة
خريف سنة
١٤٣٣هـ / ٢٠١١ م

المطبعة: مجاب ـ طهران
☏ ٠٠٩٨ ـ ٣٦٦٧٥٢٩٥

البصيرة في العمل

بقلم رئيس التحرير

ورد في الخبرِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله الصادق عليه السلام يَقُولُ: «**الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطّرِيقِ لَا يَزِيدُه سُرْعَة السّيْرِ إِلّا بُعْداً**»[1].

لا يُراد من العامل في هذا الخبر عاملٌ خاصّ، بل مطلق العامل الصادق على كلّ من يقوم بفعل من الأفعال مهما عَظُم أو صَغُر..

فالطالب على مقاعد دراسته عاملٌ، والأستاذ على منبر تدريسه عاملٌ، والمزارع الكادّ في حقله عاملٌ، والسياسيّ القائم على خدمة مجتمعه عاملٌ، والمرابط في متراسه يذبّ عن حياض الإسلام والمسلمين عاملٌ، كما أنّ العابد والسالك في درجات القرب إلى الله عاملٌ...

عموماً: ما مِنْ فعلٍ من الأفعال التي تصدر من الإنسان، إلّا ويصدق عن طريقه على فاعله أنّه عاملٌ...

والخبر المتقدّم يصنِّف العامل إلى صنفين:

ـ عاملٌ على غير بصيرةٍ...

ـ وعاملٌ على بصيرةٍ...

ويتميّز الصنف الأوّل بالضلال والابتعاد عن جادة الصواب من جهةٍ، وعدم وصوله إلى مبتغاه من جهةٍ أُخرى.

وكثيراً ما يحاول هذا الصنف ـ إذا التفت إلى عدم تسلّحه بسلاح البصيرة المناسب مع العمل الذي يقوم به ـ أنْ يجبر ضعفه هذا عن طريق الإسراع في العمل؛ ظنّاً منه أنّه بإسراعه يجبر ضعف سلاحه ويصل إلى مبتغاه، ولكن هيهات!! فإنّ سرعة السير لن تزيده إلّا بعداً.

وما أجمل التشبيه الوارد في الخبر! حيث شبّه هذا العامل المتجرّد عن البصيرة، والمسرع في سيره، بالسائر على غير الطريق، ووجه الشبه والاشتراك بينهما أنّ السرعة في كلا الحالتين لن تزيد العامل إلّا بعداً عن المبتغى والهدف والمقصد.

وأمّا الصنف الثاني، المتسلّح بسلاح البصيرة، فإنّه يكفيه للوصول إلى مقصده ومبتغاه أنْ يعمل على وفق بصيرته، وهي قد تقتضي التأنّي في السّير تارةً والإسراع تارةً أُخرى.

أدوات البصيرة في العمل:

الكلام هنا عن البصيرة العامّة التي يحتاج إليها كلّ عامل مهما كان عمله، ولا نتكلّم عن الخصوصية الناشئة من خصوصية في كلّ عمل.

وعليه، فالبصير هنا: هو ذلك العامل الذي يتميّز بثلاث خصال رئيسية:

الأُولى: العلم والمعرفة ووضوح الرؤية، ولا بدّ أنْ يكون ذلك على مستويات مختلفة:

١. العلم بالهدف.
٢. العلم بالطريق الموصل إليه.
٣. العلم بنقاط الضعف والقوّة الموجودة عند العامل.
٤. العلم بالفرص الخارجية التي تساعده على الوصول إلى هدفه.
٥. العلم بالتهديدات التي تمنعه عن البلوغ إلى مقصده.

وهذا المعنى هو ما قصد العلماء الذين وضعوا قواعد التخطيط الاستراتيجي، فإنّ معرفة العوامل الداخلية في الإنسان، والمنقسمة إلى عوامل ضعف وقوّة، ومعرفة العوامل الخارجية المنقسمة إلى فرصٍ وتهديدات، يعتبر من أهمّ الخطط الاستراتيجية الرائجة، والتي تختصر باللغة الإنكليزية بقولهم: (Swot Analysis)، وتعني: التحليل على طريقة سوات، و (Swot) هذه مختصر للعوامل الأربعة الداخلية والخارجية، فالحرف الأول اختصار لكلمة (Strength) أي: القوة، والثاني اختصار لكلمة (Weakness) أي: الضعف، والثالث اختصار لكلمة (Opportunities) أي: الفرص، والرابع اختصار لكلمة (Threats) أي: التهديدات.

والتحليل على هذه الطريقة يعني: أنْ يدرس العامل قبل شروعه في العمل نقاط القوّة الموجودة لديه، ويقايسها مع نقاط الضعف. ثمّ يلتفت إلى المحيط الذي يعيش فيه؛ ليرى الفرص التي يكون استغلاله لها موجباً للنجاح في العمل، والتهديدات التي تقف عائقاً أمام الوصول إلى الهدف. ثمّ يقايس بينها، فإذا كانت الكفّة الراجحة في جانب الضعف والتهديدات، فلا بدّ له من أنْ يغيّر موقعيته، أو ينتظر تغيّر الشرائط والظروف، وهكذا...

الثانية: أنْ يكون لديه الأدوات اللازمة للعمل. فالمزارع الذي درس فنّ الزراعة وأتقنه، ومن خلال ذلك تعرّف على نقاط الضعف والقوّة التي لديه، وصار خبيراً بالفرص الموجودة في الأرض والمناخ، ولم يغفل عن التهديدات

الخارجية، لن يستطيع أنْ ينتج ثمرةً واحدةً إذا لم يكن لديه أرضٌ ومحراثٌ وبذرٌ وغير ذلك من الأدوات اللازمة.

الثالثة: الخبرة في التطبيق، فالفقيه الذي اجتهد في أحكام الأموات من التغسيل والتكفين والدفن وغيرها، إذا لم يكن قد رأى ميّتاً في حياته، ولم يمارس تغسيله ودفنه، لو أُعطي له السدر والكافور والماء، والقطع الثلاث للتكفين، وغيرها من أدوات تجهيز الميّت ودفنه، فإنّه سوف لن ينجح كنجاح ذلك العاميّ الذي حفظ الأحكام الذي اجتهد فيها ذلك العالم نفسه، وكان خبيراً ممارساً في تطبيقها.

كما أنّ الاجتهاد نظرياً في أحكام الذباحة، مع توفّر الشاة والسكين لديه، لن يكفي ذلك ليكون قصّاباً ناجحاً.

ومن جميع ما تقدّم يتضّح لنا أنّ صادق آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يدعو من خلال الحديث المتقدّم في صدر المقال إلى التسلّح قبل العمل بالعلم بكلّ ما نحتاج إليه في أعمالنا، سواء على مستوى النظرية أم على المستوى العملي.

والحمد لله أوّلاً وآخراً...

* * *

الهوامش:

(١) الكُلَيْني، مُحَمّد بن يعقوب، الكافي ١: ٤٣، كتاب فضل العلم، باب: من عمل بغير علم، الحديث: (١)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

كلام القائد قائد الكلام

حول الانتفاضة الفلسطينيّة وأجواء الصحوة الإسلاميّة

□ إعداد: قسم الأرشفة

الخطاب الأوّل:

المؤتمر الدوليّ الخامس لدعم الانتفاضة الفلسطينيّة

ألقى وليّ أمر المسلمين قائد الثورة الإسلاميّة آية الله العظمى الإمام السيّد علي الحسينيّ الخامنئي دام ظله كلمة قيّمة في مستهلّ المؤتمر الدوليّ الخامس لدعم الانتفاضة الفلسطينيّة والذي انعقد في العاصمة الإيرانيّة طهران بتاريخ الأوّل والثاني من شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر من العام الجاري، وذلك بحضور زعماء وقيادات وشخصيّات ووفود من مئة بلد إسلاميّ وعربيّ، وقد استعرض فيها دام ظله مجمل مشاكل العالم الإسلاميّ وأسبابها والآليّات الكفيلة بحلّها وتسويتها[1].

وفيما يلي نصّ هذه الكلمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ علينا بهداية الإسلام، وشرّع لنا الجهاد الذي هو باب من

أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه... و{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الإسراء: ١]، والصلاة والسلام على نبيّه البشير النذير محمّد ' وآله الطيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السادة الضيوف والحضور الكرام...

أرحّب بكم جميعاً... سائلاً الله سبحانه أن يشملنا جميعاً برحمته وهدايته.

إنّ انعقاد تجمّع كهذا قرار مبارك، وأرجو من الله تعالى أن يكون مردوده إيجابيّاً وبنّاءاً في دعم انتفاضة الشعب الفلسطينيّ المسلم. إنّ هذا النوع من التجمّعات يركّز عمليّاً على أنّ القضيّة الفلسطينيّة هي قضيّة إسلاميّة... وقضيّة كلّ العالم الإسلاميّ... وأنّ احتلال فلسطين يمثّل واحداً من أركان التآمر الشيطانيّ الذي عمدت إليه قوى الهيمنة العالميّة ممثّلة سابقاً ببريطانيا، وحاليّاً بأمريكا، لغرض إنهاك العالم الإسلاميّ وتمزيق صفوفه.

إنّ أعداء الإسلام كانوا جادّين دوماً في إقامة الحواجز القوميّة والمذهبيّة بين المسلمين لإبعادهم عن توحّدهم، ومن ثمّ للسيطرة على مقدّراتهم.

وقد وجدنا عند الأعوام الأُولى لاحتلال فلسطين أنّه نهض علماء مجاهدون مثل الشيخ عزّ الدين القسّام والحاج أمين الحسيني، رفعوا صوتهم وهم يستنصرون المسلمين لإنقاذ الوطن السليب، ويومئذٍ أيضاً أصدر المرجع الديني الكبير المرحوم الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء حكم الجهاد ضدّ الصهاينة، غير أنّ الطابع الإسلاميّ للقضيّة أخذ يخفّ باستمرار، لتنحصر القضيّة ـ مع الأسف ـ في إطارٍ أضيق، وهو الإطار القوميّ.

ولكن بحمد الله تعالى، إنّ انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران بقيادة الإمام الخميني رحمه الله... هذا الرجل الحكيم من ذرّيّة رسول الله ' كان له الدور

الكبير في الصحوة الإسلاميّة على الصعيد العالميّ عامّةً، وعلى صعيد بلدان المنطقة بشكل خاصّ.

كما أنّ انتصار المقاومة الإسلاميّة في حرب غير متكافئة ـ على الظاهر ـ في جنوب لبنان شكّل دلالة أُخرى على مصداقيّة وأصالة الجهاد الإسلاميّ، وهو تأكيد آخر على أنّ النصر حليف المسلمين حتماً إن هم وثقوا بوعد الله تعالى، وجاهدوا في سبيله سبحانه.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الانتصار الباهر الذي سجّلته المقاومة الإسلاميّة في جنوب لبنان من جهة، وفشل مشاريع الاستسلام من جهة أُخرى هو من أكبر الدروس والعبر التي جرت أحداثها في منطقتنا، وهي ـ هذه الدروس ـ التي دفعت بالشعب الفلسطينيّ المسلم لأن يعود إلى الانتفاضة مرّةً أُخرى... غير أنّها عودة لا يمكن أن يكون فيها لمحاولات الاستسلام، إن في داخل فلسطين أو في المنطقة، أيّ أثر على أبناء الشعب الفلسطينيّ الصبور والشجاع والمقاوم. فلقد عزم هذا الشعب ـ بحول الله وقوّته ـ على أن يواصل مسيرته هذه حتى النصر.

فالانتفاضة الأُولى إنّما توقّفت بسبب ضغوط الانهزاميّين والدوائر الأمريكيّة والغربيّة وبسبب الوعود الزائفة والمعسولة التي كان قدّمها الصهاينة وحماتهم، زاعمين أنّهم سيمنحون الشعب الفلسطينيّ حقّه عن طريق المحادثات السلميّة!!

غير أنّ عشر سنوات مرّت على تلك الوقفة كانت كافيةً لإثبات أنّ كلّ مساعي حماة الصهيونيّة في العالم إنّما كانت تهدف لإنقاذ دويلة الصهاينة من ضغط النضال الإسلاميّ، كما أثبتت أنّ كلّ ما قدّموه من وعودٍ للمفاوضين الفلسطينيّين لم يكن سوى ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩].

إنّ مظاهر البطش والعنف والإرهاب والاحتلال والتوسّع التي نشاهدها

اليوم بوضوح في ممارسات الصهاينة، كلّ ذلك، كان متوقّعاً تماماً منذ البدايات الأُولى لكلّ ذي بصيرة، ولكلّ المخلصين والواعين في المجتمعات الإسلاميّة.

الكيان الصهيونيّ والبدايات الأولى

إنّ دويلة الصهاينة الغاصبة والخادعة لم تقم أساساً إلّا على مبدأ الاعتداء على الحقوق والمطالب المحقّة للشعب الفلسطينيّ، وهي قد لاقت دعماً في ذلك من بعض الحكومات الغربيّة، وبخاصة أمريكا. كما أنّ المحافل الدوليّة هي أيضاً سعت ـ عن طريق خلق المبرّرات لتصرّفات الكيان الصهيونيّ ـ إلى أن تُضفي شرعية على هويّته واعتداءاته.

لطالما كانت الأرض الفلسطينيّة عموماً، والقدس خصوصاً، على مرّ التاريخ، مطمعاً لبعض القوى الغربيّة. وما الحروب الصليبيّة المتواصلة والطويلة الأمد ضدّ المسلمين إلّا مظهر بارز لتلك الأطماع في هذه الأرض المقدّسة، ولا غرو لذلك أن يقف ذلك القائد العسكريّ الغربيّ بعد انهزام الدولة العثمانيّة ودخول الحلفاء إلى القدس، ويرفع عقيرته قائلاً: الآن انتهت الحروب الصليبيّة!!

إنّ احتلال هذه الأرض إنّما جاء نتيجةً لمشاريع معقّدة ومتعدّدة الأطراف، وبهدف منع المسلمين من الاتّحاد والائتلاف، ومنع إعادة تأسيس دول إسلاميّة قويّة ومقتدرة. وثمّة أدلّة على أنّ الصهاينة كانوا على علاقة وثيقة بالنازيّين الألمان، وإنّ تقديم تلك التقارير المبالَغ فيها حول مقتل اليهود إنّما كان يستهدف إثارة مشاعر الرأي العامّ العالميّ وتهيئة الأجواء لاحتلال فلسطين، وتبرير جرائم الصهاينة. بل إنّ ثمّة وثائق كثيرة تُثبت أن جمعاً من الأشرار وحثالة البشر من غير اليهود، وبالتحديد: من شرق أوروبا، قد تمّ تعبئتهم والزجّ بهم

إلى فلسطين على أنّهم من اليهود، ليقيموا بذلك نظاماً معادياً للإسلام في قلب العالم الإسلاميّ، وبحجّة حماية ضحايا النازيّة، وكذلك ليفصلوا بين شرق العالم الإسلاميّ وغربه، بعد وحدةٍ استمرّت ما يقرب من أربعة عشر قرناً.

وقد فوجئ المسلمون في بداية الأمر؛ ذلك لأنّهم كانوا في غفلةٍ عن حقيقة مشاريع الصهاينة وحماتهم الغربيّين. وكان أن انهزم العثمانيّون، وأُبرمت اتّفاقية (سايكس ـ بيكو) سرّاً، لتقسيم البلدان الإسلاميّة في الشرق الأوسط بين الفاتحين الجدد. ومن جهتها، أناطت عصبة الأمم الوصاية على فلسطين بالبريطانيّين، الذين بدورهم قدّموا وعود المساعدة للصهاينة، وفي إطار مجموعةٍ من المشاريع المدروسة عملوا على استقدام اليهود إلى فلسطين وشرّدوا المسلمين من ديارهم.

وفي هذه المواجهة الطويلة التي كان أحد طرفيها: الغرب والصهاينة، والطرف الآخر: الدول العربيّة الفتية، استخدم أعداء الإسلام آليّات متنوّعة ومعقّدة، ومنها: وسائل الإعلام والمحافل الدوليّة؛ إذ كانوا يدعون المسلمين من جهة إلى الصبر وضبط النفس والاشتراك في محادثات السلام والتسوية، ومن جهة أُخرى يغدقون السلاح على إسرائيل.

إنّ هدفهم الاستراتيجي من هذا التعامل المزدوج وغير المتكافئ بين البلدان الإسلاميّة وبين إسرائيل إنّما هو الإبقاء على التفوّق العسكريّ الإسرائيليّ على البلدان الإسلاميّة، ومساندة الكيان الصهيونيّ في المحافل الدوليّة، واستخدام أبواقهم الإعلاميّة لتبرير جرائم الصهاينة، وترسيخ فكرة إسرائيل التي لا تقهر بين المسلمين.

إنّ هذا الكيان الصهيونيّ، ومنذ أن أقرّت منظّمة الأمم المتّحدة تأسيسه قبل أكثر من نصف قرن، وحتى العام الماضي، لطالما كان يصول ويجول دونما مانع أو رادع، غير أنّ المقاومة الإسلاميّة في لبنان، بعدّة آلاف من شبابها المسلّحين

بسلاح الإيمان قضّت مضجع هذا النظام وحماته. لقد طرد هؤلاء الشباب الأعزّاء إسرائيل وهي ذليلة من جنوب لبنان، دون تقديم أيّ امتياز أو تنازل لها، حتى أصبح الانتصار الذي تحقّق على أيدي هؤلاء الفتية مشعلاً يضيء الطريق أمام غيرهم من المجاهدين المسلمين، وها نحن اليوم نشهد انتفاضة المسجد الأقصى، وهي نموذج موسّع للمقاومة الإسلاميّة في لبنان.

واليوم إذ تجتمعون أنتم أيّها الأعزّة، من منطلق الفريضة الإسلاميّة، لدعم الانتفاضة، فإنّكم تتحمّلون مسؤوليّات ثقيلة. إذ إنّكم، قبل كلّ شيء، وفي ظلّ الصحوة الإسلاميّة، يجب أن تعلنوا عن إرادة العالم الإسلاميّ، في العودة إلى السنن الحسنة في تاريخه المجيد.

وهذه السنن ـ وعلى رأسها: تضامن المسلمين ـ كانت وراء كلّ ما حقّقه المسلمون من انتصارات في الماضي أمام المعتدين الصليبيّين. لقد كان المجاهدون في تلك المواجهات التاريخيّة يهبّون من كلّ أرجاء العالم الإسلاميّ لنصرة إخوانهم، وللالتحاق بالحرب المصيريّة الطويلة بين الكفر والإيمان.

فلسطين بين انتفاضة اليوم والأمس

إنّ المسلمين في كلّ العالم منشدّون اليوم إلى هذا النضال المصيريّ الذي يجري على الساحة الفلسطينيّة، وهم يعقدون الآمال عليه أكثر من الانتفاضة الأُولى؛ إذ إنّ تلك الفترة ـ أعني: قبل عشر سنوات ـ كانت فترةً هيمن فيها جوّ التسوية بالتدريج على المنطقة، حين كانت قلوب البعض مع أمريكا، وكان آخرون يعتقدون بعدم إمكان الوقوف بوجه الضغوط السياسيّة الدوليّة، وبعدم وجود طريقٍ للحلّ سوى التسوية، ولو كان ثمنها الرضوخ للشروط الأمريكيّة والإسرائيليّة، يُضاف إلى ذلك: أنّ التطوّرات التي شهدتها المنطقة يومئذٍ عملت

هي أيضاً على ترسيخ هذه النظريّة، وأمّا مؤتمركم فهو ينعقد في عامنا هذا في وقتٍ وصلت فيه كافّة الحلول الاستسلاميّة إلى طريق مسدود، وحتى أُولئك الذين كانت، ولا تزال، قلوبهم مع أمريكا، هم اليوم يقرّون بأنّ هذا الطريق قد بات مسدوداً.

في بداية التسعينيّات ساد العرب والمسلمين جوٌّ من الإحباط على أثر سلسلةٍ من الهزائم المتتالية (خلال أحداث حرب الخليج الفارسي)، وتعرّضت وحدتهم الداخليّة أيضاً لخطر انهيار جدّيّ، واستشرت فيهم الفُرقة والتشتّت. غير أنّ آمالاً جديدة وحيويّةً سطعت اليوم في قلوب المسلمين في ظلّ الظروف الراهنة، وبخاصّةٍ بعد الانتصارات التاريخيّة العظيمة للمقاومة في جنوب لبنان.

المواجهة بين فشل الأساليب القديمة ونجاح النموذج الحاليّ

لقد كان الأسلوب المطروح يومئذٍ في التعامل مع إسرائيل ينحصر في أسلوبين اثنين:

الأوّل: المواجهة العسكريّة بين الجيوش العربيّة وإسرائيل، وكان يقال آنذاك: إنّ كلّ التجارب التي تمّ اعتمادها في هذه المواجهة قد واجهت الفشل!!

والثاني: التسوية التي تحقق مآرب إسرائيل بالطرق السلميّة، وفي مقابل الانسحاب من بعض الأراضي المحتلّة يتقرّر ضمان عدم تطوير القدرة العسكريّة للبلدان العربيّة، كما حدث في (كمب ديفيد)!!

لم يكن نموذج (المقاومة) مطروحاً يومئذٍ، بل كان يقال: إنّه لا يحظى بقبول عامّ!!

غير أنّنا اليوم أمام نموذج فريد أثبت نجاحه، واستطاع لأوّل مرّة أن يحرّر الأرض المحتلّة، دون أن يعطي أيّ امتياز لـ إسرائيل، كما حال دون تحقيق الصهاينة لمآربهم المتمثّلة برفع علمهم في عاصمة هذا البلد العربيّ، أعني: لبنان.

في اتّفاقيّة (كمب ديفيد) كان الشرط لانسحاب إسرائيل هو عدم إرسال الجيش المصريّ إلى شمال سيناء، ولكن ها نحن اليوم نرى إسرائيل القلقة من قدرة المقاومة الإسلاميّة في جنوب لبنان تتوسّل المحافل الدوليّة لإرسال الجيش اللّبناني إلى الحدود الفلسطينيّة ـ اللّبنانيّة، وهذا يعني: أنّ المقاومة استطاعت إعادة السيادة التامّة في الجنوب اللّبناني وفي المناطق المحتلّة الأُخرى.

إنّ هذه الانتفاضة المباركة (في فلسطين)، هي ثورة شعب نفض يده من كلّ أساليب التسوية، وأدرك جيّداً أنّ النصر رهين بمقاومته.

لقد تكبّد الشعب الفلسطينيّ في انتفاضته السابقة خسائر جسيمة، وقدّم على طريق الإسلام وتحرير الارض الإسلاميّة الكثير من الشهداء والجرحي، لكنّ محادثات (أوسلو) قضت بإيقافها في النهاية. وماذا كانت نتيجة أوسلو؟

حتى الذين خطّطوا من الفلسطينيّين لتلك المحادثات هم اليوم لا يدافعون عنها؛ لأنّهم ادركوا عمليّاً أنّ إسرائيل كانت تريد فقط أن تتخلّص من ورطتها، أي: أن تتخلّص من مواجهة ثوّار الحجارة، وأن تقلّل ممّا يواجهها من أخطار.

وهي كانت إذا قدّمت شيئاً شحيحاً إلى الجانب الفلسطينيّ وسمّته إعطاء امتياز، فإنّما كان لغرض إخماد شعلة الانتفاضة، والتقليل من احتمالات الأخطار المحدقة بها. ولكنّها ما إن رأت أنّ مشكلتها قد انحلّت، وأحسّت ـ خطأً ـ أنّ الشعب الفلسطينيّ لم يعد قادراً على استئناف الانتفاضة والمقاومة والمواجهة، أوقفت حتى ذلك النزر الضئيل من الامتيازات، وكشفت عن حقيقة أهدافها الذاتيّة التوسعيّة.

إنّ مسيرة الاستسلام في مشروع أوسلو قد وضع الشعب الفلسطينيّ أمام طريق واحد لا بديل له، وهو طريق الانتفاضة.

المسجد الأقصى.. الشرارة الأولى

المحور الأساس في هذه الانتفاضة الثانية هو المسجد الأقصى، أي: أنّ الشرارة الأُولى التي فجّرت غضب الشعب الفلسطينيّ هي تدنيس الصهاينة للمسجد الأقصى، ما دفع الشعب الفلسطينيّ من منطلق إحساسه بالرسالة الخطيرة التي يحملها إلى حراسة واحد من أقدس الأماكن الدينيّة الإسلاميّة، ودخل الساحة بقوّة، وأضرم شعلة المقاومة والنضال ضدّ المحتلّين الصهاينة.

وبينما أدّت مسيرة الاستسلام ـ وبشكل خاصّ في أوسلو ـ إلى تشتيت الفلسطينيّين وتمزيق وحدتهم، فإنّ هذه الانتفاضة المقدّسة استطاعت أن تعيد الوحدة الوطنيّة إلى الساحة الفلسطينيّة، حيث نلاحظ أنّ كلّ فئات الشعب هي حاضرة في هذا النضال، وأنّ الفصائل الإسلاميّة والوطنيّة متكاتفة، بل حتى أولئك الذين لا تزال قلوبهم في مكان آخر هم اليوم مضطرّون أيضاً إلى مماشاة هذا التحرّك العظيم.

لقد برزت النهضة الإسلاميّة، أو ـ بعبارة أُخرى: ـ حركة الصحوة الإسلاميّة، على ساحة المنطقة والعالم الإسلاميّ بقوّةٍ وصلابة في العقدين الأخيرين بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، وظهور حركة الإمام الخميني رضي الله عنه.

القضيّة الفلسطينيّة محور الصحوة الإسلاميّة

إنّ المحور الأساس لهذه النهضة والصحوة اليوم هو القضيّة الفلسطينيّة. فقد استطاعت انتفاضة الأقصى أن تتجاوز حدود فلسطين الجغرافيّة، وأن تستقطب عامة الشعوب العربيّة والإسلاميّة. كما أنّ مسيرات الملايين من أبناء الشعوب الإسلاميّة، من شرق العالم الإسلاميّ وحتى غربه، أوضحت، وبما لا مجال معه للشكّ، بأنّ الشعب الفلسطينيّ يستطيع حقّاً أن يعتمد على دعم هذه الشعوب، وأنّه قادر في الوقت ذاته على أن ينهض بدورٍ مهمّ في توحيد صفوف

المسلمين.

في ذلك اليوم الذي انبثقت فيه المقاومة الإسلاميّة في لبنان بسواعد الأبطال اللّبنانيين، وبتوصية الإمام الخميني ودعمه، كانت إسرائيل تحتلّ العاصمة اللّبنانيّة، وكانت مسيطرة على المقدّرات السياسيّة لهذا البلد.

يومها، حين كانت المقاومة الإسلاميّة ترفع شعار: «زحفاً زحفاً نحو القدس»، كان هناك من المغفّلين من يعتقد أنّ هؤلاء أناس سذّج بسطاء. وكانوا يسألون نكايةً: هل من الممكن الزحف نحو القدس وأنتم اللبنانيّون يتعذّر عليكم بعدُ دخول عاصمة بلدكم؟! علماً بأنّ الزمان الفاصل بين ذلك اليوم وبين الانتصار التاريخيّ للمقاومة الإسلاميّة على إسرائيل لا يزيد على ثمانية عشر عاماً فقط. وأنتم تعلمون جيّداً أن ثمانية عشر عاماً ليست بذلك الزمن الطويل في تاريخ نضال الشعوب.

إنّ النضال ـ دون شكّ ـ مقرون بخسائر مؤسفة، حيث الناس يستشهدون، والبيوت تهدّم، والضغوط الاقتصاديّة تُثقل كاهل المواطنين، وعشرات المصائب الأُخرى التي نشعر بمرارتها وآلامها من أعماق القلوب.

ولكنّ المهمّ في هذا المجال هو أن ننظر في نتائج هذه التضحيات؛ فإنّ الانتصار له قيمته الكبرى، ولا بدّ من دفع ثمنه، «**ومن خَطَب الحسناء لم يُغْلها المهرُ**»[٢].

إسرائيل التي كانت يوماً تعربد ثملةً في هذه المنطقة وتملي كلّ شروطها على الشعوب العربيّة، هي اليوم راكعة بضعف وكآبة أمام عظمة المقاومة الإسلاميّة، وهذا ليس إلّا جزءاً يسيراً من ثمار تفعيل طاقات الشعوب العربيّة والإسلاميّة.

ثقوا أنّ طاقات العالم الإسلاميّ جميعاً، بل بعضها، لو سُخِّرت في هذا الاتّجاه لرأينا زوال إسرائيل وفناءها؛ لأنّ إسرائيل هذه هي التي هُزِمت في جنوب لبنان

بفعل مقاومةٍ قام بها بضعة آلاف فقط من الرجال.

صحيح أنّ حزب الله يتمتّع بعمق شعبيٍّ واسع، وأنّه استطاع في الأوقات الضروريّة أن يعبّئ الآلاف، بل وعشرات الآلاف، ولكنّه كان على طول الخطّ يعتمد فقط على بضعة آلاف، بل بضع مئات في محاور المواجهة مع الصهاينة المحتلّين. وهذا يعني: أن إسرائيل، بكلّ ترسانتها ومعدّاتها العسكريّة وتقنيّاتها الحربيّة المتطوّرة والمتّصلة بالترسانة الحربيّة الأمريكيّة، قد انهزمت أمام بضع مئات فقط من الشباب المؤمنين المتحمّسين والمزوّدين بأسلحةٍ بسيطة للغاية، وطبعاً: بسلاح قويٍّ للغاية، وهو سلاح الإيمان.

المقاومة طريق النصر، والتسوية طريق الهزيمة

إذاً نحن أمام نموذج واضح وجليٍّ للمقاومة، وهو يدلّنا بوضوح على أنّه يمكن ـ حقّاً ـ تحقيق النصر بالمقاومة والنضال، ولكن طبعاً مع تحمّل مشاقّ هذه الطريق، التي هي طريق ذات الشوكة.

كما أنّ نموذج الهزيمة ماثل أمامنا أيضاً، ألا وهو عقد الآمال على أساليب التسوية واستجداء السلام، ونتيجته واضحةٌ أيضاً: الوهن... والذلّ... وبالتالي: فرض إرادة إسرائيل من جانب واحد، وقد رأينا ذلك بأم أعيننا على مدى سنواتٍ طويلة... ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٥]؟!

إنّ حزب الله وانتصاراته التاريخيّة يشكّل اليوم سنداً كبيراً لانتفاضة الشعب الفلسطينيّ، إنّه حتماً سندٌ قويّ، بل في غاية القوة.

وأمّا الكيان الصهيونيّ، فهو لا يمتلك إطلاقاً القدرة على المواجهة المستمرّة والطويلة الأمد مع الفلسطينيّين. لقد خدع هذا الكيان اليهود وزجّ بهم في فلسطين على أمل أنّ العرب قد كفّوا عن الحرب وألقوا السلاح، وأيضاً على أمل أنّ الغرب سوف لن يسمح أبداً للعرب بمواجهة طويلة. ومن هنا، فإنّ

اليهود الذين جرى استقدامهم إلى فلسطين ليسوا على استعدادٍ أبداً لأن يضحّوا بوجودهم من أجل تحقيق اهداف مؤسّسي الصهيونيّة، كما أنّ التقارير تؤكّد هبوط منسوب السياحة اليهوديّة في أرض فلسطين بشدّة، بل وتبيّن أيضاً اشتداد حالة الهجرة العكسيّة منها.

إنّ مؤتمر فلسطين الأوّل المنعقد بطهران استطاع أن ينهض بدور أساسيّ، حيث شكّل محطّةً لآمال المعارضين للاستسلام، كما بثّ روح الأمل في شعب فلسطين، ورفع من معنويّاتهم. وعموماً، إنّ مواقف إيران الإسلام وصمودها الفريد استطاع هو أيضاً أن يُشعّ بالأمل في قلوب أبناء هذا الشعب المقدام، والآن أيضاً، يحتاج الشعب الفلسطينيّ يحتاج إلى الدعم المعنويّ، وإلى المواقف الصامدة. صحيح انه بحاجة إلى المال أيضاً، ولا بدّ لإنجاز هذا الأمر من القيام بخطواتٍ وإجراءاتٍ جادّة، لكنّ المواطنين الفلسطينيّين ـ هم أنفسهم ـ يقولون لمن يقابلهم: إنّنا نحتاج بالدرجة الأُولى إلى مواقف وقراراتٍ قويّة عربيّة ـ إسلاميّة.

ولذلك، إنّ مؤتمركم هذا يجب أن يوفّر الأجواء المساعدة على تلبية هذه الحاجة، وأن يملأ قلوب الشعب الفلسطينيّ أملاً وثقةً بدعم الأمّة الإسلاميّة دعماً سخيّاً وشاملاً. وأنتم نوّاب البلدان الإسلاميّة المختلفة تستطيعون أيضاً، ببذل الجهد على هذا الطريق، أن تعبّئوا إمكانات شعوبكم في سبيل تحرير فلسطين.

إنّ الدفاع عن الشعب الفلسطينيّ المظلوم ونهضته الباسلة المظلومة هو واجبنا الإسلاميّ جميعاً، إنّه شعب مسلم مضمّخ بالجراح، وهو يرفع صوته اليوم من وسط ساحة المعركة داعياً الأمّة الإسلاميّة إلى نُصرته. وإنّني لا أنسي أبداً صرخة تلك المرأة الفلسطينيّة التي وقفت أمام عدسات المراسلين تنادي بصوت مبحوح: يا للمسلمين!!

يجب على كلّ المسلمين والعرب أن يدعموا شرعيّة نضال الشعب الفلسطينيّ، ولا بدّ من التأكيد في المحافل الدوليّة على أنّه شعب أعزل، وقد جرى اغتصاب حقوقه، وهو يقبع تحت الاحتلال، وبالتالي: له كامل الحقّ في أن يناضل لاستعادة حقوقه، ومن هذا المنطلق، فيجب التأكيد على أنّ استمرار انتفاضة الشعب الفلسطينيّ ومقاومته لهو حقّ مشروع لهذا الشعب، والقوانين الدوليّة أيضاً تحترم ذلك، مع أنّ هذه القوانين تُفسَّر ـ مع الأسف ـ في اتّجاه إرادة الاستكبار وقوى الهيمنة العالميّة.

أيّها السادة! ثقوا أنّ الكيان الصهيونيّ متآكل من داخله، وأنّ الجيل الحاليّ من الصهاينة ليس علي استعداد للفداء والتضحية من أجل حفظه. هذا من جهة.

ومن جهةٍ أُخرى، فإنّ الشعوب العربيّة والمسلمة هي اليوم أكثر قوّةً وحيويّة من أيّ وقتٍ مضى في السنوات الخمسين الماضية، وهي قد أصبحت ذات مقدرةٍ في شتّى المجالات.

إنّ المسلمين اليوم لم يعودوا قادرين على السكوت أمام مشهد القمع اليوميّ للشعب الفلسطينيّ، ولا بدّ من إفهام إسرائيل بأنّ الاستمرار في قمع الشعب الفلسطينيّ، وفي قصف المناطق الفلسطينيّة، ستتمّ مواجهته من كلّ العرب والمسلمين، وسيُردّ عليه ردّاً جادّاً وعمليّاً، وبكلّ شدّة.

إنّ من الواجب علينا تعزيز أمل الشعب الفلسطينيّ في استمرار مقاومته، فالشعب الفلسطينيّ يعلم جيّداً أنّ الذي صدّ إسرائيل عن الممارسات القمعيّة في لبنان إنّما هو قدرة المقاومة في الردّ على تجاوزاتها، وفي إنزال الضربات القاصمة بها ضربةً تلو الأُخرى، لا الاعتماد على المساعي المسمّاة بـ «السلميّة»، ولا على وساطة هذا أو ذاك.

كما أنّ وحدة الصفّ الداخليّ الفلسطينيّ بفصائله المختلفة هي أيضاً مسألة أساسيّة جدّاً في هذا المضمار؛ فإنّ كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى انحراف المسير،

وإلى عدم التوجّه صوب العدوّ الأصليّ، هو أمر لا يصبّ حتماً في خدمة القضيّة الفلسطينيّة. وقد خرج الفلسطينيّون ـ والحمد لله ـ من امتحانهم خلال الأعوام الخمسين الماضية فائزين فخورين، وأثبتوا جدارتهم ونضجهم في شتي المواقف. وقد رأينا في غير واحدةٍ من المحطّات أنّ كلّ مساعي إسرائيل لتوسيع شقّة الخلافات بين المجاهدين قد باءت بالفشل الذريع، وأنّ كلّ التيّارات الأصيلة والحركات الجهاديّة والمجموعات المناضلة، على اختلاف اتجاهاتها وانتماءاتها، قد حالت دون تحقّق آمال العدوّ، وبصبر ثوريّ منقطع النظير. ولا بدّ أن تستمرّ الحالة على هذا المنوال أيضاً.

لقد اتّضح للعالم كلّه الآن، وبشكل لا لبس فيه، أنّ أولئك الذين كانوا يرون في القضيّة الفلسطينيّة مجرّد حالة مرحليّة وإقليميّة محدودة ومحصورة بقسمٍ صغير من العالم الإسلاميّ كانوا على خطأ تماماً. كما اتّضح أيضاً أنّ ترسانات الأسلحة الذرّيّة وأسلحة الدمار الشامل المخزّنة في مستودعات العدوّ الصهيونيّ ليست، ولم تكن يوماً، لمواجهة الفلسطينيّ الأعزل، بل إنّما هي لغرض السيطرة على كلّ العالم الإسلاميّ، وبخاصّةٍ على منطقة الشرق الأوسط.

المسار العامّ للنضال ضدّ الكيان الغاصب

إنّ المسار العامّ للنضال ضدّ هذا الكيان الغاصب يجب أن يكون على النحو التالي:

أوّلاً: لزوم العمل على فرض الحصار على الكيان الغاصب داخل حدود الأرض المحتلّة، وتضييق الخناق عليه في المجالين: الاقتصاديّ والسياسيّ، وقطع ارتباطه بمحيطه الخارجيّ.

وثانياً: ضرورة استمرار الشعب الفلسطينيّ في نضاله ومقاومته من داخل

الأرض المحتلّة، وتزويده بكلّ المساعدات اللّازمة التي تمكّنه من الاستمرار حتى تحقيق النصر.

بين الجمهوريّة الإسلاميّة وفلسطين

أيّها الإخوة والأخوات..

إنّ السبب الرئيس وراء كلّ الضغوط الشاملة التي يوجّهها الاستكبار العالميّ ـ وعلى رأسه: أمريكا ـ لإيران، إنّما هو مواقفها المساندة لفلسطين. لقد قالوها بكلّ صراحة: إنّ المشكلة الأصليّة بين أمريكا وإيران تكمن في معارضة الجمهوريّة الإسلاميّة لمشاريع التسوية والاستسلام المذلّة في فلسطين. وأمّا بقية الأمور، كادّعاءاتهم السخيفة بشأن انتهاك حقوق الإنسان، أو عمل إيران على تصنيع أسلحة الدمار الشامل، فهي بأجمعها لا تعدو أن تكون ذريعة واهية. وإنّنا على يقين بأنّ إيران إذا ما كفّت عن دعمها لنضال الشعبين اللّبنانيّ والفلسطينيّ، فإنّهم سيكفّون عن مواقفهم العدائيّة تجاهها.

بل إنّنا ـ طبعاً ـ نعلم بوضوح أنّ مشكلتهم الأصليّة هي مع الإسلام ومع الحكومة الإسلاميّة. وهم أيضاً يعرفون جيّداً حقيقة هذا التوجّه في سياسات الجمهوريّة الإسلاميّة. وقد كان جوابنا لهم على الدوام هو الردّ عليهم بأنّنا نعتبر دعم الشعبين الفلسطينيّ واللبنانيّ جزءاً من واجباتنا الإسلاميّة الهامة. ولذلك فإنّهم يوجّهون علينا ضغوطهم من كلّ حدب وصوب.

كما أنّ سياستهم الأصليّة والاستراتيجيّة هي بثّ بذور التفرقة بين الصفوف المتّحدة والمتراصة للشعب الإيرانيّ المسلم والثوريّ. ومن هنا، فإنّهم يطلقون على جماعة اسم «الإصلاحيّين»، وعلى آخرين اسم «المحافظين»، ثمّ يساندون جماعة، ويركّزون هجومهم على جماعة أُخرى.

إنّ هؤلاء يسعون مستميتين ـ وعن طريق تضخيم بعض الإشكاليّات التي

تقع ـ إلى أن يصوّروا عدم فاعلية النظام الإسلاميّ، وليبثوا اليأس في القلوب من النظام الدينيّ، ويروّجوا لفكرة «فصل الدين عن السياسة». غير أنّ الإيمان الدينيّ العميق الكامن في نفوس الجماهير هو ـ ولا شكّ ـ أكبر سدٍّ يقف في طريقهم. إنّهم يحاولون بخططهم الإعلاميّة المفضوحة أن يبثّوا اليأس في نفوس الشباب، وأن يصوّروا المشاكل الاقتصاديّة المتعارفة والمنتشرة ـ ولو بنسبٍ متفاوتة ـ في كلّ أرجاء العالم، على أنّها من المسائل المستعصية على الحلّ في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. وهم بخططهم الإعلاميّة هذه يسعون أيضاً إلى التشكيك في مصداقيّة الإمام الراحل رحمه الله وأركان الثورة.

وسبب ذلك يعود إلى أنّ مصالحهم قد تضرّرت من نهوض المسلمين ومن قيام الثورة الإسلاميّة، هم يشعرون بالخطر الداهم من هذه الصحوة الإسلاميّة المنتشرة في العالم، ويحسّون بقلق شديد من اتّساع نطاق النضال الإسلاميّ في لبنان وفلسطين. وهم لذلك شمّروا عن ساعد الجدّ لاستئصال جذور الفكر الإسلاميّ، موجّهين سهامهم الإعلاميّة السامّة صوب الإسلام والدين.

ولهذا نجد أنّه كلّما اتّسع نطاق النضال في لبنان وفلسطين كلّما ازدادت الصهيونيّة، ومعها أمريكا، غضباً وحنقاً على نظام الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، وازداد تآمرهم علينا، ولكنّهم يجب أن يعلموا: أنّه على الرغم من كلّ تضليلهم، فإنّ الانسجام يسود بين المسؤولين والرؤساء في بلدنا، وإنّ الشعب الإيرانيّ المسلم يقف ـ بكلّ شرائحه وقطاعاته ـ وراء أهداف الثورة والإسلام، ويتبنّي قضيّة الشعب الفلسطينيّ، وإنّ دعم القضيّة الفلسطينيّة والانتفاضة والنضال ضدّ الصهاينة وحماتهم لهو من الأركان الأساسيّة والاستراتيجيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة.

نحن على يقين تامٍّ بأنّ فلسطين ستتحرّر بمواصلة نضال الشعب الفلسطينيّ ودعم العالم الإسلاميّ، وستعود القدس، ويعود الأقصى، إلى حظيرة العالم

الإسلاميّ، بإذن الله، { وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ } [يوسف: ٢١].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الخطاب الثاني:

المؤتمر الدوليّ الأوّل للصحوة الإسلاميّة

بكلمة قائد الثورة الإسلاميّة آية الله الإمام السيد علي الخامنئي، انطلقت يوم السبت ١٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠١١ في العاصمة الإيرانيّة طهران أعمال وفعاليّات المؤتمر العالميّ الأوّل للصحوة الإسلاميّة. هذا المؤتمر الذي شارك فيه العديد من الدول العربيّة والإسلاميّة، منها: مصر والعراق ولبنان واليمن وأفغانستان والجزائر وأندونيسيا وآذربيجان وطاجيكستان والسودان وسوريا والصومال وباكستان وتنزانيا وتركيا وتشاد وفلسطين، وبخاصّةٍ البلدان التي تشهد حاليّاً حراكاً كبيراً على مستوى الصحوة الإسلاميّة المتمثّلة في ذلك المشهد الرائع الذي تضمّن إسقاط عددٍ من الأنظمة الاستبداديّة. كما حضرت هذا المؤتمر أيضاً وفود من دول غربيّة كثيرة، منها: بريطانيا وإيطاليا وأمريكا وروسيا ورومانيا والأرجنتين والبرازيل وبلجيكا والبوسنة وبوليفيا وتشيلي وصربيا وفرنسا و...

وقد تركّزت كلمات المجتمعين على محاور مهمّة تميّز بها هذا المؤتمر عن كلّ المؤتمرات التي كانت قد عُقدت سابقاً، منها: دراسة مفاهيم وأسس وجذور الصحوة الإسلاميّة، وكذلك: الدور الذي تؤدّيه القيادات والتيّارات في هذه الصحوة، ودراسة المخاطر التي تهدّد الصحوة الإسلاميّة في المنطقة، وصولاً إلى مناقشة أهداف وتداعيات الصحوة الإسلاميّة.

وجاء في الكلمة التي ألقاها قائد الثورة الإسلاميّة في هذا المؤتمر ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد وآله الطيّبين وصحبه المنتجبين.. قال الله العزيز الحكيم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا} [الأحزاب: ١ـ٣]..

أرحّب بالحضور الكرام والضيوف الأعزّاء..

إنّ ما جمعنا هنا هو الصحوة الإسلاميّة، أعني: حالة النهوض والوعي في الأمّة الإسلاميّة، والتي أدّت إلى تحوّلٍ كبير بين شعوب المنطقة، وإلى انتفاضاتٍ وثوراتٍ لم تكن تستوعبها أبداً محاسبات الشياطين الإقليميّين والعالميّين. ثورات عظيمة هدمت قلاع الاستبداد والاستكبار وألحقت الهزيمة بحرّاسها.

إنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ التطوّرات الاجتماعيّة الكبرى تستند دائماً إلى خلفيّة تاريخيّة وحضاريّة، وهي حصيلة تراكم معرفيّ وتجارب طويلة. في الأعوام المائة والخمسين الماضية كان حضور الشخصيّات الإسلاميّة الفكريّة والجهاديّة الكبيرة والفاعلة في مصر والعراق وإيران والهند والبلدان الأُخرى، الآسيويّة والأفريقيّة، مقدّمة تمهيديّة لهذا الوضع الراهن في العالم الإسلاميّ.

إنّ ما جرى في العقدين الخامس والسادس من القرن الميلاديّ الماضي في عددٍ من البلدان من تطوّرات أدت إلى تولّي أنظمة تميل غالباً إلى مدارس فكريّة مادّيّة، وقد تورّطت بمقتضى طبيعتها بعد أمدٍ في شراك القوى الاستكباريّة والاستعماريّة الغربيّة، إنّ هذا الذي جرى إنّما هو أيضاً من التجارب المليئة بالعبر، وقد كان له حيّز كبير في بلورة الأفكار العامّة والعميقة في العالم الإسلاميّ.

إنّ ما شهدته إيران من ثورة إسلاميّة كبرى هي ـ على حدّ تعبير الإمام الخميني العظيم ـ انتصار الدم على السيف، وإقامة نظام متجذّر ومقتدر وشجاع ومتطوّر وموثّر في الصحوة الإسلاميّة الراهنة، هو أيضاً يشكّل فصلاً

مُسهباً يحتاج إلى بحث و تحقيق، وسيستوعب حتماً مساحة مهمّة في تحليل وتدوين الوضع الحاليّ للعالم الإسلاميّ.

والحصيلة: أنّ الحقائق المتزايدة الحاليّة في العالم الإسلاميّ، ليست بالحوادث المنفصلة عن جذورها التاريخيّة وأرضيّتها الاجتماعيّة والفكريّة، ولذلك، من العبث أن يعمد الأعداء أو السطحيّون إلى اعتبارها موجةً عابرة أو حادثةً سطحيّة، وأن يحاولوا، بتحليلاتهم المنحرفة والمغرضة، إطفاء جذوة الأمل في قلوب الشعوب.

وإنّني هنا في حديثي الأخويّ هذا، أريد أن أقف عند ثلاث نقاط أساسيّة:

١) إلقاء نظرة إجماليّة على هويّة هذه النهضات والثورات.

٢) الآفات والأخطار والعقبات الكبرى التي تعترض طريقها.

٣) اقتراحات بشأن مواجهة هذه الآفات والأخطار ومعالجتها.

١ـ في الموضوع الأوّل (هويّة هذه الثورات):

أعتقد أنّ أهمّ عنصر في هذه الثورات هو الحضور الواقعيّ والشموليّ للشعوب في ميدان العمل وساحة النضال والجهاد، لا فقط بقلبهم وبعواطفهم وإيمانهم، بل أيضاً بأجسامهم وإقدامهم.

إنّ الفرق كبير وعميق بين مثل هذا الحضور وبين انقلابٍ يقوم به جمع من العسكريّين أو مجموعة مناضلة مسلّحة أمام شعب لا يتفاعل معهم، أو حتى أن لا يكون راضياً عنهم.

في حوادث العقدين الخامس والسادس من القرن الميلاديّ الماضي كان عبء الثورات في عددٍ من بلدان آسيا وأفريقيا لا تحمله الجماهير والشباب، بل تنهض به مجموعات انقلابيّة، أو فئات صغيرة ومحدودة مسلّحة. أولئك عزموا وأقدموا، ولكن حين غيّروا، هم أو الجيل الذي تلاهم، طريقهم على أثر دوافع

وعوامل عديدة، انقلبت تلك الثورات إلى ضدّها، وعاد العدوّ ليفرض سيطرته مرّةً أُخرى.

إنّ هذا يختلف كل الاختلاف مع تغيير تنهض به جماهير الشعب التي تندفع بأجسامها وأرواحها إلى الميدان وتطرد العدوّ من الساحة. وهنا فقط تصنع الجماهير شعاراتها وتحدّد أهدافها وتشخّص عدوّها وتفضحه وتتعقّبه، وترسم ـ ولو على سبيل الإجمال ـ مستقبلها، وبالنتيجة: تقطع الطريق أمام الخواصّ المداهنين والملوّثين، بل أمام المندسّين، وبذلك تحول دون الانحراف ومداهنة العدوّ وتغيير المسار.

إنّ التحرّك الجماهيريّ قد يؤدّي إلى تأخّر الانتصار النهائيّ للثورة، ولكنّه يبتعد عن السطحيّة وعن عدم الثبات. إنّه الكلمة الطيّبة التي قال عنها سبحانه: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ }[إبراهيم: ٢٤]،

إنّني حين رأيت ذلك التجمّع الجماهيريّ الضخم والمقاوم للشعب المصريّ الفخور من على شاشة التلفاز في ميدان التحرير أيقنتُ أنّ هذه الثورة منتصرة بإذن الله.

وهنا أذكر لكم هذه الحقيقة، وهي: أنّه بعد انتصار الثورة الإسلاميّة وإقامة النظام الإسلاميّ في إيران، وما نزل على أثر ذلك من زلزالٍ عظيم هزّ القوى الطامعة، الشرقيّة والغربيّة، وما ولّده من موجةٍ هائلة فريدة بين الشعوب المسلمة.. كنّا نتوقّع أنّ مصر سوف تنهض قبل غيرها.

والذي أثار في قلوبنا هذا التوقّع هو ما كنّا نعرفه عن مصر من تاريخٍ جهاديٍّ وفكريّ، ولما أنجبته من شخصيّاتٍ مجاهدة وفكريّةٍ كبرى. لكنّنا لم نسمع صوتاً واضحاً من مصر. كنت بيني وبين نفسي أخاطب الشعب المصريّ بقول أبي فراس الحمداني:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر *** أما للهوى نهى عليك ولا أمر

ولكن حين تدفّقت الجماهير المصريّة إلى ساحة التحرير وسائر الساحات المصريّة الأُخرى، سمعتُ الجواب، فقد كان الشعب المصريّ يقول لي بلسان قلبه:

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة *** ولكنّ مثلي لا يُذاع له سرُّ

هذا السر المقدس، يعني: أنّ العزم على الثورة قد تبلور ونضج في أعماق الشعب المصريّ بالتدريج، وتجلّى بإذن الله وبحوله وقوّته في الساحة بشكله العظيم.

وسوف تجري كلّ من تونس واليمن وليبيا والبحرين على نفس هذه القاعدة إن شاء الله تعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣].

مبادئ الثورات الجارية وقيمها وأهدافها

وفي مثل هذه الثورات، نجد أنّ المبادىء والقيم والأهداف لم تدوّن في مشاريع مسبقة على يد الجماعات والأحزاب المختلفة، بل هي مدوّنة في أذهان كلّ أفراد الشعب المتواجد في الساحة وفي قلوبهم وإراداتهم، وهي أيضاً معلنة ومثبتة في شعاراتهم وسلوكهم.

ووفقاً لهذه المحاسبة يمكن ـ بوضوح ـ تشخيص أنّ أصول ومبادئ هذه الثورات الجارية حاليّاً في مصر وبقيّة البلدان تتجلّى بالدرجة الأولى فيما يلي:

١) إحياء وتجديد العزّة والكرامة الوطنيّة التي انتُهكت على يد الهيمنة الديكتاتوريّة للحكّام الفاسدين والسلطة السياسيّة لأمريكا والغرب.

٢) رفع راية الإسلام الذي يمثّل العمق العقائديّ والعاطفيّ للشعب، وتوفير الأمن النفسيّ والعدالة والتقدّم والازدهار ممّا لا يتحقّق إلّا في ظلّ الشريعة الإسلاميّة.

٣) الصمود أمام النفوذ والسيطرة الأمريكيّة والأُوروبّيّة التي أَنزلت خلال أعوامٍ أكبر الضربات والخسائر والإهانات بشعوب هذه البلدان.

٤) سعي الكيان الصهيونيّ الغاصب ودولته اللّقيطة التي غرسها الاستعمار مثل خنجر في خاصرة بلدان المنطقة وجعلها وسيلةً لاستمرار سلطته المتجبّرة، وشرّد شعباً من أرضه التاريخيّة.

أصحاب هذه الثورات الحقيقيّون

وممّا لا شكّ فيه أنّ تبنّي ثورات المنطقة لهذه الأصول، وسعيها لتحقيقها، لاينسجم مع رغبات أمريكا والغرب والصهيونيّة، وهؤلاء يبذلون كلّ ما بوسعهم من جهد لينكروا ذلك، إلّا أنّ الواقع لا يتغيّر بإنكاره.

إنّ شعبيّة هذه الثورات هي أهمّ عنصر في تشكيل هويّتها. وإنّ القوى الطامعة قد بذلت كلّ جهدها ومارست كلّ أساليبها الملتوية لحفظ الحكّام المستبدّين والفاسدين والتابعين في هذه البلدان، ولم تكفّ عن دعمهم إلّا حينما انقطع أملها على أثر ثورة الجماهير وقيامهم وعزمهم.

من هنا، فإنّ هذه القوى لا يحقّ لها أن تعتبر نفسها مساهمةً في هذه الثورات. وفي بلدٍ مثل ليبيا لا يستطيع تدخّل أمريكا أو الناتو أن يكدّر هذه الحقيقة. ففي ليبيا أُنزل بالناتو خسائر فادحة لا تُعوّض. ونحن نقول: إنّه لو لم يكن هذا التدخّل، فإنّ انتصار الشعب اللّيبيّ كان من الممكن أن يتأخّر قليلاً، ولكن لم يكن لينزل بالبلد كلّ هذا الدمار في بُناه التحتية، ولم تكن كلّ هذه الأرواح من النساء والأطفال لتُزهق. فلا يحقّ لأولئك الأعداء الذين كانت أيديهم لسنواتٍ طويلةٍ بيد القذافي أن يدّعوا بأنّ لهم الحقّ في التدخّل في هذا البلد المظلوم والمُدمّر.

إنّ جماهير الشعب، والنخب الجماهيريّة، وكلّ أولئك الذين انطلقوا من

أوساط الجماهير، هم في الحقيقة أصحاب هذه الثورات، وهم الأمناء على حراستها، والذين يرسمون مستقبلها، ويدفعون بعجلتها إن شاء الله تعالى.

٢ـ وفي الموضوع الثاني (موضوع الآفات والأخطار):

لا بدّ لنا من التأكيد أوّلاً بأنّ الآفات والأخطار موجودة دائماً، إلّا أنّ هناك أيضاً سبلاً للوقاية منها، فلا ينبغي أن تكون الأخطار مبعث خوف الشعوب، بل دعوا الأعداء هم يخافونكم، واعلموا {إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦]. ويقول ربّ العزّة والجلال أيضاً بشأن فئةٍ من المجاهدين في عصر الرسالة: {ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: ١٧٤ ـ ١٧٣].

والأمر الذي لا بدّ منه في هذا المجال، هو معرفة الأخطار والآفات للوقاية من الحيرة والترديد عند مواجهتها، ولنكون على معرفة مسبقة تخوّلنا بتشخيص علاجها.

إنّنا هنا في الجمهوريّة الإسلاميّة قد واجهنا نظيراً لهذه الأخطار عقيب انتصار الثورة الإسلاميّة، وقد عرفناها وجرّبناها، واستطعنا أن نتجاوز أكثرها بسلامٍ بفضل الله تعالى، وتحت قيادة الإمام الخمينيّ، وبفضل وعي جماهيرنا وبصيرتهم وتضحياتهم. وبطبيعة الحال، فإنّ الأعداء لا يزالون يحوكون المؤامرات، وفي المقابل، لا يزال شعبنا يقاوم كلّ ذلك بعزيمةٍ راسخة لا تلين.

وإنّني هنا أقسّم هذه الأخطار والآفات إلى قسمين:

أ ـ ما كان لها جذور في داخلنا، وهي بالتالي تنبثق وتنبع من نفس ضعفنا.

ب ـ وما هي نتيجة مباشرة لتخطيط أعدائنا.

فالقسم الأوّل هو من قبيل: الشعور والظنّ بأنّ سقوط الحاكم العميل

والفاسد والديكتاتور هو نهاية الطريق. فإنّ هذا الشعور من شأنه أن يبعث على الارتخاء وراحة البال والغرق في نشوة النصر، وما يتبع كلّ ذلك: من ضعف الدوافع، وهبوط العزائم. وهذا هو الخطر الأول. وسوف يتفاقم هذا الخطر حين يعمد أشخاص ما إلى الحصول على حصّة خاصّةٍ من الغنيمة. وما جرى في معركة أُحد، حين طمع الذين كُلّفوا بالدفاع عن مضيق الجبل بالغنيمة، فتركوا أماكنهم، وأدّى ذلك إلى ما أدّى إليه من هزيمة المسلمين ونزول اللّوم والعتاب من ربّ العالميّن، إنّما هو نموذج بارز في هذا الصدد وينبغي أن لا ننساه أبداً.

إنّ الشعور بالخشية من الهيمنة الظاهريّة للمستكبرين، والإحساس بالخوف من أمريكا وسائر القوى الطامعة، لهو خطر آخر من هذا القبيل، ولا بدّ من اجتنابه وتوخّيه. فعلى الشباب وكلّ النخب الشجاعة أن يطردوا من قلوبهم هذا الخوف.

ومن جانبٍ آخر، فإنّ الثقة بالعدوّ والانخداع بابتسامته ووعوده ودعمه إنّما هو من الآفات الكبرى الأُخرى التي يجب أن يحذر منها ـ بشكلٍ خاصّ ـ النخب والمثقّفون وقادة المسيرة. ويجب العمل على معرفة العدوّ بعلاماته الفارقة التي تميّزه وتشخّصه بدقّه مهما تلبّس به من لباس، وعلى صيانة الشعب والثورة من كيده الذي يدبّره في مواضع مظلمة، وخلف ستار الصداقة والحرص، وتحت ذريعة مدّ يد العون والمساعدة.

كما أنّه ـ من جانبٍ آخر ـ قد يعتري الأفراد غرور فيحسبون العدوّ غافلاً، ولذلك لا بّد من اقتران الشجاعة بالتدبير والحزم وحشد كافّة الإمكانات الإلهيّة في وجودنا لمواجهة شياطين الجنّ والإنس.

أضف إلى أنّ إثارة الاختلافات وخلق الصراعات فيما بين الثوريّين، والاختراق من خلف جبهة النضال ـ هي أيضاً ـ من الآفات الكبرى التي يجب الفرار منها بكلّ ما أوتينا من عزمٍ وقوّة.

وأمّا الأخطار من القسم الثاني: فإنّ شعوب المنطقة قد خبرتها غالباً في الحوادث المختلفة، وأوّلها: تولّي زمام الأمور من قِبل عناصر وأفرادٍ يعتقدون أنّ لهم التزاماتٍ أمام أمريكا والغرب. فالغرب يسعى بعد السقوط الاضطراريّ للعناصر التابعة له أن يحافظ على أصل النظام وعلى المحاور المفصليّة للقدرة، وبالتالي: فهو يسعى إلى أن يضع وجوهاً وشخصيّات أُخرى على رأس هذا البدن، وبذلك يواصل فرض سيطرته، وهذا بكلّ تأكيد يعني إهدار كلّ المساعي والجهود.

وفي هذه الحالة، إن واجهوا مقاومة الجماهير ووعيها فهم سوف يسعون إلى إيجاد بدائل انحرافيّةٍ أخرى يضعونها أمام الثورة والجماهير، وهذه البدائل يمكن أن تتمثّل باقتراح نماذج للحكم والدستور تقوم بدفع بالبلدان الإسلاميّة مرّةً أُخرى إلى شراك التبعيّة الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة للغرب. ويمكن أن تتمثّل هذه الخطوة في اختراق صفوف الثورة، وتقديم الدعم الماليّ والإعلاميّ لتيّار أو تيّارات مشكوكة، وعزل التيّارات الثوريّة الأصلية.

وهذا يعني أيضاً عودة هيمنة الغرب وتثبيت النماذج المهترئة الغربيّة والبعيدة عن مبادئ الثورة، ثمّ سيطرة الأجنبيّ بشكلٍ كامل على الأوضاع.

ولو أنّ هذه الخطط لم تفلح بأجمعها، فإنّ تجربتنا تقول: إنّهم سيعمدون إلى أساليب أُخرى، منها: إثارة الفوضى والاغتيالات والحروب الداخليّة بين أتباع الأديان أو القوميّات والقبائل والأحزاب، بل بين الشعوب والبلدان الجارة، إلى جانب فرض الحصار الاقتصاديّ والمقاطعة وتجميد الأرصدة الوطنيّة، وأيضاً: الهجوم الشامل الإعلاميّ والدعائيّ.

إنّ الهدف من وراء كلّ ذلك هو جعل الشعوب تشعر بالتعب واليأس، وجعل الثوار يشعرون بالترديد والندم، والأعداء يعلمون أنّ مثل هذه الحالة إذا ما تمّت فإنّها تجعل هزيمة الثورة ممكنة وميسورة.

اغتيال النخب الصالحة والفاعلة والإساءة إلى سمعة الآخرين، ومن جهة أُخرى: شراء ذمم العناصر الهزيلة، هي أيضاً، من الأساليب المتداولة للقوى الغربيّة وأدعياء الحضارة والأخلاق!!

إنّ وثائق وكر التجسّس الأمريكيّ التي وقعت بيد الثورة الإسلاميّة في إيران الإسلام، أوضحت بدقّة أنّ كلّ هذه الدسائس قد خطّط لها نظام الولايات المتحدة الأمريكيّة، الذي يعتبر إعادة الرجعيّة والاستبداد والحاكميّة التابعة والعميلة في البلدان الثورية مبدءاً يجيز لهم ممارسة كلّ هذه الأساليب القذرة.

٣ـ وفي آخر قسم من حديثي (اقتراحات لمواجهة الأخطار):

إنّني هنا أضع أمام تشخيصكم وانتخابكم توصيات استقيها من تجاربنا العينيّة والملموسة في إيران، وبالاعتماد على مطالعة دقيقةٍ لأوضاع وأحوال بقيّة البلدان.

إنّ من المؤكد أنّ ظروف الشعوب والبلدان ليست على نحوٍ واحد في جميع الأمور. لكن ثمة بيّناتٍ وعلامات يمكن أن تكون مفيدةً ونافعةً للجميع.

وأوّل الحديث هنا هو أنّه من الممكن تخطّي كلّ هذه العقبات، والتغلّب على جميع الآفات واجتيازها اجتياز منتصر بالاتّكال على الله تعالى والاعتماد عليه وحسن الظنّ بما ورد في كتابه العزيز من وعدٍ بالنصر، والتحلّي بالعقلانيّة والعزيمة والشجاعة..

إنّكم طبعاً قد نهضتم بعمل كبير ومصيريّ. ولذلك لا بدّ أن تتحمّلوا من أجله أيضاً متاعب كبيرة. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلٍ ورَخَاءٍ، ولَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وبَلَاءٍ، وفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ، ومَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ، مُعْتَبَر...**»[٣].

نصيحتي المهمّة لكم أن تروا أنفسكم دائماً في الساحة: {فَإِذَا فَرَغْتَ

فَٱنصَبۡ}[الشرح: ٧]، واجعلوا الله سبحانه نصب أعينكم، وثقوا بأنّه في عونكم: {وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب}[الشرح: ٨]، وأن لا تكون الانتصارات مبعث غرور وغفلة عندكم: {إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا}[النصر: ١ ـ ٣]، وهذه دعامات حقيقيّة لكلّ شعب مؤمن.

نصيحتي الأُخرى لكم هي إعادة قراءة أصول الثورة بشكلٍ مستمرّ. فالشعارات والأصول يجب أن تخضع دائماً للتنقيح والتطبيق مع أصول الإسلام ومحكماته. وإنّ مبادئ: الاستقلال، والحرّيّة، والعدالة، وعدم الاستسلام أمام الاستبداد والاستعمار، ورفض التمييز القوميّ والعنصريّ والمذهبيّ، ورفض الصهيونيّة رفضاً صريحاً وقاطعاً ـ وهي المبادئ التي تشكّل أركان النهضات والثورات المعاصرة في البلدان الإسلاميّة ـ هي بأجمعها مستقاة من الإسلام ومن القرآن الكريم.

لذلك أقول: دوّنوا مبادئكم، وحافظوا بحساسيّةٍ كبيرة على أصالتكم، ولا تسمحوا لأعدائكم بتدوين نظام مستقبلكم، ولا تدعوا أصولكم الإسلاميّة تُقَدَّم قرباناً على مذبح المصالح العابرة.

إنّ الانحراف في الثورات إنّما يبدأ من الانحراف على مستوى الشعارات والأهداف، فلا تثقوا إطلاقاً بأمريكا ولا بالناتو ولا بسائر الأنظمة المجرمة، مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، هذه الأنظمة التي جثمت لأمدٍ طويل على صدور بلدانكم، وعملت على تقسيمها وتشتيتها، وقامت بنهب ثرواتكم، فتعاملوا معها بسوء ظنّ، ولا تصدّقوا ابتساماتهم، فإنّ وراء هذه الابتسامات والوعود تكمن الخيانات والمؤامرات، وابحثوا عن حلولكم من منبع الإسلام الفيّاض وردّوا وصفات الأجانب إليهم.

نصيحتي المهمّة الأُخرى لكم هي: لزوم الحذر من الاختلافات المذهبيّة

والقوميّة والعنصريّة والقبليّة والحدوديّة. اعترفوا بالتفاوت والاختلافات الموجودة فيما بينكم ووجّهوها بإدارةٍ حاذقة؛ فإنّ التفاهم بين المذاهب هو مفتاح النجاة.

وأمّا أولئك الذين يثيرون نيران التفرقة المذهبيّة أو يعمدون إلى تكفير هذا وذاك، فهم ليسوا إلّا عملاء الشيطان وجنده، حتى لو لم يعلموا هم بذلك.

إنّ إقامة النظام وتأسيس الحكومة لهو عمل كبير وأساسي، وهو عمل معقّد وصعب للغاية. فلا تدعوا النماذج العلمانيّة أو اللّيبراليّة الغربيّة، أو القوميّة المتطرفة، أو الاتّجاهات اليساريّة الماركسيّة تُفرض عليكم فرضاً.

إنّ المعسكر الشرقيّ قد انهار، والمعسكر الغربيّ اليوم يتشبّث بالعنف والحرب والخداع، ليحافظ على بقائه، وليس له عاقبة حسنةٍ متصوَّرة في الأفق، بل إنّ مرور الزمان هو بضررهم، ولصالح تيّار الإسلام الأصيل.

إنّ هدفنا النهائيّ يجب أن يتمثّل في التوجّه نحو الأمّة الواحدة الإسلاميّة، وبناء الحضارة الإسلاميّة الجديدة على أساس الدين والعقلانية والعلم والأخلاق.

تحرير فلسطين من مخالب الوحش الصهيونيّ هو أيضاً هدف كبير. فهذه بلدان البلقان والقوقاز وغرب آسيا استطاعت أن تحرّر أنفسها من سيطرة الاتحاد السوفييتي السابق بعد مرور ثمانين سنة على احتلالها، فلماذا لا تستطيع فلسطين المظلومة بعد سبعين عاماً أن تتحرر من أسر السيطرة الصهيونيّة الغاشمة؟!

إنّ هذا الجيل المعاصر في البلدان الإسلاميّة له القدرة على النهوض بمثل هذا العمل الكبير. بل إنّ جيل الشباب اليوم لهو مبعث فخر لمن سبقه من الأجيال.

كما يقول الشاعر العربيّ:

قالوا: أبو الصخر من شيبان قلت لهم *** كلّا لعمري ولكن منه شيبانُ
فكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرا حسبٍ *** كما علت برسول الله عدنانُ[٤]

فثقوا بجيل شبابكم، وأحيوا روح الثقة بالنفس في وجودهم، وغذّوهم بتجارب الآباء والأجداد.

ملاحظتان:

وثمّة ملاحظتان مهمّتان في هذا المجال:

الملاحظة الأُولى: أنّ أحد أهمّ مطالب الشعوب الثائرة والمتحرّرة أن يكون لها الحضور الفاعل، وأن يكون لأصواتها الدور الحاسم في إدارة البلاد.

ولمّا كانت هذه الشعوب مؤمنةً بالإسلام، فإنّ مطلوبها هو «نظام السيادة الشعبيّة الإسلاميّ»، أي: أن يتمّ انتخاب الحكّام وفق تصويت الناس، وأن تكون القيم والأصول الحاكمة على المجتمع معتمدةً على أصول قائمة على المعرفة والشريعة الإسلاميّة.

وهذا ما يمكن تحقيقه في البلدان المختلفة بأساليب وأشكال مختلفة، كلّ بمقتضى ظروفها الخاصّة، لكن يجب المراقبة جيّداً، وبحساسيّة كاملة، كيلا يختلط هذا المشروع بالديمقراطيّة الليبرالية الغربيّة. هذه الديمقراطيّة الغربيّة العلمانيّة، أو المعادية للدين أحياناً، ليس لها أيّ ارتباط بالسيادة الشعبيّة الإسلاميّة الملتزمة بالقيم وبالخطوط الأصليّة الإسلاميّة في نظام البلاد.

الملاحظة الثانية: أنّ التوجه الإسلاميّ يجب أن لا يختلط بالتحجّر والقشريّة والتعصّب الجاهل والمتطرّف. بل لا بدّ أن يكون الفاصل بين هذين الاثنين واضحاً؛ فإنّ التطرف الدينيّ المقرون ـ غالباً ـ بالعنف الأعمى، هو سبب التخلّف والابتعاد عن الأهداف السامية للثورة، وهذا بدوره سبب ابتعاد الجماهير عنها، وفي النتيجة: سيكون هو أيضاً العامل الرئيسيّ وراء فشل الثورة.

وخلاصة القول: أنّ الكلام عن الصحوة الإسلاميّة ليس حديثاً عن مفهوم مبهم غير مشخّص، أو يقبل التأويل والتفسير. إنّه حديث عن واقع خارجيٍّ مشهود ومحسوس، ملأ الأجواء، وفجّر الثورات الكبرى، وأسقط عناصر خطرة في جبهة الأعداء، وأخرجهم من الساحة. ومع ذلك، فالساحة لا تزال هشّة، وهي تحتاج إلى بلورة، وإلى تكثيف العمل في سبيل تحقيق الأهداف النهائيّة.

إنّ الآيات التي تُليت في مطلع هذا الحديث تشتمل على منهج كامل للعمل، له الفاعليّة الدائمة، وبخاصّةٍ في هذه البرهة الحسّاسة والمصيريّة. فهي مع تخاطب النبي الأكرم ' لكنّنا جميعاً في الواقع مخاطبون بها ومكلّفون. أوّل توصية في هذه الآيات بالتقوى بمعناها السامي والواسع، ثمّ رفض الطاعة للكافرين والمنافقين، ثمّ اتّباع الوحي، وبالتالي: التوكّل على الله، والاعتماد عليه.

مرّةً أُخرى أمرّ على هذه الآية الكريمة: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [الأحزاب: ١ ـ ٢].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الهوامش:

(١) الجدير بالذكر هنا أنّ هذا الخطاب قد لقي أصداءاً واسعة النطاق في وسائل الإعلام العالميّة، فقد تحدّثت وكالة الصحافة الفرنسيّة عن خطاب قائد الثورة الإسلاميّة، وكتبت تقول: «**إنّ آية الله الخامنئي رفض في خطاب يوم السبت أيّ اقتراح يؤدّي الى تقسيم فلسطين**» . وذكرت صحيفة يديعوت أحرونوت الصهيونيّة أنّ القائد الخامنئيّ أكّد ضرورة إجراء استفتاءٍ في المنطقة، وشدّد على ضرورة مقاومة الفلسطينيّين في مواجهة الصهاينة. وأشارت وكالة أسوشيتدبرس الأمريكيّة

المعروفة بنشر خطابات قائد الثورة الإسلاميّة إلى هذا الخطاب القيّم الذي ألقاه سماحته وأنّه اعتبر اقتراح سلطة الحكم الذاتيّ في إعلان دولة فلسطين اقتراحاً مكتوباً عليه الفشل. وقالت: «إنّ آية الله الخامنئي أكّد بأنّ على الفلسطينيّين أن لا يقيّدوا أنفسهم بحدود ١٩٦٧ التي تتطلب الاعتراف رسميّاً بـ إسرائيل؛ وذلك لأنّ كلّ تراب فلسطين يعود لهم». وأضافت «إنّ آية الله الخامنئي اعتبر مرّةً أُخرى أنّ إسرائيل غدّة سرطانيّة يجب إزالتها». وأمّا صحيفة هآرتس الصهيونيّة فقد نقلت أنّ قائد الثورة الإسلاميّة قال: «نحن لا نقول يجب إلقاء المهاجرين اليهود في البحر أو الاعتراف رسميّاً بسيادة الأمم المتّحدة، بل إنّ استراتيجيّتنا تقوم على أساس إجراء استفتاءٍ حرٍّ يشارك فيه كلّ الفلسطينيين». ومن جانبها، نشرت صحيفة جيروزاليم بوست الصهيونيّة خطاب قائد الثورة الإسلاميّة، وقالت: «إنّ آية الله الخامنئي رفض اقتراح تشكيل الدولتين الفلسطينيّة والإسرائيليّة».

(٢) عجز بيت من قصيدة مشهورة جدّاً من عيون قصائد أبي فراس الحمدانيّ، واسمها: أراكَ عصيّ الدمع، وصدر البيت: تهون علينا في المعالي نفوسنا.

(٣) انظر: نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام ١: ١٥٥، تحقيق وشرح: الإمام محمّد عبده، الطبعة الأُولى، ط ١٤١٢هـ، مطبعة النهضة، دار الذخائر، قم المقدّسة.

(٤) البيتان لابن الرومي من البسيط، انظر: البغداديّ، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ١١: ٤٠، تحقيق محمّد نبيل طريفي وإميل بديع يعقوب، ط ١، سنة ١٩٩٨م، مطبعة دار الكتب العلميّة، بيروت.

(ملف العدد)
في رحاب الوعي
واليقظة عند الشعوب

الجرائم المرتكبة في البحرين
و
اختصاص المحكمة الجنائية الدولية

□ **د. عبد الحميد عباس دشتي** (*)

توطئة:

الوضع المثالي هو أنْ يقدّم مرتكبو الجرائم للمحاكمة أمام محاكم بلدانهم نفسها، فمن الأيسر إثبات وقوع الجرائم في البلد الذي ارتكبت فيه؛ حيث يوجد الضحايا والشهود والشركاء والأدلة، كما أنّ العدالة التي تأخذ مجراها في البلد نفسه تتيح للضحايا النهوض بأكبر دور ممكن، وربما كانت لها أكبر دلالة لهم. ولكنّه لمّا كانت أوسع انتهاكات حقوق الإنسان نطاقاً قد ارتكبت باسم

(*) رئيس المجلس الدولي لدعم المحاكمة العادلة وحقوق الإنسان (جنيف)، والأمين العام للمؤتمر العام لنصرة شعب البحرين (بغداد)، وعضو الأمانة العامة للتجمع العربي الإسلامي لدعم خيار المقاومة (بيروت).

الدولة، فمن المستبعد ـ دون حدوث تغيير سياسيّ شامل ـ أن تتمتّع محاكم تلك الدولة بالقدرة، أو يتاح لها المجال السياسي اللازم لإجراء تلك المحاكمات.

لذلك فإنّه يتمّ البحث في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية الدائمة، ومدى الإمكانية في نظرها لجرائم النظام البحريني، فقد أعلن المدّعي العامّ في المحكمة الجنائية الدولية (لويس مورينو أوكامبو) في وقت سابق أنّ هذه المحكمة المكلفة بالنظر في انتهاكات كبيرة لحقوق الإنسان لا صلاحية لها في مسألة الوضع في البحرين، وقال (مورينو أوكامبو) للصحفيين: لا صلاحية لنا؛ إذ إنّ البحرين ليست من الدول الموقعة على معاهدة روما التي انبثقت عنها المحكمة الجنائية الدولية.

وأوضح (مورينو أوكامبو) أنّه تلقّى أكثر من شكوى بشأن انتهاكات حقوق الإنسان وارتكاب الجرائم الأشد خطورة وموضعاً للاهتمام الدولي، وبموجب معاهدة روما الموقّعة عام ١٩٩٨، فإنّ المحكمة الجنائية الدولية لا تمارس صلاحيتها إلّا حين تكون الوقائع المعنية ارتكبت على أرض دولة موقعة على المعاهدة، أو يكون مرتكبها من رعايا إحدى هذه الدول.

ورأي المدّعي العام له أهميته، فهو يتحدّث عن مدى صلاحية المحكمة الجنائية الدولية النظر في القضايا التي تدخل في اختصاصها وفقاً لنظامها الأساسي، والملفت للنظر هو أنّ البحرين لم تصادق أيضاً على معاهدة روما ١٩٩٨؛ ولذلك سوف يكون رأي المدعي العام ابتداءاً هو عدم اختصاص المحكمة الجنائية الدولية النظر في الجرائم التي ارتكبها النظام البحريني، وذلك لأنّ البحرين ليست من الدول الموقعة على المعاهدة؛ لذلك يتوجب علينا العمل بجدّيّة للضغط باتجاه المدعي العام لمباشرة التحقيق على أساس المعلومات التي تدخل ضمن اختصاص المحكمة دون تقييد، وتحريك الدعوى من تلقاء نفسه.

وقد تثير العديد من الدول وفي أكثر من مناسبة عدّة تساؤلات عند الحديث

عن ضرورة التصديق على معاهدة روما لسنة ١٩٩٨، وأهم هذه التساؤلات هو: هل النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية فيه مساس بالسيادة الوطنية؟

لعلّ أهمّ حجة يستند إليها منتقدو التصديق على معاهدة روما بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية الدائمة هي الحجّة المؤسسة على مبدأ السيادة، وتذهب هذه الحجة إلى القول بأنّ وقوع جريمة على إقليم دولة، يعني حدوث مسألة داخلية تهمّ القضاء الوطني فحسب، وأنّ أيّ التفافٍ على ذلك ـ كإنشاء محكمةٍ جنائية دولية ـ يمسّ السيادة الوطنية للدولة، ويعدّ تدخلاً في صميم الشؤون الداخلية للدولة.

وفي اعتقادنا أنّ الردّ على هذه الحجة يلزم معرفة مواطن المبادئ القانونية التي تقوم عليها المحكمة الجنائية الدولية، والتي يمكن أنْ تشكّل مساساً بالسيادة الوطنية، بالإضافة إلى توضيح موجز عن أهمية إنشاء المحكمة الجنائية الدولية الدائمة، وإمكانية الاستفادة منها اليوم فيما يخصّ حالة الانتهاكات والجرائم المرتكبة في البحرين.

* * *

المبحث الأوّل
إنشاء محكمة جنائية دولية

عرف المجتمع الدولي الحاجة إلى وجود مثل هذه المحكمة من نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وجاء ذلك إثر تطوّر الحس الجماعي الدولي بخطورة ترك بعض الأعمال المرتكبة زمن النزاعات المسلحة بدون تجريم وملاحقة ومعاقبة من يقترفها.

وكانت اتفاقيات جنيف لعام ١٨٦٤، ١٩٠٦، واتفاقيات لاهاي لعام

١٨٩٩، ١٩٠٧ قد أرست مجموعة من المفاهيم القانونية الجديدة التي تحدّد الاتجاه العام للمجتمع الدولي، والذي لم يعد يرى في السيادة الوطنية والحقّ في استخدام القوّة المسلحة لحلّ النزاعات المسلحة أمراً مطلقاً.

أولاً: المحاكم المؤقتة

عرف المجتمع الدولي نوعين من المحاكم المؤقتة، فكان للمنتصرين في الحربين العالميتين أنْ شكّلوا محاكم لتتبع الخارجين عن أحكام القانون الدولي، ثمّ تكفّل مجلس الأمن بتكوين محاكم جنائية خاصة لنفس الغرض.

١. محاكم المنتصرين:

بعد أن اختلف المنتصرون حول مفهوم المسؤولية الدولية من جهةٍ، وضرورة تقييد السيادة الوطنية للدولة من جهةٍ أُخرى، تمّ الاتفاق في معاهدة فرساي لعام ١٩١٩ على تشكيل محكمة دولية لملاحقة الملك غليوم الثاني لخرقة قواعد الأخلاق الدولية وسلطة المعاهدات. وتعتمد هذه المحكمة في قضائها على «**أسمى مبادئ السياسة بين الأُمم، والاهتمام بتأمين احترام الواجبات العلنية والالتزامات والأخلاق الدولية**» [مادة ٢٧٧ من المعاهدة]. وطلب الحلفاء تسليمه ليحاكم أمام هذه المحكمة العسكرية، غير أنّ هولندا رفضت تسليم الملك.

ومن جانب آخر جاءت الموادّ (٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠) من المعاهدة لتتعقّب مسؤولين ألمان عن جرائمهم ضدّ الحلفاء، لكنّ الحلفاء تخلّوا عن حقّهم في ملاحقة المتهمين لصالح محكمة ألمانية، والتي تعقّبت ٤٥ متهماً من أصل ٨٩٦ كان الحلفاء قد طلبوا ملاحقتهم، وأصدرت أحكامها بحقّ تسعةٍ منهم فقط.

وعرفت الحرب العالمية الثانية مثل سابقتها الكثير من الجرائم والانتهاكات لقواعد القانون الدولي الإنساني، وقانون النزاعات المسلحة، لكنّ المنتصرين

قصروا ملاحقتهم مرّة أُخرى على من خسر الحرب من الألمان واليابانيين وصدر نظام محكمة (نورمبرغ) بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٤٥. ويتكوّن هذا النظام من ثلاثين مادة، تنصّ على تكوين هيئة المحكمة وإجراءاتها وآليات الدفاع والحكم فيها.

أمّا محكمة طوكيو فقد أُنشئت في ١٩ ديسمبر ١٩٤٦، وهي لا تختلف عن محكمة نورمبرغ في أشياء مهمّة.

كانت محكمة نورمبرغ العسكرية الدولية قد تعقبت ثلاثة أنواع من الجرائم: جرائم ضد الإنسانية، وجرائم ضد السلام وهي: جريمة العدوان وخرق المعاهدات الدولية، وأخيراً جرائم الحرب. أمّا محكمة طوكيو فقد أعلنت الجرائم ضدّ الإنسانية، وتمّ التعويض عنها بجريمة (الاضطهاد لأسباب سياسية وعرقية) حتى يحتفظ اليهود بخصوصية تمييزهم عن غيرهم في محكمة نورمبرغ.

لاحقت محكمة نورمبرغ ٢١ متهماً، بينهم ١٦ مدنياً و٥ عسكرين، وأصدرت في ١ أكتوبر ١٩٤٦ أحكاماً تتراوح بين البراءة والإعدام (١٢ حكماً)، وأصدرت محكمة طوكيو في ١٢ نوفمبر ١٩٤٨ أحكاماً على المتهمين، منها ستة أحكام بالإعدام.

أرست هذه المحكمة مبدأ مسؤولية الأفراد الجزائية في القانون الدولي، كما ألغت مبدأ وجوب الطاعة لأوامر الرؤساء عندما تكون هذه الأخيرة مخالفة لقواعد القانون الدولي، إضافة إلى مبدأ عدم رجعية القوانين الجنائية.

٢. سلطة مجلس الأمن في تشكيل محاكم جنائية دولية مؤقتة:

كان لرجال القانون الكثير من الاحتجاجات على شرعية حقّ مجلس الأمن في تكوين محاكم خاصة، منها أنّ ميثاق الأمم المتحدة لا يُعطي مثل هذا الحق للمجلس، وأنّ المادة (٢٩) من الميثاق ـ والتي تنصّ على أنّ «**لمجلس الأمن أنْ**

يُنشئ من الفروع الثانوية ما يرى له ضرورة لأداء وظائفه» ـ لا يمكن أن تعني إنشاء محاكم لتكون أجهزة تساعد المجلس في عمله، وأنّ المحاكم الدولية تقام عادةً بناءاً على معاهدة دولية متعددة الأطراف، يوضع دستورها بصورة سابقة لارتكاب الجرائم التي يحقّ لها ملاحقتها. إضافةً إلى تعارض هذا النوع من المحاكم مع مبدأين أساسيين، هما: حقّ الدول المعنية في ممارسة اختصاصاتها في ملاحقة هؤلاء المتهمين بما يحمل في طياته التفافاً على مفهوم سيادة الدول من جهة، ومن جهةٍ ثانية حقّ المتهم في أنْ يمثل أوّلاً أمام قضاءٍ وطنيّ يحاكمه بموجب نصوص وطنية.

إلّا أنّ المجلس لم يأبه بهذه الاعتراضات القانونية وغيرها، وقرّر تشكيل محكمتين خاصتين، الأولى في قراره رقم: (٨٢٧) بتاريخ ٢٥/ ٥/ ١٩٩٣، والثانية في قراره رقم: (٩٥٥) بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٩٤؛ لتتعقّب محكمة يوغسلافيا السابقة الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، وخرق قوانين وأعراف الحرب والجرائم ضدّ الإنسانية وجريمة الإبادة، وكان هدفها: «**محاكمة الأشخاص المسؤولين عن الانتهاكات الجسيمة للقانون الدولي الإنساني في أراضي يوغوسلافيا السابقة**» [مادة ١ من نظامها الأساسي]. إضافة إلى هدفها بأنْ «**تردّ إلى المالكين الشرعيين أيّة ممتلكات أو عوائد تمّ الاستيلاء عليها بسلوكٍ إجرامي**» [مادة: ٣].

أمّا محكمة رواندا، فكانت تختصّ بالنظر في الجرائم ضدّ الإنسانية وجريمة إبادة الجنس، وأخيراً خرق المادة الثالثة المشتركة بين اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩، والمتعلقة بتأمين المعاملة الإنسانية لغير المقاتلين النظاميين، إضافة إلى أحكام البروتوكول الثاني الخاص بالنزاعات المسلحة غير الدولية لعام ١٩٧٧.

وما زالت هاتان المحكمتان تقومان بعمليهما حتى تاريخه، فقد أصدرت

المحكمة الجنائية الدولية لرواندا حتى نهاية آذار من عام ٢٠٠٣ عشرة أحكام تتراوح بين السجن مدى الحياة (٥ أحكام)، والبراءة (حكمٌ واحد)، وأصدرت المحكمة الدولية ليوغوسلافيا (٢١) حكماً تتراوح بين البراءة (٥ أحكام)، والسجن (٤٥) عاماً (حكم واحد).

ثانياً: تطوّر فكرة إنشاء محكمة جنائية دولية

تضافرت الجهود داخل عصبة الأُمم المتحدة وخارجها في إطار إنشاء محكمة جنائية دولية، فقد دعت ـ مثلاً ـ جمعية القانون الدولي في دورة عام ١٩٢٢ إلى إنشاء محكمة جنائية دولية ذات صلاحيات زمن السلم والحرب، واستمرّت هذه الجهود خاصة بعد أنْ تبنّت الأُمم المتحدة في قرارها رقم (٩٥) لعام ١٩٤٦ المبادئ الواردة في ميثاق محكمة نورمبرغ وأحكامها، وطلبت الجمعية العامة من لجنة القانون الدولي وضع النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، والذي قدّمت نسختها الأُولى عام ١٩٥١، والثانية عام ١٩٥٣، لكنّ أعمال اللجنة كانت قد علّقت بانتظار تحديد مفهوم العدوان، والذي عرف عام ١٩٧٤ في القرار رقم: (٣٣١٤).

واستغلت لجنة القانون الدولي تفويض الجمعية العامة لها بتطوير مشروع مكافحة التجارة غير المشروعة، وإنشاء محكمة جنائية دولية لهذا الغرض للتوصّل إلى وضع مشروع النظام الأساسي للمحكمة عام ١٩٩٤، وشكّلت الجمعية العامة لجنة تحضيرية عام ١٩٩٥ تلاحق موضوع إنجاز هذا المشروع، ثم دعت في قرارها رقم: (٥١/ ٢٠٧) لعام ١٩٩٦ هذه اللجنة إلى متابعة أعمالها من أجل التحضير لمؤتمر دبلوماسي لهذا الغرض.

وكانت لجنة القانون الدولي قد حددت عام ١٩٩٦ الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة، وهي: العدوان، إبادة الجنس، الجرائم ضد الإنسانية،

الجرائم ضد موظفي الأمم المتحدة، وأخيراً جرائم الحرب ـ بعد أن استبعدت عدداً من الجرائم التي جاء بها مشروع عام ١٩٩٤ في مادته رقم (٢٠) كخطف الطائرات التي تحرّمها اتفاقية لاهاي لعام ١٩٧٠، وجريمة التمييز العنصري الواردة في اتفاقية عام ١٩٧٣، وأخذ الرهائن التي تحميها اتفاقية عام ١٩٧٩...الخ.

عُقِد المؤتمر في روما في الفترة الواقعة بين ١٥/ ٦ و ١٧/ ٧/ ١٩٩٨، بحضور ممثلي (١٥٤) دولة، ووقعت (١٢٦) دولة النظام الأساسي، وامتنعت (٢١) دولة عن التصويت، بينما صوّتت (٧) دول ضدّه، ودخل هذا النظام حيّز التنفيذ في شهر تموز من عام ٢٠٠٢ بعد الحصول على تصديقات (٦٠) دولة التي طلبتها المادة (١٢٦) كشرط لبدء التنفيذ.

إنّ النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية هو عبارة عن حلٍّ وسط أمكن الوصول إليه بعد مفاوضات مضنية، وقد جاءت توفيقية بين الدول المؤيدة لمحكمة فعّالة ومستقلة وحيوية وبين الدول المعارضة لمثل هذه المحكمة.

هذا، ويتكوّن النظام الأساسي للمحكمة من مقدمة وثلاثة عشر باباً جاءت في (١٢٨) مادة، وجاء في المادة الثالثة بأنّ مقرّ المحكمة في لاهاي بهولندا (الدولة المضيفة).

خصائص المحكمة الجنائية الدولية:

من أهم خصائص المحكمة الجنائية الدولية ما يلي:

١) ولدت هذه المحكمة الدولية نتيجة اتفاق بين دول صاحبة سيادة، مِمّا يعني تلافيها لأوّل العيوب التي كانت تؤخذ على سابقاتها، وهي معاهدة لا تُلزم إلا أطرافها، وتخضع لقواعد القانون الدولي للمعاهدات العرفي منه والتعاقدي.

٢) هي هيئة دائمة، وهذا ما أكّدته المادة الأُولى من النظام الأساسي، مِمّا سيؤدي مستقبلاً إلى إمكان تشكيل اجتهاد قضائي جنائي مؤسس لمحكمة دائمة تسعى إلى الاستقلالية عن الهيئات السياسية الدولية.

٣) لم تشرّع المحكمة جرائم جديدة، بل أخذت الجرائم الأشد خطورة على البشرية، كما كان القانون الدولي الجنائي قد عرّفها، وعملت على أساسها.

٤) تلافت هذه المحكمة ما وقع من أخطاء سابقة من حيث محاولة تقيدها بالمبادئ العامة للقانون الجنائي الدولي [الباب الثالث: المواد من ٢٢ إلى ٣٣]، فالمادة (٢٢) مثلاً تنصّ على أنّه «**لا جريمة إِلّا بنصّ**»، والمادة (٣٣) تنصّ على أنّه «**لا عقوبة إِلّا بنصّ**»، أمّا المادة (٢٤) فقد كرست بدء رجعية الأثر على الأشخاص، حيث لا يسأل المتهمون أمامها إِلّا عن الجرائم التي وقعت بعد دخول ميثاقها حيّز التنفيذ، وتحدثت المادة (٢٥) عن المسؤولية الجنائية الفردية؛ حيث لا يخضع لاختصاصها إِلّا الأفراد الطبيعيّون، مستبعدة بذلك المسؤولية الجنائية للأشخاص الاعتباريين.

٥) كرّست المادة (٢٧) من الاتفاقية مبدأ عدم الاعتداد بالصفة الرسمية، وبالتالي فإنّ «**المنصب الرسمي لن يُشكّل دفاعاً مقبولاً أو ظرفاً مخفّفاً لتحديد العقاب**».

٦) أمّا المادة (٢٨) فقد تحدثت عن مبدأ مسؤولية القادة والرؤساء الآخرين، وبالتالي فإنّ المسؤولية تشمل جميع من هم في التسلسل القيادي بدءاً من أعلى مستويات الذين ارتكبوا تلك الجرائم؛ حيث أكدت ذلك المادة (٣٣) التي لم تعفِ مرتكب إحدى الجرائم الداخلة في اختصاص المحكمة من مسؤوليته؛ لدفعه بالمثول أمامها لأوامر الرؤساء إِلّا في حالاتٍ ثلاث، وهي:

- إذا كان على الشخص التزام قانوني بإطاعة أوامر الرئيس أو الحكومة المعنية.

- إذا لم يكن الشخص على علم بأنّ الأمر غير مشروع.
- إذا لم يكن عدم مشروعيّة الأمر ظاهراً، وذلك بالنسبة للجرائم ضدّ الإنسانية، وجريمة الإبادة.

غير أنّه يجب النظر إلى هذه الشروط الثلاثة على أنّها شروط تراكمية وليست منفصلة عن بعضها... وأنّ هذا النص يوفّر توازناً متلائماً بين مصلحة العدالة والتزامات الجندي خاصة عندما يقوم بعمله بحسن نيّة.

٧) يبدأ سريان الاختصاص الزماني للمحكمة حسبما جاء في المادة (١١) من النظام الأساسي بعد ١/ ٧/ ٢٠٠٢. أمّا الجرائم التي وقعت قبل هذا التاريخ فهي لا تدخل في اختصاص المحكمة بالتقادم، وهو مبدأ نصّت عليه المادة (٢٩) من النظام الأساسي مِمّا يظهر نوعاً من السلوك المتناقض في هذا الإطار، ويبرز رغبة المتعاقدين على تشجيع الدول على الانضمام، أمّا الدول التي انضمّت بعد هذا التاريخ فلا يسري النظام بحقّها إلّا في اليوم الأول من الشهر الذي يعقب اليوم الستين من تاريخ إيداع تلك الدول وثائق التصديق أو الانضمام أو القبول أو الموافقة [مادة: ١٢٦/ ٢].

٨) تقوم المحكمة على مبدأ ضرورة التعاون الدولي، وهذا ما كانت المادة (٨٦) قد طلبته من الدول الأطراف فيما يختص كلّ ما تجريه المحكمة من «تحقيقات في الجرائم والمقاضاة عليها»، وقامت المادة (٩٣) بتفصيل نوع آلية هذا التعاون.

٩) لا يجوز التحفظ على أيّ نصٍّ من نصوص هذه المعاهدة حسب المادة (١٢٠) من النظام الأساسي.

الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية:

تنصّ المادة (٥) من النظام الأساسي على أنّه «**يقتصر اختصاص المحكمة على**

أشدّ الجرائم خطورة موضع الاهتمام الدولي بأسره، وللمحكمة بموجب هذا النظام الأساسي اختصاص النظر في الجرائم التالية:

أ. جريمة الإبادة الجماعية.

ب. الجرائم ضدّ الإنسانية.

ج. جرائم الحرب.

د. جريمة العدوان».

ويجدر بالذكر أنّ الجريمة الرابعة (العدوان) لم يتمّ تحديدها في النظام الأساسي كالجرائم الثلاث الأُخرى الداخلة ضمن اختصاص المحكمة الجنائية الدولية، إلّا أنّ البند (٢) من المادة (٥) من النظام الأساسي ينصّ على أنّه: «**تمارس المحكمة الاختصاص على جريمة العدوان متى اعتمد نصّ بهذا الشأن وفقاً للمادتين (١٢١، ١٢٣)، يُعرف هذه الجريمة ويضع الشروط التي تمارس المحكمة بموجبها الاختصاص فيما يتعلّق بهذه الجريمة، ويجب أنْ يكون النصّ متسقاً مع الأحكام ذات الصلة بميثاق الأمم المتحدة**»؛ لذلك فإنّ جريمة العدوان المشار إليها في النظام الأساسي لا يمكن للمحكمة ممارسة اختصاصها بشأنها إلى أنْ يتمّ وضع نصّ تعتمده جمعية الدول الأطراف وفقاً للتعديلات الواردة في هذا النظام.

أمّا عن الجرائم التي تنظرها المحكمة الجنائية الدولية، فهي بإيجاز:

أ. **جريمة الإبادة الجماعية**: تنصّ المادة (٦) على أنّ أيّ فعل من الأفعال التالية يرتكب بقصد إفناء جماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية بصفتها إفناءاً كلياً أو جزئياً كقتل أفراد الجماعة، أو إلحاق ضرر جسدي أو عقلي جسيم بها، أو إخضاع أفرادها عمداً لأحوال معيشية يقصد منها إهلاكها فعلياً، كلّيّاً أو جزئياً، أو فرض تدابير تستهدف منه الإنجاب داخل الجماعة، أو نقل أطفال الجماعة عنوة إلى جماعةٍ أُخرى

يعدّ من جرائم الإبادة الجماعية.

ب. **الجرائم ضدّ الإنسانية**: المادة (٧) من النظام الأساسي على أنّه «يعدّ جريمة ضدّ الإنسانية» أيّ فعل من الأفعال التالية، ومتى ارتكب في إطار هجوم واسع النطاق أو منهجي موجّه ضدّ أيّة مجموعة من السكان المدنيين، وهي:

١. القتل العمد.

٢. الإبادة الجماعية، وتشمل الإبادة فرض أحوال معيشية منها الحرمان من الحصول على الطعام والدواء بقصد إهلاك جزء من السكان.

٣. الاسترقاق، ويقصد به ممارسة أيّ من السلطات المترتبة على حقّ الملكية، أو هذه السلطات جميعاً على شخص ما، بما في ذلك ممارسة هذه السلطات في سبيل الاتجار بالأشخاص، ولا سيّما النساء والأطفال.

٤. إبعاد السكان أو نقلهم قسراً بالطرد أو نحو ذلك دون مبررات.

٥. السجن أو الحرمان الشديد على أيّ نحو آخر من الحرية بما يخالف القواعد الأساسية للقانون الدولي.

٦. التعذيب، وهو تعمّد إلحاق الأذى الشديد سواء عقلياً أو بدنياً.

٧. الاغتصاب أو الاستعباد الجنسي، أو الإكراه على البغاء، أو الحمل القسري، أو التعقيم القسري، أو أيّ شكلٍ آخر من أشكال العنف الجنسي على مثل هذه الدرجة من الخطورة.

٨. حرمان مجموعة من السكان حرماناً متعمداً من الحقوق الأساسية بسبب الهوية.

٩. اضطهاد أيّة جماعة محددة أو مجموعة محددة من السكان لأسباب سياسية أو عرقية أو قومية أو إثنية أو ثقافية أو دينية أو متعلقة بنوع

الجنس، وهي من جرائم الفصل العنصري.

١٠. التغييب القسري للأشخاص.

١١. جريمة الفصل العنصري.

١٢. الأفعال اللّاإنسانية الأُخرى ذات الطابع المماثل التي تتسبب عمداً في معاناة شديدة، أو أيّ أذى خطير يلحق بالجسم أو بالصحة العقلية أو البدنية.

١٣. اضطهاد أيّة جماعة محددة أو مجموع محدد من السكان لأسباب سياسية أو عرقية أو قومية أو أثنية أو دينية أو ثقافية أو متعلقة بنوع الجنس أو لأسباب أُخرى من المسلّم عالمياً أنّ القانون الدولي لا يجيزها، وذلك فيما يتصل بأيّ فعلٍ مشار إليه في هذه الفقرة أو بأيّة جريمة تدخل في اختصاص المحكمة.

ج. **جرائم الحرب**: تنصّ المادة (٨) من النظام الأساسي على أنّه يكون للمحكمة اختصاص فيما يتعلّق بجرائم الحرب، ولا سيّما عندما ترتكب في إطار خطّة أو سياسة عامة، أو في إطار عملية ارتكاب واسعة النطاق لهذه الجرائم.

وتعني «جرائم الحرب: الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف المؤرخة ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٩، أيّ فعلٍ من الأفعال التالية ضدّ الأشخاص أو الممتلكات الذين تحميهم أحكام اتفاقية جنيف ذات الصلة»، مثل:

١. القتل العمد.

٢. التعذيب أو المعاملة اللّاإنسانية، بما في ذلك إجراء تجارب بيولوجية.

٣. القيام عمداً بإحداث معاناة شديدة أو إصابات خطيرة بالجسم أو بالصحة.

٤. إلحاق تدمير واسع النطاق بالممتلكات، والاستيلاء عليها دون أنْ تكون

ضرورة عسكرية تبرّر ذلك، وبالمخالفة للقانون وبطريقةٍ عابثة.

٥. إرغام أيّ أسير حرب، أو على أيّ شخص مشمول بالحماية على الخدمة في صفوف قوّاتٍ دولية معادية.

٦. تعمّد حرمان أي أسير حرب أو أيّ شخصٍ مشمولٍ بالحماية من حقّه في أنْ يحاكم محاكمة عادلة ونظامية.

٧. الإبعاد أو النقل غير المشروعين أو الحبس غير المشروع.

٨. أخذ الرهائن.

٩. تعمّد توجيه هجمات ضدّ السكان المدنيين بصفتهم تلك، وكذلك ضدّ الأفراد المدنيين الذين لا يشاركون مباشرة في الأعمال الحربية.

١٠. تعمّد توجيه هجمات ضدّ منشآت مدنية لا تشكّل أهدافاً عسكرية.

١١. تعمّد شنّ هجمات ضد موظفين أو منشآت أو مواد أو وحدات أو مركبات في مهمة من مهام المساعدة الإنسانية، أو حفظ السلام؛ عملاً بميثاق الأُمم المتحدة، ويستحقون الحماية التي يتمتّع بها المدنيون، أو المواقع المدنية بموجب القانون الدولي للمنازعات المسلحة.

١٢. تعمّد شنّ هجوم مع العلم بأنّ هذا الهجوم سيسفر عن خسائر تبعية في الأرواح، أو إصابات بين المدنيين، أو عن إلحاق ضرر بأهدافٍ مدنية، أو إحداث ضرر واسع النطاق وطويل الأجل وشديد للبيئة الطبيعية، يكون إفراطاً واضحاً بالقياس إلى مجمل المكاسب العسكرية الملموسة والمباشرة المتوقعة.

١٣. مهاجمة أو قصف المدن أو القرى أو المساكن أو المباني، والتي لا تكون أهدافاً عسكرية بأيّة وسيلةٍ كانت.

١٤. قتل أو جرح مقاتل ألقى السلاح، أو لم تعد لديه وسيلة للدفاع، أو استسلم مختاراً.

١٥. إساءة معاملة علم الهدنة، أو علم العدو، أو شارته العسكرية، أو زيّه العسكري، أو علم الأُمم المتحدة، أو شارتها وأزيائها، وكذلك الشعارات المميزة لاتفاقيات جنيف مِمّا يسفر عن قتل الأفراد، أو إلحاق إصابات بالغة بهم.

١٦. قيام الدولة القائمة بالاحتلال على نحو مباشر أو غير مباشر بنقل أجزاء من سكانها إلى الأرض التي تحتلها، أو إبعاد، أو نقل كلّ سكان الأرض المحتلة، أو أجزاء منهم داخل هذه الأرض أو خارجها.

١٧. تعمّد توجيه الهجمات ضدّ المباني المخصصة للأغراض الدينية أو التعليمية أو الفنية أو العلمية أو الخيرية أو المعالم التاريخية أو المستشفيات أو أماكن تجمّع المرضى والجرحى شريطة ألّا تكون تلك الأماكن مستخدمة آنذاك لأغراض عسكرية.

١٨. إخضاع الأشخاص الموجودين تحت سلطة الطرف الخصم للتشويه البدني أو لأيّ نوعٍ من التجارب الطبية أو العلمية التي لا تبرّرها المعالجة الطبية، أو معالجة الأسنان، أو المعالجة في المستشفى للشخص المعني، والتي لا تجري لصالحه، والتي تتسبّب في وفاة ذلك الشخص، أو أولئك الأشخاص، أو في تعريض صحتهم للخطر.

١٩. قتل أفراد منتمين إلى دولة معادية أو جيش معادٍ أو إصابتهم غدراً.

٢٠. إعلان أنّه لن يبقى أحدٌ على قيد الحياة.

٢١. تدمير ممتلكات العدو أو الاستيلاء عليها ما لم يكن هذا التدمير أو الاستيلاء مِمّا تحتمه ضرورات الحرب.

٢٢. إعلان أنّ حقوق ودعاوى رعايا الطرف المعادي ملغاة أو معلّقة أو غير مقبولة في أيّ محكمة.

٢٣. إجبار رعايا الطرف المعادي على الاشتراك في عملية حربية موجهة

ضدّ بلدهم حتى وإنْ كانوا قبل نشوب الحرب في خدمة الدول المحاربة.

٢٤. نهب أيّ بلدة أو مكان حتى ولو تمّ الاستيلاء عليه عنوة.

٢٥. استخدام السموم أو الأسلحة المسممة.

٢٦. استخدام الغازات الخانقة أو السامّة أو غيرها من الغازات، وجميع ما في حكمها من السوائل أو الموادّ أو الأجهزة.

٢٧. استخدام الرصاصات التي تتمدد أو تتسطح بسهولة في الجسم البشري، مثل الرصاصات ذات الأغلفة الصلبة التي لا تغطّي كامل جسم الرصاصة أو الرصاصات المحززة الغلاف.

٢٨. استخدام الأسلحة أو القذائف أو المواد أو الأساليب التي تسبب بطبيعتها أضراراً زائدة أو آلاماً لا لزوم لها، أو تكون عشوائية بطبيعتها أو بالمخالفة للقانون الدولي للمنازعات المسلحة بشرط أن تكون هذه الأسلحة والقذائف والموادّ والأساليب الحربية موضع حظر شامل، وأنْ تدرج في مرفق لهذا النظام الأساسي، عن طريق تعديل يتفق والأحكام ذات الصلة الواردة في المادتين (١٢١، ١٢٣).

٢٩. الاعتداء على كرامة الشخص، وبخاصة المعاملة المهينة والحاطّة بالكرامة.

٣٠. الاغتصاب أو الاستعباد الجنسي أو الإكراه على البغاء أو الحمل القسري على النحو المعرّف في الفقرة (٢) ومن المادة (٧)، أو التعقيم القسري، أو أيّ شكلٍ آخر من أشكال العنف الجنسي يشكّل أيضاً انتهاكاً خطيراً لاتفاقيات جنيف.

٣١. استغلال وجود شخص مدني أو أشخاص آخرين متمتعين بحمايةٍ لإضفاء الحصانة من العمليات العسكرية على نقاط أو مناطق أو قوّات

عسكرية معيّنة.

٣٢. تعمّد توجيه هجمات ضدّ المباني والمواد والوحدات الطبية ووسائل النقل والأفراد من مستعملي الشعارات المميزة المبينة في اتفاقيات جنيف طبقاً للقانون الدولي.

٣٣. تعمّد تجويع المدنيين كأسلوبٍ من أساليب الحرب؛ بحرمانهم من المواد التي لا غنى عنها لبقائهم، بما في ذلك تعمّد عرقلة الإمدادات الغوثية على النحو المنصوص عليه في اتفاقيات جنيف.

٣٤. تجنيد الأطفال دون الخامسة عشر من العمر إلزامياً أو طوعياً في القوات المسلحة الوطنية، أو استخدامهم للمشاركة فعلياً في الأعمال الحربية.

* * *

المبحث الثاني
اختصاص المحكمة الجنائية الدولية لا يتعارض مع مبدأ السيادة الوطنية

الاختصاص التكميلي للمحكمة الجنائية الدولية يعتبر حجر الزاوية في إنشاء هذه المحكمة، والذي جاء كحلٍّ توفيقيٍّ لمشكلة السيادة الوطنية على أساس أنّ المحكمة لن تسلب من الدول الأطراف سيادتها، بل تشجّعها على التصدّي للجرائم الدولية وفقاً لقوانينها الوطنية.

وسوف نبيّن بعض المبادئ القانونية التي نصّ عليها النظام الأساسي، وندرس مدى تعارضها مع المبادئ القانونية الوطنية، وهل يشكّل هذا التعارض مساساً بالسيادة الوطنية؟ خاصة تقديم الأشخاص للمحكمة الجنائية الدولية، ومبدأ حظر تسليم المواطنين، وسلطات المدعي العام فيما يتعلّق

بإجراءات التحقيق في إقليم الدول الطرف، وعدم سقوط الجرائم بالتقادم، وعدم جواز المحاكمة عن الجريمة ذاتها مرتين، وحق العفو والعقوبات.

أوّلاً: امتداد اختصاص الجنائيـة الدوليـة لا يشـكّل مساسـاً بالسـيادة الوطنية:

نصّت المادة (١٧) من النظام الأساسي على أنّ المحكمة الجنائية الدولية لا تحلّ محلّ الاختصاصات القضائية الوطنية، وإنّما تتدخل حصراً حينما لا تتوافر لدى الدول الرغبة في الاضطلاع بالتحقيق، وبالمقاضاة أو القدرة على ذلك.

وعليه فإنّ النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية يشجع الدول على ممارسة سلطاتها القضائية على الجرائم الداخلة ضمن اختصاصات المحكمة الجنائية الدولية، ولا يجوز للمحكمة ممارسة سلطاتها القضائية إلّا إعمالاً للأحكام الواردة في المادة.

وحقيقة الأمر: أنّ هذه الاتفاقية المنشأة بمعاهدة دولية يتجدد فيها المبدأ الأساسي في قانون المعاهدات «مبدأ الرضائية»، فالدول في هذه الحالة لا تتعامل مع «محكمةٍ أجنبية»، أو «ولاية قضاء أجنبي»، وإنّما تتعامل مع جهاز قضائي دولي شاركت في إنشائه كدولةٍ طرف، وتساهم في الإجراءات الخاصة بتسييره باعتباره أحد أعضاء جمعية الدول الأطراف.

ومن هنا فلا يمكن القول بأنّ الدول تتنازل عن الاختصاص لولاية قضاء أجنبيّ، وإنّما تعتبر المحكمة الجنائية الدولية امتداداً لولاية القضاء الوطني.

وهذا يعني أنّ الدول الأطراف (وهي دول ذات سيادة) ينعقد لها الاختصاص أوّلاً بنظر الجرائم الدولية، ولا تحلّ المحكمة الجنائية الدولية بصفةٍ مطلقةٍ محلّ القضاء الوطني الداخلي في هذا الخصوص، بل إنّ الفقرة السادسة من ديباجة النظام تؤكد على أنّ من واجب كلّ دولة أن تمارس ولايتها القضائية

الجنائية على أُولئك المسؤولين عن ارتكاب جرائم دولية.

وعلى ذلك لا ينعقد الاختصاص للمحكمة الجنائية الدولية إذا كان القضاء الداخلي الوطني صاحب الولاية قد وضع يده على الدعوى بقرار أصدره في هذا الشأن، أو كانت الدعوى محلّ تحقيق فعلي، أو منظورة أمام المحكمة الوطنية المختصة.

ولكن هذه القاعدة ليست مطلقة؛ إذ نصّت المادة (١٧) من النظام أنّ المحكمة الجنائية الدولية تختص بنظر الجرائم الدولية إذا تبيّن أنّ الدولة صاحبة الولاية غير راغبة حقاً في القيام بالتحقيق، أو المقاضاة، أو غير قادرة على ذلك. وتتولّى المحكمة الجنائية الدولية نفسها مهمة تحديد عدم الرغبة أو عدم القدرة وفقاً لضوابط معينة حددها النظام في المادة (١٧) منه، وهذه الضوابط هي:

- إذا تبيّن أنّ الإجراءات التي اتخذها القضاء الوطني الداخلي كانت تهدف إلى حماية الشخص المعني من المسؤولية الجنائية عن جرائم تدخل في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية.
- إذا حدث تأخيرٌ لا مبرّر له في إجراءات يستنتج منه عدم اتجاه النيّة إلى تقديم الشخص المعني للعدالة.
- إذا لم تباشر الإجراءات أو لم تجرِ مباشرتها بشكلٍ مستقلّ أو نزيه، أو كانت مباشرتها تتعارض مع نيّة تقديم الشخص المعني للعدالة.

ولتحديد عدم قدرة الدولة صاحبة الولاية في دعوى معينة تنظر المحكمة الجنائية الدولية فيما إذا كانت الدولة غير قادرة بسبب انهيار كلّي أو جوهري لنظامها القضائي الوطني، أو لسبب عدم القدرة على إحضار المتهم أو الحصول على الأدلة والشهادة الضرورية، أو غير قادرة لسبب آخر على القيام بإجراءاتها.

وهكذا تكون المحكمة الجنائية الدولية مختصة بنظر الجرائم الدولية في حالة ما إذا وجد فراغٌ في المحكمة، وهو فراغ محدد بعدم الرغبة أو القدرة على

ملاحقة ومحاكمة ومعاقبة مرتكب الجريمة بالشروط المشار إليها سابقاً.

وهذا يعني أنّ المحكمة الجنائية الدولية لا تتمتع بسموّ على القضاء الوطني الداخلي، وهو السمو الذي كان بالنسبة لمحكمة يوغوسلافيا السابقة، ومحكمة رواندا عندما تضع إحدى المحكمتين يدها على دعوى سبق أنْ وجدت أمام القضاء الوطني، فإنّ على المحكمة الوطنية أن ترفع يدها عن تلك الدعوى لمصلحة المحكمة الدولية. هذا السمو لا تتمتع به الآن المحكمة الجنائية الدولية الدائمة.

ونخلص من ذلك إلى أنّ المحكمة الجنائية الدولية لا تشمل سيادة أجنبية مستقلة عن إدارة الدول، بل إنّ الدول الأطراف ذاتها هي التي أنشأت تلك المحكمة بإرادتها بموجب اتفاقية دولية ورد النصّ فيها صراحة على أنّ المحكمة الجنائية الدولية «... ليست ذات اختصاص تكميلي، وليس سياديّاً على القضاء الوطني».

ثانياً: تسليم الدولة لرعاياها إلى المحكمة الجنائية الدولية لا يشكّل مساساً بالسيادة الوطنية:

في إطار العلاقة ما بين النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية والأنظمة القضائية الوطنية تثار إشكالية حظر تسليم رعايا الدولة إلى قضاء أجنبي، وهو المبدأ الوارد في دساتير العديد من دول العالم، ومدى تعارض هذا المبدأ مع الالتزام بتقديم رعاية الدولة إلى المحكمة الجنائية الدولية إذا انعقد لها الاختصاص في إجراء المحاكمة.

وهنا يجب أنْ نفرّق ما بين «الإحالة للمحكمة»، والذي هو تقديم الدولة لشخص ما إلى المحكمة، وبين تسليم الدولة لشخصٍ ما إلى دولة أخرى، هذه التفرقة الورادة صراحة في نصّ المادة (١٠٢) من النظام الأساسي يدفعنا إلى

القول بأنّ التسليم إلى دولةٍ أُخرى ذات سيادة يختلف تماماً عن الإحالة إلى المحكمة الجنائية الدولية كهيئةٍ دوليةٍ أُنشئت بموجب القانون الدولي، وبمشاركة الدول المعنية وموافقتها. وبهذا الصدد نقول: إنّها ليست محكمة أجنبية إنّما هي امتداد لولاية القضاء الوطني.

فإنشاء المحكمة الجنائية الدولية لا يتنافى ومبدأ إقليمية القانون الجنائي، وبالتالي فليس هناك إنقاص من مبدأ السيادة الوطنية للدول؛ نظراً لأنّ مبدأ إقليمية القانون الجنائي ليس بالمبدأ المطلق الذي لا يقبل الاستثناء في التطبيق؛ لأنّ الدول تؤسس اختصاصها الجنائي بما يتيح لها ممارسة استثناءات عديدة في هذا الموضوع، فهناك دول تمنح لنفسها الحق في محاكمة رعاياها في حالة ارتكابهم جريمة في الخارج، وهناك دول أخرى تمدّ نطاق قوانينها الجنائية لحماية مصالحها الحيوية في الخارج، بصر ف النظر عن مكان وجنسية مرتكب الجريمة، وأكثر الدول يجري العمل بها على عدم تسليم مواطنيها الذين يرتكبون جرائم خارج إقليمها.

فإذا كانت الدول قد اعترفت بهذه الاستثناءات المتعددة لمبدأ الاختصاص الجنائي الإقليمي، فن الممكن كذلك أن تعترف بصلاحية محكمة دولية جنائية كاستثناء آخر لقاعدة الإقليمية خاصة إذا كان هذا الاستثناء يحقق المصلحة الدولية المشتركة، ويعمل على تثبيت دعائم القانون الجنائي الدولي، ذلك القانون الذي شاركت تلك الدول في صياغته وإقراره، هذا بالإضافة إلى أنّ وجود مثل هذه المحكمة الدولية لن يكون التفافاً على السيادة الوطنية للدول؛ لأنّ فكرة التنظيم الدولي ووجود منظمات دولية تعمل لمصلحة المجتمع الدولي حدّت من طغيان فكرة السيادة، بحيث أصبحت السيادة وظيفة دولية ولم تتعدّ جداراً سميكاً تعمل على تكريس انفصال الدولة عن المجتمع الدولي والانكفاء على الذات.

ومن جانب آخر تساهم المحكمة الجنائية الدولية في رفع الحرج عن الدول التي لا ترغب في تسليم أشخاص مطلوبين إلى دولةٍ معيّنةٍ لارتكابهم جرائم دولية؛ وذلك بتقديمهم للمحكمة الجنائية الدولية.

ثالثاً: دور المدعي العام في مباشرة إجراءات التحقيق لا يشكّل مساساً بالسيادة الوطنية:

من الإشكاليات الهامة التي أُثيرت في النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية ما يتعلّق بدور المدعي العام، ومدى مساس وظيفته بالسيادة الوطنية بالدول الأطراف، فقد حصل جدلٌ كبيرٌ بين الدول في مؤتمر روما بشأنه، وكان محور الخلاف بشأن إعطاء دور للمدعي العام من عدمه، بل إنّ بعض الدول رفضت وجود مدعي عام أساساً، ولكن غالبية الدول كانت تتجه إلى وجود دور للمدعي العام، ولكنّهم انقسموا إلى فريقين:

الأوّل: يقيّد المدعي العام ولا يجيز له مباشرة التحقيق إلّا بناءاً على طلب من مجلس الأمن أو من الدول الأطراف.

الثاني: يعطى للمدعي العام دوره بدون تقييد بما يمكنه مباشرة التحقيق وتحريك الدعوى من تلقاء نفسه.

وقد تمّ حسم خلاف هذه المسألة من خلال المادة (١٥/ ١) من النظام الأساسي التي تقرّر بأنّ للمدّعي العام مباشرة التحقيقات من تلقاء نفسه على أساس المعلومات التي تدخل اختصاص المحكمة.

ولكن إشكالية المساس بالسيادة الوطنية تظلّ قائمة؛ حيث إنّ الفقرة الرابعة من المادة (٩٩) من النظام الأساسي تجيز للمدعي العام أنْ يُباشر بعض أعمال التحقيق دون حضور سلطات الدولة الموجّه إليها الطلب، وداخل إقليم هذه الدولة، وأنّ بوسعه على وجه الخصوص جمع إفادات الشهود وإجراء المعاينة.

والردّ على ذلك بأنّ قيام المدعي العام بمثل هذه الصلاحيات لا يُشكّل مساساً بالسيادة الوطنية للدول، فوفقاً لنصّ المادتين (٥٤، ٥٧/ ٣) وأحكام الباب التاسع من النظام الأساسي المتعلق بالتعاون الدولي والمساعدة القضائية، والتي نصّت على بعض الأحكام الإجرائية التي تكفل احترام السيادة الوطنية عند ممارسة المدعي العام لاختصاصه، وما حكم الفقرة الرابعة من المادة (٩٩) إلّا استثناء من هذه القاعدة، والمشروط أوّلاً بأن تكون الدولة الطرف الموجّه إليها الطلب هي دولة ادّعي ارتكاب جريمة في إقليمها، وكان هناك قرارٌ بشأن المقبولية بموجب المادة (١٨) أو المادة (١٩). وثانياً فإنّ المدعي العام ملزمٌ بإجراء كافة المشاورات الممكنة مع الدولة الطرف الموجّه إليها الطلب قبل مباشرة إجراءاته.

فصلاحية المدّعي العام ليست مطلقة؛ حيث ورد عليها قيدان:

القيد الأوّل: ورد في المادة (١٥) حيث لا يقوم المدعي العام بمباشرة التحقيق إلّا بناءاً على إذن من الدائرة التمهيدية.

القيد الثاني: ورد في المادة (١٨/ ٢) حيث يكون للدولة أن تبلّغ المحكمة بأنها تجري أو بأنها أجرت تحقيقاً مع رعاياها، أو مع غيرهم في حدود ولايتها القضائية فيما يتعلّق بالأفعال الجنائية التي قد تشكل جرائم من تلك المختصة بها المحكمة الجنائية الدولية، وتكون متصلة بالمعلومات المقدمة في الإشعار الموجه إلى الدول. وبناءاً على طلب تلك الدولة، يتنازل المدعي العام لها عن التحقيق مع هؤلاء الأشخاص ما لم تقرّر الدائرة التمهيدية الإذن بالتحقيق بناء على طلب المدعي العام.

والإجراءات التي يتخذها المدعي العام تعتبر من إجراءات التحقيق الابتدائي التي يتولاها في القانون الداخلي قاضي التحقيق في بعض الدول، والنيابة العامة في البعض الآخر، ولكنّ اختصاص المدعي العام بهذه

الإجراءات يتوقف على موافقة الدائرة التمهيدية، أي: إنّ قرار تلك الدائرة هو الذي يفتح به التحقيق، ويكون بمثابة الادعاء أو الاتهام الذي تقوم به عادة النيابة العامة في القوانين الداخلية، كما أنّ المدعي العام لا يتولى كل إجراءات التحقيق الابتدائي، بل إنّ تلك الإجراءات موزعة بينه وبين الدائرة التمهيدية؛ إذ تختصّ تلك الأخيرة بأهم إجراءات التحقيق الابتدائي، وهي تلك التي تتعلّق بالحريات الفردية مثل أمر الحضور والقبض والحبس الاحتياطي.

رابعاً: عدم سقوط الجرائم الدولية بالتقادم لا يشكّل مساساً بالسيادة الوطنية:

هل هناك تعارضٌ فيما نصّت عليه المادة (٢٩) من النظام الأساسي بعدم سقوط الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة بالتقادم مع ما تنصّ عليه القوانين الوطنية في موضوع التقادم؟

للردّ على ذلك نقول: إنّ الجرائم ضدّ الإنسانية وجرائم الحرب بمقتضى العرف الدولي لا تسقط بمضي المدة، فضلاً عن أنّ اتفاقية ١٩٦٨ صاغت هذه القاعدة العرفية في اتفاقية دولية تحظر انطباق التقادم على مثل هذه الجرائم، ومن ثم فإنّ قيام الدول بالتصديق على نظام روما الأساسي تقبل بحكم هذه المادة التي تقرر حكماً خاصاً لنوع معيّن من الجرائم هي الجرائم الأشد خطورة على الصعيد الدولي، ومن ثم فإنّه ليس هناك ثمة تعارض بين السيادة الوطنية وعدم سقوط الجرائم الداخلة في اختصاص المحكمة الجنائية الدولية بالتقادم.

وقد وافقت معظم الدول على الانضمام إلى اتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضدّ الإنسانية التي اعتمدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ: ٢٦ نوفمبر ١٩٦٨ بالقانون رقم (٣) لسنة ١٩٩٣ الصادر بتاريخ ٣ يناير ١٩٩٥، ووفقاً لنصّ المادة الثانية من الاتفاقية، فإنّ أحكامها تنطبق على من

يرتكب أيّ جريمة من الجرائم المذكورة في المادة الأُولى من ممثلي سلطة الدولة، وعلى الأفراد الذين يقومون بوصفهم فاعلين أصليين أو شركاء بالمساهمة في ارتكاب أيّة جريمة من تلك الجرائم أو بتحريض من الغير تحريضاً مباشراً على ارتكابها، أو الذين يتآمرون لارتكابها، بصرف النظر عن درجة التنفيذ، وعلى ممثلي سلطة الدولة الذين يتسامحون في ارتكابها.

وتنصّ المادّة الرابعة من الاتفاقية على أنّه «تتعهد الدول الأطراف في هذه الاتفاقية بالقيام وفقاً للإجراءات الدستورية لكلّ منها باتخاذ أيّة تدابير تشريعية أو غير تشريعية تكون ضرورية لكفالة عدم سريان التقادم أو أيّ حدٍّ آخر على الجرائم المشار إليها في المادتين الأُولى والثانية من هذه الاتفاقية سواء من حيث الملاحقة أو من حيث المعاقبة، ولكفالة إلغائه إن وجدت».

خامساً: عدم جواز المحاكمة عن الجريمة مرتين

أُثيرت إشكالية خاصة بالمادة (٢٠) من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية مع القواعد الواردة في القوانين الوطنية التي تنصّ على عدم جواز محاكمة الشخص عن الجريمة مرتين.

نجد أنّ الفقرة الثالثة من المادة (٢٠) أجابت على ذلك بأنّ حدوث الحالات التي يجوز فيها محاكمة الشخص الذي سبق له أن حوكم أمام القضاء الوطني في الحالات التالية:

أ. إذا كانت الإجراءات في المحكمة الأخرى قد اتخذت لغرض حماية الشخص المعنيّ من المسؤولية الجنائية من جرائم تدخل في اختصاص المحكمة.

ب. إذا لم تجرِ الإجراءات بصورةٍ تتسمّ بالاستقلال أو النزاهة وفقاً لأصول المحاكمات المعترف بها بموجب القانون الدولي، أو جرت في هذه

الظروف على نحو لا يتفق مع النية لتقديم الشخص المعني للعدالة.

ويتبيّن هنا أنّ المحكمة الجنائية الدولية الدائمة تتمتع ببعض الامتيازات؛ إذ يمكنها أنْ تضع يدها على دعوى منظورة أما القضاء الوطني الداخلي صاحب الولاية إذا تبيّن لها أنّ قضاء صاحب الولاية لا يرغب أو لا يقدر على نظر تلك الدعوى في الحدود السابقة. وفي هذه الحدود يكون للمحكمة الجنائية الدولية الرقابة والإشراف على الإجراءات التي يتخذها أو أخذها قضاء الدولة الوطني في سبيل الوصول إلى عدالة جنائية حقيقية. فإذا تبيّن للمحكمة الدولية أنّ قضاء الدولة الوطني لا يستجيب إلى اعتبارات العدالة تتصدى المحكمة الدولية لنظر الدعوى وتصبح هي صاحبة الاختصاص بنظرها، وليس القضاء الداخلي الوطني، مع الأخذ بالاعتبار ما يكون قد نُفّذ من جزاءات على الشخص المعني تنفيذاً للحكم الوطني إذا كان قد صدر فعلاً. وفي هذه الحالة لا يكون الحكم الوطني متمتعاً بقوة الأمر المقضي؛ إذ تعاد المحاكمة الدولية الجنائية عن نفس الجريمة وفي مواجهة نفس الشخص [مادة (٢) من النظام الأساسي].

سادساً: حقّ العفو

نُشير في هذا الصدد إلى أنّ حقّ العفو المعقود في النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية والوارد في المادة (١١٠) هو العفو عن العقوبة، وليس العفو الشامل عن الجريمة الذي لا يتقرّر في معظم الدول إلّا بالقانون.

وهو حقٌّ إقليمي للدولة، ولا يتعارض ذلك مع النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، بشرط أنْ لا يكون الهدف من إصدار دولة ما لقوانين العفو مساعدة بعض مرتكبي جرائم الحرب والجرائم ضدّ الإنسانية من الإفلات من العقوبات.

سابعاً: العقوبات

تؤكّد تجارب بعض الدول الأجنبية أنّ المحكمة الجنائية الدولية لن تسلب من الدول الأطراف سيادتها، بل تشجعها على التصدي للجرائم الدولية وفقاً لقوانينها الوطنية؛ حيث أصدرت تلك الدول تشريعات للعقاب على الجرائم الدولية قبل الانضمام إلى النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، خاصة بلجيكا ونيوزيلندا وكندا.

وبالمثل فقد وافقت معظم الدول على الانضمام إلى اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها، وذلك بالقانون رقم (١) لسنة ١٩٩٥، إلّا أنّ هذا الانضمام لا يكفي حيث يلزم أيضاً تجريم وعقاب باقي الجرائم الدولية الأخرى.

إلّا أنّه يلاحظ بأنّ المادة الخامسة من اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية تنصّ على أنّه: «يتعهد الأطراف المتعاقبون بأنْ يتخذوا، كلٌّ طبقاً لدستوره، التدابير التشريعيّة اللازمة، وعلى وجه الخصوص النصّ على عقوبات جنائية ناجعة تنزل بمرتكبي الإبادة الجماعية أو أيّ من الأفعال الأخرى المذكورة في المادة الثالثة»، لكن للأسف لم يصدر أيّ تشريع إلى اليوم.

يحدّد مقدار العقوبات الواجب الحكم بها عند ارتكاب الجرائم المنصوص عليها في الاتفاقية مِمّا يعني أنّ القانون رقم (١) لسنة ١٩٩٥ يبقى حبراً على ورق إلى أنْ يصدر قانون آخر يحدّد مقدار تلك العقوبات.

ونرى بأنّه من الضروري قيام الدول بإصدار تشريعات، سواء صادقت أم لم تصادق على اتفاقية روما، لتعالج الجرائم الدولية حتى تتمكن من بسط سيادتها على ما يرتكب في إقليمها من تلك الجرائم، وأنْ تنظّم تلك التشريعات المسائل الأخرى المتعلقة بالتعاون القضائي الدولي في المجال الجنائي الدولي، ونؤكد بأنّ عدم قيامنا بتضمين تشريعاتنا الوطنية للأفعال المجرمة في نظام روما الأساسي

سيضطرنا إلى أن نذعن لاختصاص المحكمة الجنائية الدولية؛ لأنّ اختصاص المحكمة الجنائية الدولية يمكن أن يمتد ليشمل دول غير أطراف من خلال محاكمة رعاياها في حال ارتكابهم إحدى الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة على إقليم دولة طرف، أو عند إحالة الدعوى من مجلس الأمن.

* * *

ختاماً

الجرائم المرتكبة في البحرين وتكييفها القانوني

١- **جريمة الإبادة الجماعية**: والتي تعني الأفعال المشار إليها تالياً، والتي ترتكب بقصد إفناء جماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية بصفتها إفناءاً كلياً أو جزئياً.

وبإسقاط ذلك على البحرين نجد أنّه قد تمّ استهداف جماعة قومية وعرقية وثقافية ودينية بصفتها لأبشع الأفعال المجرمة، كقتل أفراد الجماعة وإلحاق الضرر الجسدي والعقلي الجسيم بها، وقد تمّ إخضاع أفراد الجماعة عمداً لأحوال معيشية قصد منها إهلاكها فعلياً كلياً أو جزئياً بعد أن تمّ طرد الآلاف من أفراد الجماعة من وظائفهم.

٢- **جرائم ضدّ الإنسانية**: والتي تعني الأفعال المشار إليها تالياً والمرتكبة في إطار هجوم واسع النطاق ومنهجي ومنظم ضدّ مجموعة من السكان المدنيين، وهي جرائم القتل العمد والإبادة الجماعية، وفرض أحوال معيشية، والحرمان من الحصول على الطعام والدواء بقصد إهلاك السكان المستهدفين، وقد تمّ إرغام بعض السكان على ترك البلاد قسراً وطردهم أو نحو ذلك دون مبرر، وتمّ سجن أعداد كبيرة من السكان وحرمانهم بشكلٍ شديد من الحرية بما يخالف القواعد الأساسية للقانون الدولي، وتمّ تعذيب بعض السكان والتعمّد في إلحاق الأذى الشديد عقلياً وبدنياً بهم، وتمّ اغتصاب بعض النسوة

واستعبادهم جنسياً ممّا أدى إلى إحداث الحمل القسري ببعض المغتصبات وممارسة شتّى أشكال العنف الجنسي إلى درجة خطيرة.

وأهمّ تلك الأفعال المنهجة هي حرمان مجموعة من السكان حرماناً متعمداً من الحقوق الأساسية بسبب الهوية (مسلمين شيعة)، كما تمّ اضطهادهم كجماعة تحديداً لأسباب سياسية وعرقية وثقافية ودينية، كما تمّ اعتقال أفراد من الجماعة وإخفائهم بشكل قسري لمدد متفاوتة. وقد ارتكبت أفعال لا إنسانية عديدة ذات طابع مماثل تسببت عمداً في معاناة شديدة وإلحاق أذى خطير في حقّ أفراد الجماعة جسمانياً وصحياً وعقلياً وبدنياً، وتمّ اضطهادها لأسباب سياسية وقومية وعرقية وثقافية ودينية وغيرها من الأسباب الأخرى التي لا يجيزها القانون الدولي، وتشكل جريمة من الجرائم الأشد خطورة وفق اختصاص المحكمة الجنائية الدولية.

٣- جرائم الحرب: والمرتكبة في إطار خطة وسياسة عامة واسعة النطاق المشكّلة لانتهاكات جسيمة لاتفاقية جنيف ١٩٤٩، كالقتل العمد والتعذيب والمعاملة اللاإنسانية والقيام عمداً بإحداث معاناة شديدة وإصابات خطيرة بالجسم وبالصحة، وأخذ بعض السكان كرهائن، وتعمّد توجيه هجمات ضد السكان المدنيين، وهم الأفراد المدنيّون الذي لم يشاركوا مباشرة في الأعمال الحربية، وتعمد شنّ هجمات ضد موظفين ومنشآت طبية ومركبات تقوم بمهام المساعدة الإنسانية، واعتقال الكوادر الطبية، وذلك في انتهاك صارخ للحماية التي يتمتع بها المدنيون أو المواقع المدنية بموجب القانون الدولي.

وقد تمّت وما زالت بشكلٍ يومي مهاجمة المدن والقرى والمساكن المدنية بشتى الوسائل، وقد تعمدت قوات السلطة ورجالها لتوجيه الهجمات ضد المباني المخصصة للأغراض الدينية والتعليمية والخيرية والمعالم التاريخية والمستشفيات وأماكن تجمع المرضى والجرحى كمستشفى السلمانية.

كما تمّ استخدام الغازات السامّة والخانقة والمسيلة للدموع وغيرها من الغازات ضدّ السكان المدنيين المستهدفين، ويتمّ بشكل مستمر وما زال الاعتداء على كرامة الأشخاص ومعاملتهم بشكل مهين ومحط للكرامة الإنسانية.

الخلاصة:

إنّ الجرائم الأشدّ خطورةً موضع الاهتام الدولي والواردة ضمن الموادّ (٦، ٧، ٨) من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، والتي هي من صلب اختصاصها، فإنّ جريمة إبادة الجنس (التصفية العرقية) هي إحدى الجرائم الموجهة ضدّ الإنسانية في البحرين قد تحققت أركانها؛ لأنّها تمثلت باعتداء أصاب الإنسان البحريني المستهدف (الشيعة عموماً وبعض السنة) باعتبارهم منتمين لجماعة معينة في حياتهم وصحتهم وكرامتهم (إبادة مادية). كما انصبت الإبادة على حرمان الأغلبية السكانية (البحرينيين الشيعة) من ثقافتها ولغتها مما يعني ذلك إنكار حقّ الوجود لجماعة إنسانية.

وقد تحققت أركان جريمة ـ الإبادة البشرية ـ بحقّ الشعب البحريني المستهدف المادي (Material Element) والمعنوي (Mental Element) والركن الأهم هو الركن الدولي (International Element) ويقصد به ارتكاب هذه الجريمة بناءاً على خطة مرسومة من الدولة ينفذها كبار المسؤولين فيها، وتمّ تشجيع الموظفين وبعض الأفراد العاديين على تنفيذها ضد جماعة يربط بين أفرادها روابط دينية وقومية وثقافية وسياسية (هم البحرينيّون الشيعة) الذين كانوا يشكلون ما يزيد عن ٨٥٪ سنة ٧١ عند استقلال البحرين وفق إحصائيات الأمم المتحدة، والمثبت بالاستفتاء الذي أجرته آنذاك، والثابت لديها، لتختار هذه الأغلبية شكل الدولة ونظام الحكم فيها؛ لينقلب النظام بعد ذلك على شعبه ويستهدف هذه الأغلبية في خطة مرسومة تمّ وضعها إلى أنْ تمّ فضحها وسميت الفضيحة «تقرير البندر»، نسبة إلى الدكتور صلاح البندر

مستشار ملك البحرين السابق وأحد أهم أعضاء اللجنة الذي استقال وترك البحرين مهاجراً بعد أن اطلع على هول هذا المخطط، والجاري تنفيذه اليوم وفقاً لما أُشير إليه من أفعال ترتكب يومياً، وبالتزامن مع الآلية المجنونة للتجنيس السياسي بقصد إفناء السكان الأصليين الشيعة، وتخفيض نسبتهم إلى ما دون ٤٠٪ من مجموع السكان وفقاً للمخطط.

هذه الجرائم كلّها، وعلى وجه الخصوص: جريمة الإبادة البشرية والتصفية العرقية والمرتكبة بحقّ الشعب البحريني، تستصرخ ضمائر المسلمين والإنسانية كافة والمنظمات الدولية ودعاة حقوق الإنسان أين كانت مواقعهم، وتلقي العبء على المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية ورجال القانون والحقوقيين في العالم للتحرك الفوري والجاد للتصدي لها، والقيام بواجبهم إنصافاً للسكان البحرينيين الأصليين.

* * *

الحرّية والديمقراطية

كآلية للحكم المؤسساتي في الدولة العربية الحديثة

□ الأستاذ: نبيل علي صالح (*)

أولاً: مقدمة ضرورية

كيف يمكننا تقييم تجارب الحكم العربية بعد مرور عقود على تحقيق الاستقلال والتحرر من السيطرات الخارجية المباشرة، وتسلّم مسؤوليات القيادة من قبل نخب سياسية محلية حاولت تطبيق رؤى وأفكار اقتصادية واجتماعية محددة، كان الهدف منها تحقيق التنمية وإنجاز النهضة؟!..

لقد عملت تلك النخب القيادية على تطبيق برامجها وتجاربها السياسية والاقتصادية في ظلّ مجتمعات تقليدية الفكر والثقافة والانتماء، خصوصاً بعد أن طرحوا ـ وقت تسلّمهم للحكم ـ أفكاراً وبرامج عمل سياسية واقتصادية طموحة وجادة (نظرياً على الأقل)، عقد أفراد مجتمعاتهم الآمال الكبيرة عليها.

(*) باحث وكاتب سوريّ مهتمّ بشؤون وإشكاليّات الثقافة العربيّة، بكالوريوس في هندسة الطاقة الكهربائيّة.

وتدور حالياً سجالات فكرية وسياسية كثيرة حول النتائج العملية التي أفضت إليها تلك التجارب الحكومية (وبخاصة الحديثة العهد منها نسبياً)، وعمّا إذا كانت قد نجحت في إحداث تغييرات سياسية واقتصادية جوهرية، أفسحت في المجال أمام مجتمعاتها كي تكون قادرة على تحقيق نوع من الاستجابة على مجمل المشاكل والتحديات المثارة في العالم حالياً، بما في ذلك الاستجابة الفاعلة للتحديات المطروحة عليها من قبل مؤسسات وإدارات وقوى العالم الكبرى حالياً.

فهل حقّقت تلك القيادات التغيير الموعود الذي تبنّته ورعته في كثير من خطاباتها وبرامجها النظرية؟!

وأصلاً هل تمتلك القاعدة الفكرية والعملية النوعية التي تؤهلها للاستفادة المتوازنة من الموارد الطبيعية والبشرية المتعددة والكبيرة التي لا تزال موجودة في بلدانها؟!

ثمّ لماذا يتمّ دائماً، في داخل اجتماعنا الديني والسياسي العربي والإسلامي عموماً، التركيز على أهمية الأشخاص والرموز وإغفال دور الشعوب والكتل البشرية الحيوية؟!.

ألا تعطينا التجارب التاريخية التي عاشتها أمّتنا مع حكامها وأنظمتها الماضية، دلائل قاطعة على استحالة الرهان على حكم الفرد ونهج الشخص، والاعتماد الكلي على مواهبه الذاتية (الخارقة!؟)، واعتباره خشبة الإنقاذ، وصاحب المشروع الخلاصي..؟!.

ثانياً: ملخّص تنفيذي عام

بناءاً على ما تقدم ـ وبعد عرض المشكلة موضوع الدراسة ـ سنعمد إلى وضع القارئ أمام حقيقة فشل معظم تجارب الحكم العربية القائمة حالياً في

تحقيق تنمية سياسية واجتماعية صحيحة للمجتمعات العربية.. وهذا الفشل لا يزال يتكرر باستمرار مع تغيّر القيادات السابقة، وانتقال الحكم إلى القيادات الجديدة والتي يمكن اعتبارها ـ بشكل وبآخر ـ مجرّد امتداد لسياسات الأمس إلى عالم اليوم، بحيث إنّ التحديات والمشاكل والأزمات المثارة سابقاً التي كانت تعاني منها نخب الحكم العربي السابقة هي نفسها التي تعاني منها حالياً القيادات الجديدة.. وإنّ التغييرات النوعية والكمية المطلوب تحقيقها لم تنجز بعد.

كما وسنؤكد هنا على أنّ المدخل الحقيقي لولوج طريق الإصلاح والتغيير هو مدخل «سياسي ـ ثقافي» أولاً، وبالنتيجة اقتصادي واجتماعي ثانياً، ينطلق من خلال إعادة النظر بأسس وقواعد السياسة العربية المسيطرة حالياً القائمة على حكم الفرد والاستبداد والشمولية والملكية الوراثية.. والتي يمكن اعتبارها ـ على مستوى الفعل السياسي الداخلي ـ مجموعة قوى محرّكة تعمل على فراغ، وبمحصلة صفرية، كما ويمكن اعتبارها ـ على مستوى العمل السياسي الخارجي ـ مجرد ردود أفعال منفعلة على استراتيجيات الدول والقوى الدولية الكبرى..

وهذه الإعادة المطلوبة في مجمل مكونات الواقع السياسي العربي المعاصر، لا تعني مطلقاً الحضّ على الثورة وتغيير الواقع القائم بالمعنى التقليدي لمصطلح الثورة التي مضى زمنها، وانتهت مفاعيلها الكلاسيكية، بل بأنْ تقوم القوى والمكوّنات الاجتماعية المتعددة والمختلفة المصالح والتوجهات ـ صاحبة المصلحة الأساسية في التغيير ـ ببناء ذاتها، وتمكين مواقعها، وتطوير أدواتها وأساليب عملها الثقافية والسياسية لإنجاز مطلب التغيير المُلّح..

بالإضافة إلى أنّنا سنحاول تقديم بعض الرؤى والتصورات الفكرية لمعنى التكوين السياسي الحديث للدولة الحديثة القادرة، على طريق بناء مؤسساتها

وهياكلها السياسية والاقتصادية التي تأتي قضية الحريات العامة على رأس الأجندة المطلوبة تطبيقها في هذا السياق.. أي: أن تكون الحرية الفردية وحرية تداول السلطة وحق التعبير عن الرأي والمعتقد والأفكار والقناعات السياسية والاقتصادية، هي الفيصل والمعيار الحقيقي للدولة العربية الحديثة.. وهو ما نعني به ضرورة تعزيز قيم ومبادئ الحكم الصالح القائم على الحرية والديمقراطية والتنمية المستدامة.

وبطبيعة الحال نحن عندما نصرّ على ضرورة الالتزام بالديمقراطية ـ كآلية للحكم السياسي وتداول السلطة والمشاركة الفاعلة في بناء الدولة والمجتمع ـ فإنّنا نريد من ذلك أن تكون مجتمعاتنا بكل تياراتها وقواها هي الحاضنة الأساسية للمطلب الديمقراطي، أي: هي مصدر السياسة وليست الدولة؛ لأنّ المجتمعات هي الفاعل السياسي الحقيقي، أمّا الدولة ـ كمؤسسة وهياكل وشخوص حاكمة منتخبة إرادياً وطوعياً ولفترات زمنية محددة ـ فيقتصر دورها هنا على تنظيم السلطة، وسبل تداول الحكم، والإشراف الأمين على تنفيذ السياسات المنبثقة عن إرادة الناس المقررة هي سلفاً لما تريد أنْ تكون عليه قيمها وأهدافها والتزاماتها ومصائرها.

وهذا الأمر يتطلّب من القيادات السياسية الجديدة الطموحة ـ إذا كانت ترغب فعلاً ببناء دولة القانون والمؤسسات ـ إعادة النظر بمفهومها الكلاسيكي النفعي عن الدولة (الذي ورثته عن النخب السابقة) ومكانتها ودورها، وموقعها في البنيان السياسي العام للمجتمع، وضرورة إرجاعها إلى ميدانها الأساسي، ألا وهو المجتمع.

وعندما تكون المجتمعات الواعية والمدركة لحاضرها ومستقبلها ووضعها الحضاري العام هي المنطلق الحقيقي والواقعي في بلورة النماذج والأهداف العليا التي يقوم عليها وجودنا السياسي والاجتماعي العام، عند ذلك يمكن أن

نقول بأنّنا نسير على طريق تحقيق وجودنا الدولتي العصري الفعال، والاستفادة القصوى من قدراتنا وطاقاتنا الروحية والمادية، وتفجير مواردنا الهائلة.

ثالثاً: أسس ومكونات الدولة الحديثة

تسمح لنا التجربة التاريخيّة التي عاشها العرب والمسلمون منذ البدايات الأولى لنشوء تكويناتهم السياسية، بأن نؤكد على حقيقة ثابتة وراسخة، وهي أنّ الطغيان السياسي (حكم الفرد المستبد، ووضع الشخص في مركز الرأس من مشروع الأمة) كان ـ ولا يزال ـ أحد أهمّ العوامل والمسببات التي أدّت إلى حدوث كل تلك التراجعات والانهيارات في تاريخ الحكم العربي، ووقوع الأُمّة ـ باستمرار ـ في مهاوي الضعف والتفكك والانقسام الأفقي والعمودي، وتحوّلِها إلى مجرد ريشة في مهب رياح تخلفها وضعفها وانهاكها في اجترار ثقافتها المنغلقة الضعيفة والمضعضعة.. ولذلك نحن نعتبر ـ على الدوام ـ أنّ المراهنة على (الفرد ـ الحاكم)، هو رهان خاسر مكلف، مهما امتلك من مؤهلات وخصائص فريدة.

وقد يكون من المفيد أن نذكّر هنا بأنّ الكثير من النخب السياسية العربية ـ الحاكمة وغير الحاكمة، بما فيها الأحزاب الحاكمة والمعارضة ـ اتبعت ظاهرياً سياسات مستقلة جديدة (بشكلها وليس بمضمونها) عن السياسات القديمة، ولكنّها بالمحصلة لم تكن فاعلة ومنتجة، بل كرّست حالة انسداد الآفاق وعمّمت ثقافة الإحباط واليأس والتعب والاسترخاء لدى القطاع الأكبر من صفوف أبناء مجتمعاتها، وساهمت عن قصد بتعميم ثقافة الفساد والإفساد، وما يمكن أن تُفضي إليه من سلوكيات وعلاقات اجتماعية نفعية يسودها الكذب والنفاق والأذى (بهدف الابتزاز) والاستتباع والاستزلام والتملّق (تمسيح الجوخ) والتكالب على المناصب والكراسي، وو... إلخ.

انطلاقاً من تلك الأجواء، وبالنظر إلى التجارب العربيّة الفاشلة في الحكم والإدراة، يمكننا التأكيد هنا على أنّ التكوين الدولتي العربي والإسلامي المؤسسي الحديث ـ إذا صحّ التعبير ـ لا يمكن أنْ يتحقق ويصبح أمراً واقعياً ناجحاً ومثمراً من دون الوقوف المطول أمام الركائز التالية:

الركيزة الأولى:

إنّ استمرار اشتغال النخب القيادية السياسية العربية الجديدة ـ ممن يحملون شعارات التغيير والبناء ـ على الآليات ووسائل العمل نفسها التي آمنت بها والتزمتها عملياً النخب السابقة، (وقد أثبت الزمن عقمها وفشلها وعجزها عن تحقيق الحدّ الأدنى المطلوب من معاني ومفردات دولة القانون والعدل والمؤسسات..) سيكرس حتماً حالة الإخفاق السياسي والاجتماعي القائمة منذ زمن طويل.. كما وسيهيئ للأمة الشروط والمناخات المناسبة اللازمة لتجدد النزاعات والحروب الداخلية فيها (التي هي كالنار تحت الرماد في بعض الدول)... وعندها لن يكون شعار التغيير والتجديد المرفوع حالياً ـ مع وجود الشروط والأجواء ذاتها ـ إلّا استنساخاً جديداً لأزمات الأمة السابقة، وبخاصة أزمة دولها التحديثية التي ما أن استلم أصحابها ورموزها زمام السلطة وناصية القرار فيها حتى حولوها إلى دولة عصبية حزبية (بالمعنى الديني والسياسي)، وصارت وظيفتها الأساسية محصورة ـ بحكم تأسيسها على قاعدة الغلبة والقهر والتمييز ـ في تمكين أصحاب المصالح والجماعات المسيطرة من احتكار الرأسمال الضخم والثروة الروحية والمادية الهائلة التي تمتلكها الأمة.

ويهمنا أن نلفت نظر تلك القيادات إلى أنّه لا يمكنها السير على طريق إجراء الإصلاحات الأساسية المتوخّاة من خلال تطوير مستوى وصيغة خطابها النظري الشعاراتي فحسب؛ لأنّ ذلك لا يترجم المعنى الحقيقي للتغيير المطلوب في المبادئ والقيم وحتى في طبيعة الشعارات ومناهج العمل وسلوكيات

التطبيق التي تسيّر تلك النخب، ولا يعدو أن يكون معنى التغيير ـ عند ذلك ـ إلّا نوعاً من التواصل الدافئ ـ وإنْ من وراء الستار ـ مع الأفكار والطروحات التقليدية القديمة، وإعادة اجترارها من جديد بأشكال ونمطيات سلوكية جديدة، وما يعنيه ذلك من استمرار التغطية الفجة على المشاكل السياسية والاقتصادية الملحة القائمة والمتفاقمة يوماً بعد يوم، بدل البحث الجدّي الهادئ عن حلول دائمة وعقلانية لها.. وهذا ما يعبّر ـ كما يؤكد الكثير من المراقبين ـ عن حالة الضياع العقلي الشامل، وعن الاستقالة المعنوية التي تحاول عبثاً أنْ تغطي على نفسها من خلال عبارات تعرف تماماً أنّها من دون رصيد، ولا تحظى مطلقاً بأيّ قبول أو رضا شعبي، وأنّ مبرر وجودها وترددها الوحيد هو إقامة حاجز يمنع المجتمع عن إدراك عمق المشاكل والأزمات المتلاحقة التي يعيشها.

إنّ ما تطلبه مجتمعاتنا العربية عموماً اليوم من قياداتها ونخبها الحاكمة ليس بالأمر الصعب الذي يُعْجزها إذا ما توافرت النوايا الحسنة والإرادات العاقلة المرتكزة على أبعاد مؤسسية في كلّ ما يتعلق بشؤون الدولة والحكم والإدارة، خصوصاً وأنّنا دخلنا في مواقع ومتغيرات وتحديات اقتصادية وسياسية هائلة جديدة تلف العالم بأسره، وتواجهنا نحن بالذات على مستوى الأمة والشعب والحكم، وتفرض علينا تحدّيات جديدة للوعي والالتزام والعمل..

فما تطلبه الجماهير الآن هو أنْ تلتزم قياداتها المذكورة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ بوجود الناس والمجتمع ككلّ، وحجمه، وقوة زخمه الروحي والمادي الحضاري؛ لأنّ الإحباطات والتوتّرات والمصاعب التي تعيشها هذه المجتمعات وصلت إلى درجة لا تطاق، وبات من الصعب جدّاً معها الوقوف في وجه الانفجارات المتوقّعة، إذا لم يحصل التغيير الجذريّ المطلوب في مواقف تلك القيادات وسلوكها ووعيها والتزامها. ولعلّ بناء وتشييد أسس التغيير السياسي الحقيقي ـ في هذا السياق ـ هو من أُولى المهام الملقاة على عاتق هذه النخب

الجديدة .

إنّنا نعتقد بأنّ البناء السياسي المتين يجب أنْ ينطلق فعلياً في الوعي العملي، وفي توازن القوى الاجتماعية والسياسية، وما لم يحصل ذلك فإنّ انتقالات السلطة والحكم ـ بالطرق والأساليب المعروفة ـ لن تفيد شيئاً، بل بالعكس ستقود لاحقاً إلى الفوضى والخراب، وإلى سيطرة قوى جديدة على السلطة تحت ستار التعددية والديمقراطية.

وهذه النقطة ـ في الواقع ـ جديرة بالاهتمام؛ لأنّه من الضروري جداً تربية المجتمعات من جديد على ثقافة التعايش والتسامح والحوار، وتوعيتها على قيم ومبادئ الديمقراطية والتعددية والاعتراف بالآخر، وذلك من خلال العمل على إنتاج مفاهيم وتصورات فكرية جديدة تكفل تعميق شعور هذه الجماهير بالمسألة الديمقراطية، وتدريبها فعلياً عليها، بما يضمن تحويل ونقل الصراعات والخلافات الكثيرة المتوزعة داخل اجتماعنا الديني والسياسي من دائرة العنف الرمزي والمادي إلى دائرة السجال السياسي السلمي بما يجعلها مصادر مثمرة ومنتجة.

الركيزة الثانية:

كسر الحواجز النفسية والعملية الكثيرة القائمة بين الدولة كمركز ونظام ومحور ومركز للتنفيذ، وبين عموم الناس والمجتمع كطرف يدور في فلك الدولة وينفعل بقراراتها، وذلك من خلال نزول قيادات الدولة إلى الأرض، ووقوفهم أمام حقائق الأمور، وتلمّسهم لهموم الناس ومشاكلهم وإدارة شؤون معيشتهم في حاضرهم ومستقبلهم.. ولا نعني (بالنزول) هنا أنْ ينزل المسؤول الفلاني مثلاً إلى الأرض بجسده فقط، ولكن بروحه ومشاعره وكيانه ووعيه.. ولذلك نحن نعتبر ـ طالما أننا نتحدث عن الدولة العربية التحديثية ـ أنّ أهم الحواجز (المطلوب من القيادات المقبلة ضبطها قانونياً ومؤسساتياً) هو حاجز الأمن

الذي جعل من معظم دولنا العربية الحالية برمتها (دولاً أمنية بامتياز)، لا همّ لها سوى التفنن في اتباع أحدث أساليب الرقابة الدائمة على الناس، وملاحقتهم حتى غرف نومهم، والتلذذ بتعذيبهم نفسياً ومادياً.. وقد تبدت معظم الدول العربية ـ من خلال ذلك الحاجز ـ بأنماط غير إنسانية من الاضطهاد والاستعباد ومصادرة الحريات وإلغاء الآخر، فأصبح المواطن مقيّداً وملجوماً منذ ولادته، وعاجزاً عن وعي واستلهام وتنمية عناصر ومعطيات التفكير السليم المبدع، وبالتالي: بات شبه عاجز عن الانخراط في مسيرة الإبداع الحضارية الإنسانية بسبب افتقاده للحرية باعتبارها الشرط الأولي لنموّ بذرة الإبداع والإنتاج في أية بيئة.

لذلك فالدولة (أية دولة) التي تحترم نفسها، وتقدّر شعبها، وتشعر بأهمية وجود مواطنيها، ودورهم الفعال في المجتمع، وتعتبر نفسها شرعية (في وجودها وامتدادها) وشعبية في ممارساتها... إلخ، هذه الدولة التي تمتلك كلّ تلك المواصفات وغيرها، ليست بحاجة مطلقاً إلى الجانب الأمني الرادع إلّا من باب المحافظة على استقرار الدولة، ورعاية أمن الناس، والحفاظ على شبكة عالية من الأمان الاجتماعي، وتكريس رفاهية المجتمع، والسهر على حدود الوطن والدفاع عن المواطن بالطريقة الإنسانية الحضارية التي تحفظ كرامة الإنسان، وبما يخدم كل أفراد المجتمع وليس أمن النخبة السياسية الحاكمة فقط.

ومن الطبيعي جداً أنْ تهتم الدول كلّها بالأمن والاستقرار الاجتماعي، لكن الذي يميز الوضع في الدول العربية ـ عن باقي دول العالم الأخرى ـ هو عدم ثقة النظم الحاكمة في عالمنا العربي بالوعي الوطنيّ العامّ لدى مواطنيها الذين يعاملون حتى الآن كجواسيس وطوابير خامسة، وينظر إليهم دوماً كقوّة معارضة كامنة يمكنها أن تخرج من القمقم متى ما توافرت لها الظروف المناسبة. والسبب في ذلك ـ على ما يظهر ـ أنّ النظام الرسمي العربي عموماً

يتوقّع من مواطنيه أن يتحوّلوا بسهولة إلى لعبة بيد القوى الخارجية، الغربية أو الأنظمة المعادية العربية، كما تتوقع منهم أن يصبحوا بين ليلة وضحاها ضحايا سهلة لدعايات التجمعات والجماعات المتعصبة إياها.

ومعظم دولنا العربية (دول عميقة) (deep state) بالمعنى الأمني، وليس بالمعنى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو النفسي ـ السوسيولوجي؛ لأنّها تتعيش على الأمن وترعى مصالحها به وعن طريقه، وتحفظ وجودها العميق من خلاله.

وهذا كلّه يجعل من فكرة (جهازية الدولة العربية) فكرة صحيحة على الدوام، حيث إنّه وبالرغم من الاستخدام الكثيف للفكرة القومية والتربية اليومية للمشاعر القطرية والشوفينية في معظم دولنا العربية، لا تزال تلك الدول تتصرف في الواقع كجهاز خاص وكقوة لها ميليشياتها الخاصة، وولاءاتها المخفية العلنية، وليس كمؤسسة مدنية لكل أبنائها: تؤمن بأنّ من الممكن فعلاً المراهنة على المشاعر الوطنية والإسلامية أو المسؤولية الجماعية.

إذاً من هنا تبدو أمّ المشاكل منحصرة ومتركزة أساساً في أنّ معظم السلطات العربية القائمة عندنا ـ وبعد أن نشأت وتربت على اعتبار العامل الأمني هاجسها الرئيسي ـ لا تنظر إلى المعارضة (مهما كانت عقيدتها ورؤيتها السلمية الحضارية البعيدة عن العنف) إلّا من الزاوية الأمنية البحتة فقط.. وهي محقّة في بعض الأحيان في تصوّرها هذا، حيث تجد تلك السلطات كيف أنّ كثيراً من معارضيها يرتمون في حضن القوى الدولية، ويتلقون مساعدات مادّية منها، ويستخدمون منابرها للهجوم عليها، ولتقسيم أبنائها ومجتمعاتها، ووالخ.. فهذا النوع من المعارضة ليس مجالاً لحديثنا هنا، وتصرّفاتها تلك مدانة بشدّة من قبلنا، وإن كنّا نعتبر أنّ طرق وأساليب حكم تلك السلطات ساهمت كثيراً في دفع تلك المعارضات الخارجيّة للارتماء في أحضان الدول والمواقع والمحاور الدولية

الكبرى هنا وهناك..

ومن الطبيعي والحال هذه أن يتحول المواطن ـ في نظر هذه الدولة أو تلك، وفي مثل هذه الأجواء الضاغطة والمضطربة ـ إما إلى مخرب ومتهم على الدوام، أو إلى موالٍ لجهاز السلطة القائمة، ولا حلّ ثالث أبداً بينهما.

وانطلاقاً مما تقدم نقول بأنّ إعادة حق الاعتبار النفسي والمادي للمواطن العربي ـ من حيث كونه العنصر المحوري الأهم في إحداث عملية التغيير والبناء والتنمية والنهوض الحضاري المطلوب العمل عليها من قبل تلك القيادات ـ هو الذي سيساهم في إلغاء طقوس الظلم والقسر المتفشّية بكثرة في كثير من أوساط أجهزة الحكم والأمن العربي، وهو الذي سيضع تلك القيادات على المحكّ والتجربة العملية، واختبارات حسن النوايا.

الركيزة الثالثة:

تطوير وتحديث الإطار المؤسّسي للنظام العربي بما يتناسب مع المتغيرات والتطورات الهائلة التي يشهدها العالم، والتحدّيات التي يواجهها هذا النظام، وذلك بهدف تحقيق الفائدة القصوى المرجوّة من الرأسمال الحضاريّ الضخم الكامن في الذات والطبيعة العربية والإسلامية، قبل فوات الأوان.

وفي هذا المجال نحن نعتبر أنّه لن يكون بمقدور السلطة الرسميّة العربية القادمة إلى الحكم في مقبل الأيام والعهود تحقيق ذلك الهدف الكبير من دون الإدماج الطبيعي لجماهير الأمة كلّها في عملية التنمية المتوخّاة بمفهومها الفردي والجماعي. وهذا الإدماج الطوعي لن ينجح ما لم يوجد إطار فكري وسياسي نابع من مقتضيات الانتماء الحضاري إلى الثقافة العربية والإسلامية، وقادر على الاستجابة لتحدّيات الحاضر وتلبية احتياجات المستقبل. وذلك هو الذي يدفع شعوبنا العربيّة والإسلاميّة بقوّة للانخراط الفاعل والواعي في الوتيرة الراهنة للتطوّر الحضاري، ويثير كوامنها وطاقاتها الذاتيّة للإبداع والإنتاج والمنافسة مع

باقي الحضارات، والمساهمة الإيجابية في المسيرة الإنسانية العالمية. إنّ ذلك لا يعني سوى أنْ يبحر (إطار التنمية الشامل) ضمن المركب الحضاري (العربي ـ الإسلامي)، ويقدم للجماعات ـ التي انطبعت نفسياً وشعورياً وتاريخياً بخصائص وأهداف ذلك المركب ـ الوسائل والآليات العملية القادرة على استيعاب قيمها ومبادئها الذاتية الحضارية.

والقصد من ذلك القول بأنّ الدولة لا تستطيع أن تكون منتجة ومثمرة ومنجزة ما لم تحظى بشرعية تاريخية مستقرة قائمة على مبدأ الولاء الطبيعي لها. وليس لهذه الشرعية من مصدر آخر ـ كما يؤكّد أغلب الباحثين ـ إلّا قدرتها على إشراك رعاياها في نمط حضارة عصرهم. أي: في إنتاج قيمه، واستهلاكها على حدّ سواء. وفي كلّ مرة تخفق فيها الدولة في تحقيق هذه المهمة، تطرح على المجتمع ـ وعلى التاريخ ـ مسألة تبديلها وتجاوزها، وتدخل لا محالة في أزمة سياسيّة عميقة كما هي حالتنا الراهنة، ولا تستقيم بعد ذلك إعادة بناء السياسة وترسيخ شرعيتها وقيمها وفاعليتها إلّا بالنجاح في إيجاد المخرج الذي يحقّق للشعوب هذه الفرص التاريخية الضرورية لمقاومة مخاطر التهميش والعزلة عن سيرورة التطور الحضاري المتسارع، وبالتالي الإفقار والتدهور والموت القومي البطيء. أي: أنْ يكون المطلوب هو إعادة بناء المجال الجيوسياسي الملائم لنمو الحضارة.

من هنا يكون الإسلام ـ وإعادة تثمير وتأويل نصوصه بما يتلاءم مع العصر والانفتاح على الحياة وتقبل أفكار الديمقراطية والتعددية والدعوة السلمية وتمكين الحريات الخاصة والعامة، ووو الخ ـ هو العنصر والعامل الأساسي الذي نستطيع من خلاله تجاوز الصعوبات والتحديات التي تعجّ بها ساحتنا، وتحقيق شروط الاندماج الفاعل والناجح في الحضارة العالمية، والمرتكز على القيم الحضارية والثقافية للأمة.

ونحن عندما نضع الإسلام ـ وبالأخصّ الدعوة إلى التجديد الديني من خلال الاجتهاد في نصوصه ومعطياته المعرفية ـ في مقدمة العناصر والشروط اللازمة لاستنهاض همم أبناء الأمة، فإنّنا لا نطرحه كحلّ سحريّ سيؤدي مهامه ووظائفه بالسرعة الفائقة، بل إنّ لذلك شروطاً وأجواءاً ومعايير وآليات عمل كثيرة، لا بدّ من العمل على إنتاجها وصياغتها من جديد في بيئتنا العربية والإسلامية حتى تؤدي في النهاية إلى إقامة نظام سياسي ديمقراطي مدني علماني شرعي يحظى برضا الناس، ويحمل طموحات المجتمع ورغبته الملحّة في التغيير، ويعمل على تحقيقها في دوائر اجتماعه المدني والمؤسساتي من خلال احترام الكرامة الإنسانية، وتوفير خيارات حقيقية لكافة أفراد المجتمع ضمن الإطار العامّ للنظام الإسلامي بحيث تتحوّل الدولة العربية من كونها إرثاً شخصياً ثابتاً ودائماً لفئة أو لفريق من السكان، وهاجساً جنونيّاً تعيشه بجدّية أغلب النخب والتيارات السياسية القائمة، وتهدف من خلاله إلى الإطباق الكامل على مفاصل الحكم والسلطة والسيطرة على مقدّرات الأمة، إلى مركز حيوي كبير لخدمة المجتمع ككلّ، وللتنافس القانوني والدستوري الشريف على خدمة الناس، وتلبية احتياجاتهم الروحيّة والمادّية، وبذل الجهد الكبير للتعاون الوطني والقومي والإسلامي، والتفاهم بين التيّارات والأطراف الاجتماعية، وتطوير المشاركة السياسية الفعلية في المسؤولية الوطنية الجماعية، وخلق الظروف والمناخات السياسية والاجتماعية المناسبة لإعادة روح التضامن الوطني والاجتماعي، وتحقيق الاندماج الطبيعي التدريجي، بحيث لا يبقى في الأمة من يشعر بأنّه محروم من أبسط حقوقه وثمرات جهده وتعبه، أو أنّه غريب في داخل وطنه.

رابعاً: استنتاجات مهمّة

الاستنتاج الأول: القناعة بالفكرة وأساس تحققها.

لا شكّ بأنّ التطور والتغيير سنة وقانون كوني عام، وأنّ المتغير هو الثابت الوحيد في هذا الوجود، وقديماً قالوا بأنّ دوام الحال من المحال، وأنّه لا يمكن للمرء أن يغتسل مرّتين في النهر..

وبالنتيجة نقول: إنّ أيّ مجتمع يرفض التغيير، أو على الأقلّ لا يقبل بإصلاح أحواله ومواقعه المتعددة، والتخلص من ملابسه الرثّة القديمة غير الصالحة للحياة والعصر، فإنّه لا محالة يقود نفسه إلى التهلكة والانقراض الفردي والمجتمعي.

والمشكلة هنا لا تكمن فقط في عدم قبول السلطات العربية الحاكمة بفكرة ومبدأ التغيير ذاته (إلّا إذا كان يحقّق مصالحها طبعاً)، بل تكمن أيضاً وتتركز في أنّ الثقافة العربية والإسلامية، بما هي رؤى وأفكار ونظم واعتقادات وعادات وتقاليد وسلوكيات عامة مهيمنة على قناعات وعقول أفراد مجتمعاتنا، صعبة المراس وغير مطواعة لقبول فكرة التغيير بحكم بنيتها المغلقة، وسيطرة نصوص تمامية ونهائية عليها، يُزعم بأنها تقدّم حلولاً جاهزة ودائمة لمشاكلها وأزماتها التي قد تظهر في أيّ زمان ومكان.

والمقصد أنْ نقول هنا بأنّ الإنسان الشرقي عموماً اعتاد وأَلِف العيش مع العادات والتقاليد القديمة، بالرغم من تفاعله واستفادته من أحدث منتجات العصر الحديث، وتكوّنت في داخله أجواء حميمية عاطفية مع تلك الأفكار القديمة بحيث بات من الصعب فصله عنها، حتى لوكان هذا الفصل يصبّ في مصلحة عيشه الوجودي المستقبلي المتواصل والمستمر والممتد في عمق الزمان، كما يقول الشاعر المتنبي:

خُلِقتُ أَلوفاً لو رجعتُ إلى الصبا لفارقتُ شيبي موجَع القلب باكيا

فكيف يمكن لفرد يعيش حالة الزهو التاريخي بأمجاد الماضي التليد، ويرهن وجوده لأفكار ماضوية غابرة، وتتحكّم بمصيره الراهن فتاوى مضى عليها مئات السنين، ويؤمن بأنّ مستقبله جاهز في ماضيه، كيف يمكن لهكذا إنسان أن يكون مقتنعاً بفكرة التغيير والتطور؛ ليكون مبدعاً ومنتجاً وفاعل الوجود في حياته وممارساته؟!!.

إنّ جذر الحلّ لا بد وأن ينطلق أولاً بالاشتغال على نقد الفكر والثقافة السائدة التي استغلها السياسي العربي لمصلحته من أجل تأبيد حكمه بتخويف ذاته والآخرين من ثقافة الجمهور العام..

الاستنتاج الثاني: فهم حقيقة التغيير والإصلاح المطلوب.

انطلاقاً من ذلك لا يكون التغيير المطلوب حالياً ـ على المستوى السياسي العربي بعد حدوث التغيير الثقافي والتجديد المعرفي الديني (ونعني به: إعادة قراءة النص على ضوء الحياة والعصر) ـ مجرّد استبدال رؤوس بأخرى، أو حكم بآخر ونظرية بأخرى، ولا قلب الأوضاع بالطريقة المعروفة للجميع... ولكنّه يعني استبدال عقائد ومناهج وآليات عمل لا تزال تحكم وتهيمن وتؤثر ـ بالمحصلة الإجمالية ـ سلباً على حركة الفرد والأمة، وتؤخر عملية التنمية والنهوض المطلوب فيها. وهو يعني أيضاً خلق الشروط والمناخات الجديدة التي تسمح بإدخال مجتمعاتنا في عمليات التفاعل الحضاري المادي والفكري العالمي الراهن من خلال تطوير مؤسساتها القانونية، وإلا كان هذا التغيير مجانباً للواقع وفاقداً لأيّة مصداقية وتأثير عملي. لكن الذي حدث ويحدث عملياً هو عكس ذلك..

الاستنتاج الثالث: أسباب استنكاف الناس عن الانخراط في مسيرة بناء الدولة.

نشأت الدولة العربية الحديثة بمعزل عن هموم الناس والمجتمعات، وبقيت

تمثل سلطة النخبة العليا في مواجهة سلطة المجتمع وثقافته ومختلف تكويناته، أيْ: أنّها ظلت مستقلة عن طبيعة المجتمع ومعتمدة على الخارج. ومفصولة عن تطلعات الناس، تتحرك هي في وادي وهو يسير في طريق أخرى، غير متفاعل معها، ولا منسجم مع طروحاتها، وينطبق عليه وعليها المثل الذي يقول «كلٌّ يغنّي على ليلاه».. ولذلك لم تكن (تلك الدولة) مقبولة، ومحترمة لدى أفراده.. وقد ترتب على لا شرعية الدولة في وعي أبنائها لها، كرههم وحقدهم الشديد عليها، وفقدان عنصر الثقة والتواصل بينهما، وسعي الفرد والمجتمع للخلاص منها بكلّ الوسائل المتاحة أمامه، إلا في بعض المفاصل الزمنية التي كان الحاكم يتلاعب فيها بعواطف الناس الدينية ومتخيلاتهم الثقافية، فيعمد إلى تعميم ما يمكن تسميته بالمظاهر الدينية الخارجية بين الناس، من جوامع ومعابد وحوزات ومدارس ومعاهد تعليم ديني وو..غيرها، من دون أيّ قناعة حقيقية بها، بل لتكون بالمحصلة مجرّد دعاية خارجية مجانية لإرضاء الناس وتبديد طاقاتهم وتنفيس احتقاناتهم.

ولكن وبالرغم من كلّ ذلك، لم تلق تلك الحركات والأعمال (الخلبية) ـ إذا جاز التعبير ـ أيّة أصداء حقيقية في المجتمعات العربية، وبقيت العلاقة متوترة جداً بين الفرد والحاكم، وقد دفع كُره الناس للدولة إلى أن تعطي الدولة نفسها حقّ مراقبة كافة أوجه النشاط الوطني والاجتماعي عن طريق أجهزتها الرقابية الأمنية وغير الأمنية المعروفة من أجل متابعة وفهم أحوال الناس وزيادة إخضاعهم لسلطتها المركزية، وإجبارهم بالقوة وباستخدام كافة وسائل العنف العاري على منحها الولاء والطاعة، واحترام القوانين، ودعم معاركها، وتأييد شعاراتها.

ويبدو لنا بأنّ من أهمّ أسباب ابتعاد الناس عن دولهم وحكامهم وحكوماتهم، ورفضهم السير في طريق التنمية والتطور، هو أنّ نمط الدولة

التسلطية العربية يتصادم مع التكوين العقائدي والثقافي والحضاري للناس وللمجتمعات العربية والإسلامية عموماً، ولا ينسجم مع شعور الأمّة النفسي ونسيجها التاريخي، مِمّا أدّى تدريجياً إلى ابتعاد الناس عنها، واستنكافهم عن المشاركة الطبيعية بأعمالها، ولذلك بقيت الدول العربية عموماً ـ بحسب تلك الادّعاءات ـ دولاً غريبة ذات منشأ غير أصيل، وتنتمي إلى مرجعية حضارية ومعرفية أخرى بالرغم من بعض الشكليات والديكورات الدينية هنا وهناك لزوم الطلب والإعلان كما ذكرنا.. أيْ: أنّ تلك الدول تعاني أزمة شرعية حقيقية بامتياز، ولم تولد ـ بشكل طبيعي ـ من سياق تطوّر داخلي طبيعي، وإنّما فرضتها ظروف الهيمنة الاستعمارية، فشكّلَ حكمها (حكم الدولة العربية الحديثة) مزيجاً من الرعاية البطركية والجهاز البيروقراطي الموروث عن الاستعمار.

الاستنتاج الرابع: الإنسان ـ الفرد أساس الفعل التغييري:

إنّ بناء دولة النظام والقانون والمؤسسات على أسس متينة وصلبة تهيّئ القواعد الحقيقية لقيام الدولة العادلة والقوية والقادرة على أعدائها فقط وليس على شعوبها المنهكة والتعبة والضعيفة، لا بدّ وأن يبدأ من إعادة الأمور إلى نصابها من خلال الرؤية العقلانية والموضوعية الواضحة والمرتكزة ـ كما ذكرنا ـ على قاعدة وجود الإنسان الحرّ باعتباره صاحب المصلحة الأولى والأخيرة في عملية التغيير أو الإصلاح، وتنمية المجتمع وتطويره وتحديثه قانونياً ومؤسساتياً.

وفي اعتقادي نحن مازلنا ـ على الرغم من كلّ ما قيل ويقال عن الوطن والوطنية والقانون والمؤسسات وو.. ـ بعيدين عن تحقيق هذا الحلم، وسنبقى كذلك ما لم تعالج تلك القيادات مسألة شرعية وجودها الطوعي الطبيعي (لا القسري) على رأس السلطة والحكم؛ لأنّ نشوء السلطة العربية الحديثة كان

يعاني منذ البدء ـ كما بات معروفاً ـ من غياب مسألة الشرعية الطبيعية.. وهي مستمرة ـ على أيّ حال ـ في هذا الطريق النضالي الطويل.. حيث إنّه وبدلاً من أن تعيد تلك السلطات النظر بكلّ الأسس القهرية التي تتأسس عليها حالياً، فإنّه يتمّ تفعيل العمل بقوانين الاستثناء بصورةٍ أشدّ حدية مِمّا كان عليه الأمر في الماضي.. وبالنظر إلى ذلك ـ وبما أنّ العنف يولّد العنف والقوة تولّد القوة ـ لا بدّ من ظهور ردود أفعال سلبية في المجتمع، وولادة حركات عنف مدمرة مما سيُدخل مجتمعاتنا في المجهول الغارق بالسواد والظلمة.

من هنا دعوتنا الفكرية لتلك القيادات ـ مرة أخرى ـ إلى ضرورة أخذ العبر والدروس العملية الكثيرة المتوافرة أمامها من التجارب السابقة والحالية.. ولعلّ الدرس الأكبر والأبلغ ـ الذي يجب ألا يغيب عن بال أحد ـ هو درس عدم مصالحة السلطة العربية مع المجتمع والجماهير الواسعة. وهو أمرٌ أساسيٌّ يجب المبادرة للالتزام به، والمباشرة باتّجاه تحقيق متطلباته الحيوية، ومنها: العمل على إعادة النظر في الأوضاع السياسية والاقتصادية ومختلف السياسات الاجتماعية التي اتّبعت سابقاً في شكل الحكم ومضمونه، وفي قواعد توزيع الثروة داخل المجتمع، ونوعية مشاريع التحديث الهشة المقامة. وهذا يعني أنّ أزمة الشرعية التي تعاني منها الأنظمة العربية حالياً يجب أن تجد لها القيادات السياسية الجديدة الحلول المناسبة، وذلك من خلال فتح المجال الواسع أمام المشاركة السياسية للدخول في حوار يشمل كل مواقع وامتدادات المجتمعات العربية.

الاستنتاج الخامس: بناء الدولة طوعياً لا قسرياً.

إنّنا نعتبر أنّ تحقيق حلم دولة القانون، والنجاح في تغيير الواقع العربي الاقتصادي والاستراتيجي القائم يتطلّب منا جميعاً إعادة التأسيس الجدي لنظام الحريات في الوعي العربي المعاصر، أيْ: لنظام يتسع لاختيارات البشر، ويبني

مواقع حكمه وسلطته على قاعدة التعددية السياسية والاعتراف بالآخر.

والملاحظ هنا أنّ الدولة العربية الاستبدادية فوّتت تاريخياً على العرب والإسلام فرصة أنْ يتصدى هذا الدين ـ من خلال نخبه ومفكريه الكبار ـ بنفسه لاكتشاف النظام الديمقراطي، وقيادة مسألة الحريات وحقوق الإنسان على مستوى العالم من خلال وجود كثير من المبادئ والأسس الحضارية الإنسانية التي أرستها قيم ومفاهيم الإسلام ذاته. ونحن عندما أطلقنا صفة (الإسلامية) على النظام المؤسسي الديمقراطي المقترح؛ فإنّ ذلك لا يكفي حتى يحقّق هذا النظام للأمة التقدم والازدهار والنمو المطرد، وهذا ما يتضح من خلال استقرائنا لحركة التاريخ الإسلامي الذي حكمته ـ منذ أنْ تأسس نظام الحكم في الإسلام (منذ العصر الأموي وحتى الدولة العثمانية) ـ أنظمة استبدادية حملت ورفعت شعار الإسلام؛ لذلك ولكي يكون النظام قادراً على تحقيق غاياته وأهدافه الكبرى في التحرّر والتنمية يجب أن يكون شرعياً ومعترفاً به من قبل الناس، ويعترف هو نفسه بشرعية الناس، وشرعية الجماهير العريضة[1]. فالسلطة ـ كممارسة وآليات حكم ـ ينتجها الناس ويختارها المجتمع من خلال تداولها بالطريقة السلمية الحضارية.

من هنا نحن نؤكّد على أنّ صفة الإسلامية ـ التي تعتبر بنظر الكثيرين مدخلاً لتطبيق الشريعة الإسلامية ـ لا تكفي لتحقيق مطلب النهوض والازدهار، ولا تشكّل ضمانة حقيقية ضدّ الانحراف والظلم، فالمجتمع ـ ومن خلال آليات الحكم التعددي المؤسسي التي تضع المرجعية في اختيار السلطة بأيدي الناس لتكون السلطة موضوعاً للتداول وليس موضوعاً للاحتكار ـ هو القادر على صيانة ورعاية الأمة ضدّ الظلم والاستبداد والقهر والطغيان، وتحقيق شرط النهوض والتقدم؛ لأنّه يمتلك عناصر شحن المجتمع بالحيوية والفاعلية الذهنية والانسجام والحراك، المؤدّية إلى إشعال الروح الجماعية

لاستثمار الأخلاق الفطرية الكامنة في طريق نفع الجماعة والأمة، وتهذيب ممارستها، وتنمية إمكاناتها وبَوْصلة اتجاهها.

ونظراً للدور العريق الذي يتمتع به الدين في التاريخ ـ وخصوصاً الإسلام ـ وفي أوساط الجماهير العربية والإسلامية كلها، وبخاصة بعد تثبيت عنصر الاجتهاد فيه ليصبح مصدراً لنشوء نظام مدني قادر على تنظيم حركة المجتمع بما يدفع أفراده باتجاه العمل والإنتاج، طالما أنّ علاقاتهم السياسية والاجتماعية والثقافية قائمة أساساً على مباني الفكر الإسلامي، ومؤطّرة بنسيجه العقائدي التاريخي.. أقول: بالنظر إلى المعاني الكبيرة، يمكن أن نقرّر هنا بأنّ أسلوب وعي الناس للدين، وفهمهم لقيمه وطروحاته المدنية ـ التي يجب الاجتهاد في كثير من مفرداتها وتطبيقاتها العملية ـ يشكّل بحدّ ذاته أهمّ عامل وحافز في تعجيل نضوج وتكامل المجتمع، واستتباب نظمه وأطره الحقوقية والقانونية، وتوفير الأجواء المناسبة التي تتيح للجماهير المتدينة بالإسلام ـ والمفكرين والنخب الثقافية والسياسية المختلفة ـ السير على طريق الإبداع والإثمار المادي والمعنوي الحضاري.

خامساً: خاتمة

إنّنا نعتقد أنّ هناك ضرورة عملية في تحكيم حركة الحوار العقلاني في مجتمعاتنا العربية المتوترة، وتأصيل قيم التسامح والاعتراف بالآخر، وتحمّل بعضنا البعض بالصورة التي تحقّق العدالة للجميع ومن إقصاء أو إلغاء لطرف على حساب طرف آخر.. وإذا كانت الحركات الإسلامية المعاصرة قد لجأت ولا تزال تلجأ إلى تبنّي واستخدام أساليب العنف وأدوات القوة لإزاحة أنظمة الاستبداد والتبعية القائمة ـ تماماً كما لجأت إليه حركات أخرى غير دينية ـ فإنّ بعض هذه الحركات الجماهيرية التي تلتزم بالدعوة السلمية وتنبذ العنف وتؤمن

بتداول السلطة، يجب ألا ينظر إليها وكأنّها تلتزم بمنهج وخط غريب ومرفوض، ومتهم بالإرهاب دائماً و... الخ، بل يجب التعامل معها بلغة الحوار والرشد والعقلانية واحتواء مطاليبها سلمياً من خلال السماح لها بالتعبير عن آرائها ومعتقداتها بالطريقة الهادئة، وعدم مواجهتها بلغة القمع والسيف والسجون والمعتقلات والمنافي الصحراوية. وأنا أوجّه خطابي هذا إلى القيادات السياسية على وجه الخصوص، باعتبارها تريد ـ كما تدّعي ـ العمل بهدوء وبالتدريج، على بناء واقع سياسي تعددي لا يلغي أحداً، ويكرّس حالة الاختلاف بالآراء، وتعدد أساليب الفكر والوعي والاعتراف بالآخر.

إنّ الطريق الطويل ـ أمام تلك القيادات الشابّة الطموحة ـ ليس مفروشاً بالورود، وهو سيلزمها بأن تعمل على إعادة النظر (بالمنهج ـ الأزمة) الذي تربّت عليه مجتمعاتنا على مدى قرون طويلة، فلم تعد تعرف قيمة للحرية وللحقوق الإنسانية، ونسيت أنّ الإسلام الرسالي الإنساني قد وهبها هذه الحرية والحقوق كما ذكرنا.

ـ «**عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج شاهراً سيفه على الناس**» أبو ذر الغفاري رحمه الله.

ـ «**ما جاع فقير إلّا بما متع به غني**» الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ـ «**الحرّ حرٌّ في جميع أحواله**» الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

ولذلك يجب تربية أفراد مجتمعاتنا من جديد على تجسيد قيم الاعتراض السلمي الصحيح والسليم، وتعليمها مبادئ الاختيار والتسامح والحرية الفكرية والسياسية.

نعم صحيح أنّ هذا المطلب صعب التحقق والمنال في المدى المنظور، لكن توفّر إرادة العمل، والتطلع نحو الأمام، والرغبة العملية الملحّة في تحقيق الأهداف العليا في الحياة، يمكن أن يجعل المستحيل ممكناً والخيال واقعاً.

والمهمّ هو أن تمتلك تلك القيادات إرادة العمل الجدّي والمسؤول باتجاه إنجاز المفردات الأساسية للتنمية والنهوض التي لا نغالي إذا ما قلنا بأنها هي المعنية بتطوير الواقع الحالي، والإسهام في تحريك إمكانات الأمة الهائلة وإيقاظها من غفوتها الطويلة، وحثها عملياً على السير في طريق التقدم والازدهار.

* * *

الهوامش:

(١) طبعاً هذا كلّه في ظلّ غياب أصحاب السلطة الحقيقين، الذين كان ظلم الأنظمة التي انتسبت إلى الإسلام بهتاناً وافتراء سبباً لإقصائهم، (التحرير).

تجليات

اليقظة الإسلامية في الشعر العربي المعاصر

(قضية فلسطين نموذجاً)

❐ **الدكتور جهاد فيض الإسلام** (*)

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف عند تجليات اليقظة الإسلامية في الشعر العربي المعاصر، فقد جاءت ـ اليقظة ـ في نسيج الشعر المعاصر، ولا سيّما الشعر الفلسطيني المقاوم لتعبّر عن حركة تاريخية بدأ بها الرسول الأعظم ' منذ فجر الإسلام الصادق؛ وذلك لتصنع من البشر الإنسان المثالي الذي ينبغي أن يعيش كما أراده الله تعالى أن يكون. وقد رأيت أنّ اختيار فلسطين نموذجاً هو الاختيار المناسب؛ لأنّه أبرز مكان شكّل هذه الظاهرة في الشعر العربي المعاصر؛ إذ كشف البحث تطوّر واستمرار اليقظة والدور الذي لعبه تيّار أصحابها من شعراء وغيرهم، وكيف تجلّى في الشعر حتّى يومنا هذا.

أيضاً حاول أصحاب هذا الاتجاه أن يلفتوا انتباه المسلمين جميعاً بأنّ الدين

(*) أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة المصطفى العالمية/ إيران.

الإسلامي هو دين الإخاء والديمقراطية والحرية والوعي واليقظة، ومن خلاله يمكن استرجاع الحقوق السليبة، ولا سيّما فلسطين، وقد توصّل البحث إلى نتائج مهمّة أُشير إليها في الخاتمة.

الكلمات الرئيسية للبحث:

اليقظة، الشعر، الإسلام، فلسطين.

المقدمة:

لقد كان موقف الإسلام واضحاً من قضية الشعر والشعراء؛ إذ اتخذ منه وسيلة لخدمة مبادئه وقيمه الإسلامية، حيث كان لهذا الدين الجديد شعراء يدافعون عنه، أمثال حسان بن ثابت، عبد الله بن رواحة، كعب بن مالك وغيرهم، وبقي للشعر هذا الدور المؤثر إلى ساعتنا هذه في وتيرة تشتدّ حيناً وتضعف أُخرى.

أمّا في العصر الحديث فقد شهد المسلمون بشكلٍ عامّ تبلوراً لصورة الإسلام الحقيقية التي تراكم عليها شيءٌ من الغبار والضباب، وذلك بجهود رواد الاتجاه الإسلامي[1] الجبارة، ومن ضمنهم شعراء هذا التيار[2] الواسع الذين دعوا الأُمة أنْ تعود إلى إسلامها الذي منّ الله تعالى به عليها، حيث انطلق الشاعر من تصوّر إسلامي، ويرى أصحاب هذا الاتجاه بأنّ قضية القدس وفلسطين هي قضية إسلامية في المقام الأول قبل أن تكون عربية، وأرض فلسطين حقّ لجميع المسلمين وليس لقوم أو قطر أو حزب خاص، وتحريرها لا يمكن إلّا عن طريق الإسلام؛ إذ الإسلام هو القادر على إلحاق الهزيمة بالعدو وإعادة فلسطين والقدس السليبة للأمة لما فيه من قيم ترفض الاستكانة والهيمنة للعدو.

وحاول أصحاب هذا الاتجاه أنْ يلفتوا انتباه المسلمين جميعاً إلى ماضيهم

المجيد والزاهر، وتراثهم الإسلامي الزاخر، يدعوهم إلى التمسك والاعتزاز بعقائدهم ودينهم القويم، فالشعور الإسلامي هو أقوى البواعث والدوافع للتضحية من أجل التحرير، علاوة على هذا فإنّ الدين الإسلامي الحنيف هو دين الإخاء والديمقراطية والحرية، حيث يجسد الوطنية بكل صدق، ويحترم الديانات ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [النساء: ١٦٣]. ولا يفرّق بين نبي وآخر: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، مِمّا يجعل الأُمة أمّة إسلامية متماسكة مع بعضها البعض، وهو الذي دعا شعراء اليقظة أنْ يبادروا لنظم شعر تبلورت فيه أهداف شريفة سامية، ومحورها اليقظة الإسلامية، وأن يروا هذا هو المنهج السديد لإحراز النصر واسترجاع الأرض المحتلة، ألا وهو فلسطين وقدسها الشريف؛ ولذا سوف نسعى ونحاول بقدر ما نستطيع في هذا المقال، التوقف عند تجليات اليقظة في الشعر العربي المعاصر، ومدى مساهمته في دعم القضية الفلسطينية، وكيف انتصر لها وانتصرت له، وكيف فجّر قرائح أهله، وجعل كل واحد منهما الآخر حياً وفعالاً.

اليقظة الإسلامية:

كانت أهم أسباب التراخي والتراجع الذي عاشته الأُمة الإسلامية، والذي أسدل بظلاله عليها عقوداً طويلةً من الزمن، هو فصل الجيل عن تراثه المجيد والحيلولة دون معرفة حقيقة ذلك التراث وما فيه من قيم إنسانية وروحية، وإسلامية عالية المضامين، وبات من الواضح أنّ هذه المؤامرة لم يكن للاستعمار الأجنبي وحده الذي نسج خيوطها، بل شاركه في ذلك عالماً أو جاهلاً بعض

أبناء الأُمة؛ ولذا «**تغيّرت عقائد الإسلام الحرّة النقية في نفوس الكثرة من المسلمين، كما يتغيّر الشراب الخالص في الإناء القذر! انحلّت الأخلاق، فلا تتماسك في قولٍ ولا فعل، وتقطعت القلوب فلا تتواصل في دين ولا وطن**»[٣].

وهيمنت أخطارٌ هددت مستقبل الأُمة بأسرها، وكادت تمحو معالمها وقيمها وتراثها، وتجعلها في متاحف التاريخ؛ وذلك بعد طمس قواعد الإسلام الفكرية وأسس بنيانه الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية، التي ظهرت كالشمس في رابعة النهار، لا سيما في القرن التاسع عشر للميلاد، ولكن لم يمضِ شطرٌ من الليل وإذا «**بيقظة الوعي الإسلامي التي بدت في تعاطف المسلمين على البعد، تناصرهم في القرب وتحالفهم على الأحداث كأشعةٍ من تباشير الصباح قبلها الليل المظلم وبعدها النهار المشرق**»[٤].

فشهد عالمنا الإسلامي والعربي في العصر الحديث جملة من التحولات بعد ما استشعر خطورة ما يدبّ حوله، فانطلق ليدافع عن كيانه، ووجوده، وذاته، داعياً للعودة إلى تراثه وروح إسلامه الأصلية، وفي ظلّ هذه اليقظة نشأ كثير من الشباب أو تأثروا بها، فنظروا للإسلام نظرة لعلّها تختلف عن النظرة السابقة، وهذا ما حدث عند حزب الله في لبنان وحماس والجهاد في فلسطين وبعض البلاد الإسلامية الأخرى؛ حيث رأت الإسلام سِلمٌ لمن أراد السلام، ومقاومة لمن سوّلت له نفسه التطاول والعدوان.

هكذا نمت وترعرعت اليقظة الإسلامية وخرجت الأُمة عن طوق غفلتها، وأخذت تستعيد حياتها، تنظر بعين اليقظة والالتفات لما يُحاك ضدها.

ملامح اليقظة الإسلامية في فلسطين:

كانت المشاعر الإسلامية قبل ظهور المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى

برئاسة الحاج أمين الحسيني عام ١٩٢٢ قوية جداً إلّا أنّها فردية غير منظمة، ولم تكن ذات منهج واضح، ولكن مع ذلك تفجرت عنها ثورة موسى النبي في القدس (أبريل ١٩٢٠) وثورة يافا (أيار ١٩٢١) وبعدها انتفاضة البراق (آب ١٩٢٩)، ثم ظهرت هيئات شعبية منظمة أبرزها جمعية الشبان المسلمين التي كان لها دورٌ في الحفاظ على مبادئ الإسلام وبث الوعي الإسلامي، وهكذا ظهرت الحركات الإسلامية واحدة بعد الأخرى، أنشطها: حركة عزّ الدين القسّام عام (١٩٣٦ – ١٩٣٩) التي عُرفت بمنظمة الجهاد المقدس، وأخذت اليقظة الإسلامية تتسع نقطتها وتشارك في معارك تحرير القدس مثل معركة باب الخليل والقسطل، والحي القديم في القدس، والقطمون[٥].

وفي عام (١٩٥٧) نشأت حركة فتح ولها جذورها الإسلامية، وبرز الوعي الإسلامي والوطني وتجلّى أكثر، بعد كارثة حزيران (١٩٦٧)، حين تراجع التيار القومي شيئاً ما خصوصاً في فلسطين، وعند ذلك أصبح الاتجاه الإسلامي من أقوى الاتجاهات على الساحة الفلسطينية.

وفي عام (١٩٨٠) برزت الظاهرة الإسلامية بعد إنشاء حركة الجهاد الإسلامي برئاسة الشهيد فتحي الشقاقي؛ «**إذ جاءت لتعبّر عن الإسلام كمنطق، والجهاد كوسيلة، وفلسطين كهدفٍ للتحرير**»[٦].

واكتملت اليقظة الإسلامية عندما ظهرت بشكلٍ رسمي حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، معتبرة الإسلام منهجاً منه تستمدّ أفكاره، ومنه تسترشد خطاها[٧].

وهكذا انتشر الوعي الإسلامي حتى أصبحت الانتفاضة أحد الخيارات لحسم قضية القدس، ولم يغب شعر فلسطين في هذه المراحل؛ «**لأنّ الشعراء في كُلّ أمة هم عنوان حياتها ومقياس رقيّها، ومتى صرفوا مواهبهم في خدمة الأُمة وتخليد مجدها، أصبحوا عنوان عزّها ومطلع سعدها**»[٨].

ومن منطلق الإحساس بالمسؤولية حمل بعض شعراء القدس في سورية ولبنان وفلسطين نداء اليقظة الإسلامية؛ ليحقّقوا آمال شعوبهم وطموحها، ومن هنا جاء صوت الشاعر السوري بدوي الجبل في قصيدته (من وحي الهزيمة) أواخر الستينات، وهو واحد من الأصوات المنكوبة المذهولة، ليحدثنا عن هول ما رأى وعظيم ما جرى، عن زلزال النكسة الذي هزّ المشاعر، ومزّق الخواطر، فبدأ القصيدة بتحليل الأسباب التي أدّت إلى هزيمة العرب والمسلمين ونكستهم المذلة، حيث حمّل الشاعر المسؤولية بالدرجة الأُولى لبعض القادة الذين تخاذلوا فأماتوا بذلك جيوشهم وشعورهم حين يقول:

... القادة الكبارُ فروا وبكى للفرار جيشٌ جسورُ[٩]

وهو الأمر الذي عرّضهم لنقد الشعراء للاذع، وبسبب مواقفهم البعيدة عن الحكمة والحنكة، يقول شاعرنا بدوي الجبل مخاطباً أبطال المعركة آنذاك:

هدّك الذعرُ لا الحديدُ ولا النارُ وعِبْءٌ على الوغى المذعورُ[١٠]

وفي نظر الشاعر، فإنّ هذا التخاذل هو الذي أدّى إلى ضياع قدسنا الإسلامي، وقد نال كرامة الإنسان المسلم ما نالها من خزي وعار. قصيدته هذه تشبه قصيدة نزار قباني (هوامش على دفتر النكسة)، إلّا أنّها أقلّ حدّة وذات طابع ديني وإسلامي أكثر، حين نرى أنّ الشاعر (بدوي) بعد ما بيّن بعض أسباب الهزيمة توجّه للمسلمين لينعي لهم ضياع القدس؛ ولذا بدأ بـ (هل) التساؤلية، ثم استعمل (أين) كذلك بهدف إيقاظ المسلمين لتدارك الأمر، مذكراً إياهم بماضيها العربي والإسلامي وتلاوة القرآن فيها؛ إذ يقول:

هل درت عدنُ أنّ مسجدها الأقـ ـصى مكانٌ من أهله مهجورُ
أين مسرى البراق والقدس والمهدُ وبيتٌ مقدّسٌ معمورُ؟
لم يُرتّل قرآنُ أحمد فيه ويزار المبكى ويُتلى الزبورُ

طُويَ المصحفُ الكريمُ وراحت تتشاكى آياته والسطورُ[11]

بعد التساؤلات التي طرحها الشاعر أخبر المسلمين بما آل إليه قدسهم، واستحضر تاريخ القدس وما كانت عليه، فعمد إلى بيان الواقع الذليل الذي حاق بالمقدسات الإسلامية، فقد ضيّع الفتح الإسلامي وما قُدّم في سبيله من تضحيات جسام، فالإسلام حريّ بعد تلك النكسة أنْ يُناح عليه وأنْ يُبكى، ولِمَ لا تلبس مكة السواد حداداً على ما آلت إليه الأُمور من ذلّة وانعدام كرامةٍ، وفي كلّ هذا تقريعٌ للأُمة وللذين ورّطوها بهذه الورطة البغيضة:

يا لذلّ الإسلام لا الجمعة الزهـ ـراء نُعمى ولا الأذان جهيرُ
كلّ دنيا للمسلمين مناجاتٌ وويلٌ لأهلها وثبورُ
لبست مكّة السواد وأبكت مشهد المرتضى ودُكّ الطورُ[12]

وهكذا يستمرّ الشاعر في لومه وتقريعه ليعممه على كلّ مَنْ آمن بالله ربّاً فيرى الضياع شاملاً وعامّاً، والمصيبة طامة كبرى شملت المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء، فهو يرى الصهيونية لا تفرّق بين مسلم وغيره؛ لأنهما سواء في هذا المصاف، وفي هذا الأسر، ويتشاطر الأسير غصص الأسير، ويشدّ كلّ منهما أزر الآخر. لقد راح الشاعر يستنهض القيم السماوية التي يؤمن بها كل منهما والتي ترفض لهما أنْ يغفلا عن نصرة القدس، وتقديم العون لها، ومن هذه القيم الغيرة على الأوطان والمقدسات، قائلاً:

أين آي الإنجيل؟ فاحَ من الإنجيل عطرٌ وضوّى الكون نورُ
أين «روما»؟ وجلّ حَبْرٌ بروما مهدُ عيسى يشكو ويشكو البخورُ
النصارى والمسلمون أُسارى وحبيبٌ إلى الأسيرِ الأسيرُ
صلبَ الروحَ مرتين الطواغيتُ جراحٌ كما يضوع العبيرُ
يا لذلّ الإسلام والقدس نهبٌ هتِكت أرضُه فأينَ الغيورُ[13]

ثمّ يرى الشاعر بأنّ محنة القدس لا تعالج بالتأوّه والندب والعويل، بل لا بد من معالجة الفكر وما تحويه صدور المسلمين وإصلاحها.

لا تشقّ الجيوبُ في محنةِ القدس ولكنّها .... الصدورُ[١٤]

ومن الحلول التي يقدّمها بدوي الجبل بعد هزيمة (١٩٦٧)؛ لكي لا تتكرّر المأسات، هو أنْ يكون للشعوب دورٌ في القضايا المصيرية؛ إذ هذا بحد ذاته يقلّل من طمع الطامعين في القدس وفلسطين، فيقول مخاطباً حكام الدول الإسلامية آنذاك:

ارجعوا للشعوب يا حاكميها لن يفيد التهويل والتغرير
صارحوها... فقد تبدلت الدنيا بعد الأُمور أُمورُ[١٥]

لقد حاول الشاعر خلال قصيدته الطويلة هذه ـ ١٥٥ بيتاً ـ وباستخدامه أسلوب الإنشاء، وكثرة استعمال صيغة الاستفهام «أين»، ونبرة الحزن والتوجّع أن يلفت الانتباه إلى أبعاد القضية المعددة.

بُليت البشرية في تاريخها الممتد المتمادي بعدّة نكبات، بالتتار والمغول تارة، وبالصهيونية تارةً أخرى، حيث لم يرحم كلّ منها بشرا، بل ولا شجراً، ولم يقف عند أيّ حدود، يسارعون في إبادة الحرث والنسل، متجاهلين المعالم الحضارية والدينية، كما فعل العدو الصهيوني عندما أحرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩؛ لذلك نجد الشاعر الفلسطيني كمال عبد الرحيم رشيد يشير إلى فداحة ذلك الخطب في قصيدته، متعجّباً من جرأة الصهاينة على الله وعلى عباده ومقدساته، محاولاً إيقاظ المسلمين والمتدينين، واستفزاز شعورهم الديني ضد المعتدين، الذين بادروا إلى تدمير وحرق المقدسات الإسلامية والمسيحية بل الإنسانية قائلاً:

جلّ المصابُ وزادت الآلام وعدت على أرض الهدى الأقوام
يا ثالث الحرمين حرقك نكبة فيها يزيد الجرح والإيلام[١٦]

ثمّ يقول في القصيدة نفسها:

أسفى على الأقصى وقد عبثت به نارُ العدو وقد علاه قتامُ
أسفى على الإسلام تنزف جرحه والمسلمون عن الجهاد نيامُ
لم يغضبوا لله غضبة مؤمن رأوا العدو بأرضهم وتعاموا
ما قيمة الدمع الهتون أصوغه شعراً وشعبي للهوان يسامُ
في كُلّ أرض من ديار محمد ذلّ يُرادُ وفرقة وخصامُ[١٧]

تعكس أبيات الشاعر هذه حالته النفسية، وألمه الشديد للوضع القائم في القدس والنيران الملتهبة فيه وفي قلبه. فالشاعر أعطى صورة واضحة، لا مغالاة فيها لوضع المسلمين والتقاعس الذي حلّ بهم، فالقصيدة مع بساطتها وسهولة مفرداتها عميقة وذات معنى كبير لما فيها من تصوير لأثر نكبة حريق المسجد الأقصى، وما تحمل من نداءٍ لإيقاظ الوجدان الإسلامي وتجنّب البكاء والعويل؛ لأنّه لا يجدي.

ولمّا أعلن المؤتمر الإسلامي في قمته بأنّ هذا العام هو عام القدس، نظم هارون هاشم رشيد قصيدته الساخرة، وهو يتهكم ويهزأ بالمؤتمرين؛ إذ يرى الشاعر أنّ استمرار احتلال القدس هو نتيجة لتقاعس الأُمة الإسلامية عن القيام بواجبها ووظيفتها الإسلامية والإنسانية والاكتفاء بالمؤتمرات التي لا تتعدّى الإدانة والبيانات الجوفاء أحياناً، وسرعان ما تنسى القدس، ولعلّ هذه الحالة المزرية للمسلمين وبعض قادتهم هي التي جرّأت الصهاينة على الاستمرار بالتمادي في الأذية والعدوان، يقول هارون هاشم رشيد:

وقيل: عام القدس
هذا العام..
اتخذ القرار في اجتماعه
مؤتمر الإسلام

وصفّق الحُجّاب والخدام
وعاد كلّ واحد
لقصره ونام
وتركت مدينة القدس
تغوص في الظلام
تغرق في القتام
تدوسها سنابك
الغزاة بالأقدام
وتستبي تاريخها
وتزرع الألغام
وتنشر الدمار في أنحائها
والموت والحطام
وقيل عم القدس
هذا العام[١٨]

ثُمّ يلتفت هارون إلى الجانب الصهيوني الذي يغتنم الفرص للفتك بالشعب الفلسطيني والذي يكشف عن نواياه المبيتة للعرب والمسلمين حين عمد إلى إعلان القدس عاصمته الأبدية في نفس العام إمعاناً في غطرسته التي لا رادع لها من عرب ولا من مسلمين، يقول:

والجاني الآخر
من عدتنا الظلام
ماذا ترى حقق
هذا العام
قد هدّم البيوت

شرّد النساء
طارد الأيتام
مدّ على سماء القدس
أحقر الأعلام
هذه عاصمتي
على مدى الأيام[١٩]

ثمّ يعيد النظر للأُمة الإسلامية ويوجّه لها اللوم والعتاب قائلاً:

والأمة التي تجيد
في صلاتها السجود والقيام
الأمة التي فضّلها
الله على الأنام
ودان دينها الحنيف
الفصل والختام
مغرقة في صمتها
مشدودة اللجام
تكلست قلوبها
تحجّرت، أصابها الفصام[٢٠]

فيرى الشاعر أنّ التمسّك بروح الإسلام هو الدواء لعلاج الألم.

خاتمة البحث:

درس هذا البحث تجليات اليقظة الإسلامية في الشعر العربي المعاصر؛ وذلك لأنّ ظاهرة (اليقظة الإسلامية) قد برزت جلية جداً في الشعر الفلسطيني، ويمكن أن تذكر في هذا المجال الملاحظات الآتية:

١) مِمّا سبق يتضح الدور المهم الذي يؤدّيه شاعر اليقظة في توعية الشعوب وربطهم بتاريخهم وتراثهم؛ لاستلهام الدروس منه، وذلك خلق مستقبلاً زاهراً.

٢) أيضاً يتضح من خلال التتبع السابق لملاحظ شعر اليقظة وشعرائه أنّهم استلهموا أفكارهم من روّاد هذا الاتجاه أمثال السيّد جمال الدين الأسد آبادي، السيّد قطب، عبد الرحمن الكواكبي، الإمام الخميني، وهذا انعكس بشكلٍ واضحٍ في الشعر المعاصر، لا سيما الشعر الفلسطيني المقاوم.

٣) حاول شعراء روّاد اليقظة أنْ يلفتوا انتباه المجتمع الإسلامي والإنساني إلى أنّ تحرير فلسطين لا يمكن إلّا من خلال التمسّك بالثوابت الدينية والإسلامية أمثال الوقوف بوجه الظلمة، المقاومة، التضحية، الشهادة...

٤) استخدم شعراء اليقظة الكلمات ذات الإيقاع الديني، وأحياناً الكلمات المؤنّبة للوجدان، وذلك لإيقاظ المسلمين من سباتهم المهلك.

٥) استخدم الشاعر الخطاب الإنشائي، كثرة تكرار الأدوات الاستفهامية، توظيف القرآن الكريم والحديث الشريف.

٦) اعتمد أسلوب السخرية اللّاذع لبعض حكّام المسلمين لما قاموا به من مؤتمرات وقمم واجتماعات دون جدوى، والذي عرقل حركة الشعوب الواعية.

* * *

الهوامش:

(١) مرّت اليقظة الإسلامية في العصر الحديث بمراحل مختلفة وشائكة ابتداءاً من السيد جمال الدين

الأسد آبادي المعروف بالأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي في الشام، وأحمد ياسين في فلسطين، وثورة الإمام الخميني في إيران، التي لعبت دوراً كبيرا في توعية المسلمين، بل أتباع الديانات السماوية الأخرى ضدّ المؤامرات الاستعمارية المحاكة ضدهم؛ ولذا نرى في عصرنا الحاضر توجّه كل الاتجاهات: الإسلامية والوطنية، نحو التقارب والوحدة للوقوف أمام الشر المتربّص بهم، وهذا يبشّر بالخير والنصر.

(٢) أمثال: أبو سلمى، عبد الرحيم محمود، هارون هاشم رشيد، حسن البحيري، بدوي الجبل و... .

(٣) أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة ٤: ٩٩، نشر: دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٠١.

(٥) عارف العارف باشا، نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١: ٣٢٦، نشر: المكتبة العصرية، بيروت ١٩٥٢م.

(٦) مجلة الوسط، ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٥م.

(٧) المكتب الإعلامي، بيانات الحركة، ووثائق حركة المقاومة الإسلامية حماس: ٦، ١٩٩١م.

(٨) علاء الدين، وحيد، شعراء اليقظة الإسلامية في بداية القرن العشرين: ٨٧، نشر: دار سنابل، ١٩٩٥م.

(٩) بدوي الجبل، الديوان: ١٩٣، نشر: دار العودة، بيروت ١٩٧٨.

(١٠) المصدر نفسه: ١٩٢.

(١١) المصدر نفسه: ١٩٣ – ١٩٥.

(١٢) المصدر نفسه: ١٩٥.

(١٣) المصدر نفسه: ١٩٦.

(١٤) المصدر نفسه: ١٩٧.

(١٥) المصدر نفسه: ٢٠٦.

(١٦) كمال عبد الرحيم رشيد، ديوان شذو الغرباء: ٣٢، نشر: مؤسسة الجمعية العلمية للطباعة والنشر، عمان ١٩٨٣م.

(١٧) المصدر نفسه: ٣٤.

(١٨) هارون هاشم رشيد، مفكرة عاشق: ١٨ نشر: المطابع الموحدة ١٩٨٠م.

(١٩) المصدر نفسه: ١٩.

(٢٠) المصدر نفسه: ٢٢.

الوعي

في القرآن الكريم

□ الشّيْخ عبد الجليل مشموشي (*)

تمهيد

بمرور الأيّام، وتتابع الأحداث، وكثرة التّجارب التي يخوضها الإنسان في حياته العامّة والخاصّة، تراه ساعياً في التأمّل والتدبّر أكثر فأكثر، لا سيّما في الكتاب الكريم، والدستور القويم، والفرقان، الذي قال عنه أمير المؤمنينعليه السلام: «..وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تكشف الظّلمات إلّا به»[1].

ولأنّ القرآن كاشف للظلمات، فقد طرح فيه واحدة من المسائل المهمّة التي قد نظر إليها الرحمن، في كتابه القرآن، وهي بناء الشخصيّة الإنسانيّة المؤمنة من خلال مبحث الوعي.

ولأجل أهميّة هذه المسألة سأعقد لها بحثًا، أتطرّق فيه إلى نقاطٍ محوريّة وتفصيلات جوهريّة في بيان المعالم الركائزيّة، في بناء مداميك الشخصيّة الإنسانيّة التي توفّر له الصراط المستقيم، للوصول إلى الهدف الأسمى في سعيه

(*) باحث إسلامي/ لبنان.

نحو الكمال المطلق.

والمحاور التي سأسعى لمعالجتها هي على الشكل الآتي:

المحور الأوّل: تعريف الوعي لغةً واصطلاحاً

الوعي لغةً هو: «وعي: الوَعْيُ: حِفْظُ القلبِ الشيءَ. وعَى الشيءَ والحديث يَعِيه وَعْياً، وأَوْعاه: حَفِظَهن، وفَهِمَه، وقَبِلَه، فهو واع...»[٢].

والوعي اصطلاحاً هو: «وعى: الوَعْيُ: حفظ الحديث ونحوه. يقال: وَعَيْتُه في نفسه. قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [٣].

والإِيعَاءُ: حفظ الأمتعة في الوِعَاءِ. قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [٤].

وقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾[٥]. ولا وَعْيَ عن كذا: أي، لا تماسك للنّفس دونه، ومنه: مالي عنه وَعْيٌ. أي: بُدّ. ووَعَى الجرحُ يَعِي وَعْياً: جَمَعَ المِدّةَ، ووَعَى العظمُ: اشتدّ وجمع القوّةَ، والوَاعِيَة: الصّارخة، وسمعت وَعْيَ القومِ. أي: صراخهم...» [٦].

«ما يضمرون، ويجمعون في صدورهم من التكذيب. وهو الحفظ، ومنه الوعيّ بالتشديد الحافظ الكيّس الفقيه العالم...»[٧].

وعليه، فإنّ الوعي، والوعاء، والوعيّ، ويوعون، والإيعاء، وغيرها من التعابير والألفاظ لها معنىً واحد، وهو الحفظ القلبيّ الذي يتأصّل في الشخصيّة التي تحمله، يعني لا تماسك للنّفس دونه، ولا بُدّ له من فهمه، ومن ثمّ يقبل عليه ويقبلُه بكلّ تشخصّاته، وعند ذلك تراه متلمِّحاً بملامح الوعي.

المحور الثاني: الدليل الفرآنيّ، والروائي على المراد

قال في محكم التّنزيل: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[٨]، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾[٩]. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ

كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١٠].

قال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج الشريف: «... **يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ إِنّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَك**...»[١١].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**لَمّا نَزَلَتْ ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ' : هِيَ أُذُنُكَ يَا عَلِيّ**»[١٢].

ومن حِكَمِهِ عليه السلام: «**خير القلوب أوعاها**»[١٣].

ومن كلام له عليه السلام لابنه محمّد بن الحنفيّة، قال: «...**الْمَوْعِظَة كَهْفٌ لِمَنْ وَعَاهَا**...»[١٤].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «...**وَلَوْ وَجَدْنَا أَوْعِيَةً أَوْ مُسْتَرَاحاً لَقُلْنَا**...»[١٥].

و عن النبيّ ' : «**لَا يُعَذِّبُ الله قَلْباً وَعَى الْقُرْآن**»[١٦].

هذا غيضٌ من فيض النبيّ المصطفى ' وآله عليهم السلام، مما أغدقوا علينا من التّعاليم الّتي لو استقمنا عليها لأنزل الله علينا بركاتٍ من السماء والأرض.

المحور الثالث: دور الوعي في بناء النظم الإنسانيّة

بعدما تمّ استعراض الآيات والروايات، نسعى لمحاكاة ظواهر هذه الأدلّة، حتّى نستنتج منها النظم القويمة في رسم المعالم اللّامعة في شخصيّة الإنسان.

قال في كتابه الكريم: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ ولا يخفى عليك أنّ لفظ «واعية» قد ورد مرّةً واحدةً بصيغة الصفة في هذه الآية فقط.

ثمّ إنّ السياق في الآيات يواجه فرعون الذي عصى أمر ربّه فغوى، ثمّ ترى السياق القرآنيّ ينتقل ليخاطب الناس جميعاً ويحذّرهم الآخرة؛ وأنّ الآخرة واقعةٌ لا محالة ويحصل التوصيف الدقيق لما يجوز عليه كلّ إنسان بما قد سعى فيه في الحياة الدنيا.

ومن غير الخفيّ على أولي النهى أنّ جعل هذه الآية وغيرها من الآيات تذكرةً للبشريّة جمعاء، ولكن هل يكفي أن تجعل تذكرة؟

كيف، ولا بُدّ من أن تعيها أذنٌ واعية. هذه الأذن هي نفس الإنسان وعقله وقلبه؛ لأنّ من يعي في واقع الأمر هو العقل، والنفس، والروح، وليس الأذن. والشواهد على هذا البيان كثيرةٌ في كتاب الرحمن، فقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[17] شاهدٌ واضحٌ على أنّ التدبّر والوعي مسكنه ومحلّه القلب والنفس، وليس الأذن وغيرها من الجوارح إلّا أداة في إيصال الأوامر إلى محلّها.

وقوله: ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[18].

وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[19].

في هاتين الآيتين ترى التنبيه واضحاً من قبل الله على ضرورة الوعي، والتفكّر، وكذلك يذكّر بالتعقل، وأهمّيّته، ومدى تأثيره على الشخصيّة الإنسانيّة.

فالآية الأولى قد أتت في سياق الجهاد، والجزء الأوّل منها قد تكلّم عن المحرّمات التي تفسد الإنسان، وتفتك به.

والآية الثانية سياقها يحكي عن جزاء المسرفين، وأنّ الجزاء لهم هو الهلاك، وتخاطبُ الناس بأنّ اللّامبالاة بالقرآن يؤدّي إلى أن يقصم الله تلك المجتمعات، ولو بعد حين.

وكذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾[20]، فإنّه يدلّ على أنّ محطّ نظر الباري عزّ وجل هو مقدار وعي هذا الإنسان، وكيفيّة تصرفه في الأمانة التي اؤتمن عليها لبرهةٍ من الزّمن؛ وذلك لأنّه نظر في علمه إلى الوعي، وأنّهم بقدر ما يوعون يكون حسابهم، إيجابيّاً، أو سلبيّاً، وهذا غير مهمّ في المقام، وما له أهميّة قصوى هو أنّ الوعي قد جعل من قِبَلِه مركزاً، وميزاناً، وقسطاساً مستقيماً، عليه

المعوّل، وبه يعرف المأمول. ثم في هذه الآية تلميح واضح إلى أنّ الوعي قد يكون إيجابيّاً، وسلبيّاً.

وعليه، إذا كان الوعي ذا أهميّة عضويّة في فهم الأمور وترسيخها في القلوب، فكيف هو دور الوعي في بناء النظم الإنسانيّة؟

إنّ الوعي يُعتبر مقوّماً ضروريّاً في تهيئة وتأهيل الإنسان في عمليّة البناء، فالإنسان منذ ما قبل وصوله إلى عالم الدنيا تبدأ شخصيّته بالتشكّل بصورةٍ متطوّرةٍ، ومبرمجة.

ويُشكّل الوعي قطب الرحى في صناعة الإنسان، فهو الزاد الصحيح، وأريج العمل، ورحيق معرفة الأهداف التي من أجلها قد خلق الخلق، وصنعت الصنائع.

فكيف بك إذا كنت حائزاً على تلك الأذن التي تعطيك الطريق لإيصال الوعي إلى القلب، ولم تستخدم الأذن في غير ما خُلقت من أجله، فإذا أردت أن تكون وعيويّاً في كلّ آنات وجودك ولحظات حياتك الدنيويّة، وكذلك الأخرويّة، عليك باتّباع الخطوات السليمة للوصول إلى النتيجة القويمة، وإليك هذه الخطوات:

الخطوة الأولى: المعرفة.

الخطوة الثانية: التعرف على المصادر المعرفيّة.

الخطوة الثالثة: وضوح الهدف.

وسيأتيك مزيدٌ من الخطوات في المحاور القادمة، والتي قد تكون مطلوبة الحصول قبل هذه الخطوات؛ لأنّ المعرفة تحتاج إلى مقدّمات فطريّة، أو غير فطريّة للوصول إلى هاتيك الخطوات!

ولكن إنّ أدلّ دليلٍ وأعظم برهان على أهميّة الوعي في بناء النظم الإنسانيّة هو قول الإمام علي عليه السلام: «**رحم الله امرءاً عرف من أين وفي أين وإلى أين**»[٢١].

من هذا الكلام المنسوب للأمير عليه السلام نستفيد كلّ الضوابط المطلوبة بأقصر وأبلغ كلامٍ عرف من أحدٍ على الإطلاق، فهو عليه السلام يشير إلى لبّ المطلب الوعيويّ في بناء النظم الإنسانيّة، وأنّ الإنسان بشكلٍ مطلقٍ يحتاج إلى المعرفة والوعي، والرحمة الإلهيّة تتنزّل عليه من لدن الباري عزّ اسمه ببركة المعرفة الحقيقيّة والحقّة للاتجاه الصحيح نحو الهدف المنشود الذي صرّح به عزّ وجلّ في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢٢]، أي: ليعرفوا أنّ الله هو الحقّ، والمطلوب الأقصى من الوجود مطلقاً، ومطلق الوجود أيضاً.

فقوله عليه السلام: «من أين» يعني فلسفة إيجاد الخلق، وأنّي كإنسان ما هو سبب وعلّة وحكمة وجودي وإيجادي في هذا العالم؟ وبعد معرفة من أوجدني، أنتقل لأعرف الصراط المستقيم، والطريق السليم، فقال عليه السلام: «وفي أين»، وهذا ضروريّ جدّاً؛ لأنّ الكثير من الناس قد يعرفون الموجِد بنوعٍ من المعرفة، ولكنّهم بعد التعلقات الدّنيويّة، والأشغال الماديّة، والعلائق الدونيّة، تراهم قد غرِقوا في بحر لجّيٍّ من السهوِ، والغفلة، والضياع، فترى الكثيرَ من البشر تائهين في عالم الناسوت غير ملتفتين إلى عالم اللّاهوت، فيسعى الإنسان سعيه في تلبية رغبات النفس الأمّارة، ويضيّع جُلّ عمره، إن لم نقل كلّه، في الغفلات والظلمات التي بعضها فوق بعض، دون أن يصحو، ثمّ ينجوَ، ثمّ يزرعَ نباتاً حسناً، ويسقيه ماءاً غدقاً فيصل إلى معرفة الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه في هذه الهنيهة من عمره الذي سيُسأل عنه، وأنّه كيف أمضاه، وكيف صرف واستخدم الأمانة الّتي عرضت عليه فحملها إنّه كان ظلوماً جهولاً!!!

وكيف كان، فإنّ معرفة «في أين» مهمّة جدّاً لما قلناه من أنّ الطريق هو المحدّد لنا سُبل الوصول، وإلّا، فمن دون الصراط لا نستطيع أن نتوجّه، ونبقى في ظلمات التعلقات، وهو صراطٌ واحدٌ مستقيم، بيِّن واضح، ناصعٌ قويم.

قوله عليه السلام: «وإلى أين»، في هذا الشقّ من الكلام يشير الإمام عليه السلام إلى أهميّة

الالتفات وبقوّة، للهدف الذي يسير بخطى حثيثة نحوه كلّ النوع البشريّ دون استثناءٍ لأحد.

ولأجل معرفة الهدف الصحيح والواضح الذي لا يحجبه شيء، لا بدّ من الوعي بكلّ أشكاله؛ لأنّ الوعي ـ كما قلنا سابقاً ـ هو الدعامة المتينة في إرساء الراسيات التي توفّر للإنسان الرؤى المشعّة لطريق الوصول إلى الأهداف التي من أجلها خلق الإنسان.

وخلاصة الكلام في هذا المقام: ينبغي على أهل الإيمان التّبصر إلى قول الرحمن، وإلى قول وليّ العلّام المنان، بأنّ الإنسان سائر دون هوادة من منطلق وفي طريق، وإلى هدفٍ واضحٍ كالشمس في رائعة النهار، وما يحتاجه هو الوعي لمنزلقات هذه الدنيّة.

المحور الرابع: تأثير الوعي على شخصيّة الإنسان مطلقاً

الوعي هو قطب الرحى، والمؤثّر الأساس في فبركة الشخصيّة الإنسانيّة، فالله قد جعل الميزان والقسطاس المستقيم في التدبّر والتّفكر، فترى الآيات الكريمة مشعّةً بالأنوار التي تتكلّم عن أهمّيّة ودور التفكّر والتدّبر في بناء البنيان المتين، فقال عزّ من قائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٢٣].

والآية واضحة في الدلالة على أهميّة التدبّر في القرآن حتّى يصلوا إلى شاطئ الأمان، والفوز بالجنّة والرضوان، والخلوص من براثن الشيطان. والتدبّر والوعي لا يختلفان، بل هما شيء واحد في لفظين، فالوعي هو التدبّر، والتدبّر هو الوعي؛ لأنّ كلًّا منهما يقتضي الآخر.

وإن أمكن التفريق بينهما بوجهٍ، فإنّ الوعي أعمّ من التدبّر وأشمل، فيسع عناصر أخرى مثل التأمل والتفكّر، وغيرهما.

وكذا الآيات التي تتحدّث عن العقل، وأهميّة التعقّل، والدعوى إلى الفهم

والتعقّل في كلّ خطوات الإنسان.

قال عزّ وجل: ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢٤].

وقال أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢٥].

ومن المعلوم أنّ للعقل معاني عديدة، ومنها ما هو بمعنى القوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة «عَقْلٌ»، وورد في الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا ينفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

وأصل العقل هو الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعِقَال، وعَقْل الدواء البطن، وعَقَلَتِ المرأة شعرها، و عَقَلَ لسانه: كفّه، ومنه قيل للحصن: مَعْقِلٌ، وجمعه مَعَاقِل.

وباعتبار عقل البعير قيل: عَقَلْتُ المقتول: أعطيت ديته، وقيل: أصله أن تعقل الإبل بفناء وليّ الدّم، وقيل: بل بعقل الدم أن يسفك، ثم سمّيت الدية بأيّ شيء كان عَقْلاً، وسمّي الملتزمون له عاقلة[٢٦].

والروايات الشريفة ناطقة بثقل الميزان من خلال التفكر، والدراية في الحديث والرواية، فلا ينفع إنسان عبادته، بل إنّ التفكر أفضل وأغنى، وإليك ما يدلّ على هذا الكلام:

روى الشيخ الكلينيّ رحمه الله في كتابه الشريف أربع روايات تحت عنوان «باب التّفكّر»، أذكر منها روايةً صحيحةً كافيةً في الدلالة على المراد:

مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى، عَنْ مُعَمَّرِ بْنِ خَلَّادٍ قَالَ: «**سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام يَقُولُ: لَيْسَ الْعِبَادَةُ كَثْرَةَ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ؛ إِنَّمَا**

الْعِبَادَة، التّفَكّرُ فِي أَمْرِ الله عَزّ وَجلّ »[٢٧].

فالتّفكّر هو الأصل في نجاح الإنسان في كلّ مهامه، ومنها بناء شخصيّته، فدون التفكّر لا قيمة لأيّ عمل، وإن كان هذا العمل قد شرّع من قبل الله عزّ وجلّ، فالصلاة التي هي عامود الدين، وإن قبلت قبل ما سواها، وإن ردّت ردّ ما سواها، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، قد تكون خاليةً من أيّ مضمون إذا لم يعتبر التفكّر في لبّها. وكذا الصوم الذي من خلاله يهذّب الإنسان نفسه ويروّضها، كي تأتي آمنةً يوم الفزع الأكبر، لا يفيد إلّا إذا دخل التفكّر كعنصرٍ مهمٍّ في بنيانه.

نعم، هنا التفكّر في أمر خاصّ، وهو التفكر في صفات الباري عزّ وجل، ولكنّ هذا لا يعني أبداً أنّا لا نفكّر في باقي أمورنا، فإنّ التفكّر في صفاته عزّ وجلّ من أعظم وأخطر الأمور، فكيف بالأدنى منها، لا بدّ من التفكّر فيها، بالأولويّة الواضحة.

والوعي والتفكّر يمثلان المؤثّر العضويّ في شخصيّة الإنسان، فترى البون شاسعاً بين إنسانٍ وظّف كلّ طاقاته في إدراك ووعي مسألةٍ ما، يسعى لكي يبلورها بِكلّ أطرها الممكنة، وترى في الطرف المقابل إنساناً عجولاً، خاضعاً للمصداق الإلهيّ، وأنّ الإنسان خُلق من عَجَلٍ، فيقدم على الأمور بسرعةٍ وتهوّرٍ، ولا يكلّف نفسه عناء التمهل حتّى يجوجل أفكاره في الموضوع الذي يريد أن يقوم به.

فيطالعك بعض الناس، يدّعي أنّه ملتهب الفكر في إصلاح الأمّة، والجماعة، فتراه هدّاماً، فتّاكاً في الركائز البنيويّة لهذا المجتمع أو ذاك.

تشاهده يدوّن ما يخطر على باله دون أيّ وعيٍ، أو تفكّر، أو تدبّر، أو تعقلٍ فيما يقدم عليه، فلا يطرح على نفسه أيّ استفهام كبيراً كان أم صغيراً، فهل طرح على نفسه أنّه لماذا أكتب اليوم، وأسطّر في صفحة أعمالي هذا البحث؟ وهل

يوجد هدف من وراء الكتابة؟ أم شهوة تحرّكت، فما استطاع أن يعقلها، فعقلته، وأردته قتيلاً، أيّ قتيلٍ، وأيّ مأزقٍ قد أوقع نفسه فيه؟!

سُحقاً لقوّةٍ لا تعتمد على التفكّر والوعي، وبئساً لفكرٍ متهوّرٍ سريع الاتّهام والحكم على الأشخاص، وجعلهم أصحاب بدع، وخرافات، دون أيّة أدلّة واضحةٍ وناهضةٍ على المراد، فيا لك من إنسانٍ لا تنظر بعين الوعي لتصرّفاتك.

ونعم، وألف نعمٍ للوعي الذي يشدّ عضد الإنسان للفوز بالدارين، وأُفٍّ وألف أفٍّ لفكرٍ يشبه كلّ شيءٍ إلّا الفكر، فارجع البصر كرّةً، ثم ارجعه، ستحسبه ماءاً وهو سراب بقيعة، وستجد الله عزّ وجل عنده، فيوفيّك حسابك.

وفي المقابل سترى هؤلاء العظام الذين بنوا شخصياتهم على الوعي، والتدبّر، والتفكّر، فلا ترى الواحد منهم إلّا ويجعل عنقه كالزرافة قبل أن ينطق بحرفٍ أو لفظٍ في أيّ موضوعٍ، لا يحيد عن القرآن والكتاب قيد أنملةٍ، وهو خاضع للضوابط التي قد رسمها بكلّ تفاصيلها المعصوم عليه السلام، فهذا أمير المؤمنين، وسيّد الموحّدين، ويعسوب الدين، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «**لكلّ مقامٍ مقال**»[٢٨].

يعني علينا عندما نريد أن نبوح بكلامٍ ما، أن نتدارسه، ونتعقّله بِكلّ أبعاده، ولا نتسابق في سرعة الكلام، وكثرته، وغزارته، ولكن دون أيّ مضمون يحتسب، وأيّ فائدةٍ ترتجى، فهكذا يكون الإنسان قد أُعطي النجدين، إمّا أن يعيَ، وإمّا أن يجهل ويغرق في غياهب السواد القاتم، واللّيل الظالم، وعمى القلب، وفقدان المسير، وضياع السبيل.

الوعي وكتمان السرّ

ومن العوامل الأساسيّة في إبراز الوعي، وإظهار أهميّته في كتمان السرّ، فصاحب السرّ صاحب الوعي؛ لأنّ كتمان السرّ من الأمور الشاقة والصعبة،

والّتي قد أكدّت عليه كلمات الله عزّ وجل، ونبيّه وأهل بيت العصمة عليهم السلام جميعاً، وإليك إشارة إلى ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾[٣٠].

فقد ذُكِرَ السرّ في الكتاب في مواضعَ منها هذين الموضعين، والمراد منه:

إمّا الحديث المكتوم في النفس، وإمّا ما أسررته من القول إلى غيرك، ولم ترفع صوتك به، والمراد من المقام هو علمه عز وجل بالسرّ، وقد أخفاه[٣١].

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَار**»[٣٢].

ومن الشعر الخاصّ بالإمام الرضا عليه السلام في السرّ قَالَ عليه السلام:

وَإِنِّي لَأَنْسَى السِّرّ كَيْلا أُذِيعَه ... فَيَا مَنْ رَأَى سِرّاً يُصَانُ بأَنْ يُنْسَى

مَخَافَةَ أَنْ يَجْرِيَ ببَالِي ذِكْرُه ... فَيَنْبُذَه قَلْبي إلى مُلْتَوَى الْحَشَى

فَيُوشِكُ مَنْ لَمْ يُفْشِ سِرّاً وَجَالَ ... فِي خوَاطِرِهِ أَنْ لَا يُطِيقَ لَه حَبْسًا

وقال الأمير عليه السلام: «**جُمِعَ خَيْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي كِتْمَانِ السِّرِّ، وَمُصَادَقَةِ الْأَخْيَارِ، وَجُمِعَ الشرّ فِي الْإِذَاعَةِ وَمُؤَاخَاةِ الْأَشْرَار**»[٣٣].

في هذا وذاك بيان واضح لأهمّيّة السرّوكتمانه، فبكتمان السرّ تنال الدنيا والآخرة، وبإفشاء السرّ ينال الشرّ ويخسر الدّنيا والآخرة، ولكي يكون الإنسان المؤمن من أصحاب الكتمان للسرّ عليه أن يمتلك الوعي الذي يوفّر له سبل وطرق الكتمان.

وكتمانه معروف، ولا يحتاج إلى إيضاح، فكتمانك للسرّ فيه نجاتك ومن معك، وأن تكتم السرّ؛ يعني أن تخفي الأمر في نفسك، ولا تخبره لأحدٍ على الإطلاق.

ولا يخفى على أهل الوعي مدى أهميّة كتمان السرّ في نجاح كلّ الأعمال دون

استثناء، فمن يكتم سرّه ينجو ويكسب الدنيا والآخرة بخيراتها، والدليل على هذا: ما قاله الأمير عليه السلام في كلامه عن «تحصين الأسرار»، أي جعلها محصّنةً من أن يباح بها، بل يجب التشديد في كتمانها وكما ترى في عبارته عليه السلام فقد بنى الظفر على الحزم، والحزم على الرأي، والرأي على تحصين الأسرار، فحفظ السرّ هو الظفر بعينه، فتدبّر فإنّه من أمير البيان عليه السلام.

وعلى كلّ حال، الأمثلة تملأ الآفاق في بيان أهميّة الوعي، وتشتّت وفراغ من لا وعيَ له، وضياع من لا تدبّر عنده.

المحور الخامس: ارتكاز الشخصيّة المؤمنة على الوعي

نعم، قد ألمع القرآن، والكتاب الكريم ـ بالتصريح والتلميح ـ إلى الثوابت الخاصّة والعامّة في بناء الإنسان، ولا سيّما الإنسان المؤمن، والمسلم، فإنّ الدين عند الله هو الإسلام. والقرآن، والسنّة النبويّة الشريفة، والعترة الطاهرة قد أطّروا لنا المعالم الناصعة، في كيفيّة بناء الشخصيّة المؤمنة، وذلك من خلال الوعي، وسيأتي تفصيله في المحور السادس.

لكنّ المؤمن يتحمّل المزيد من الشروط والمواصفات، فهو مكلّف بتكاليف عديدة، وبعضهم يحتاج إلى الصبر والتحمل حتّى يحصل على المراد.

مواصفات المؤمن

١ـ الوعي.

٢ـ التدبّر.

٣ـ الرحمة.

٤ـ الأخوّة.

٥ـ الدعوة.

٦ـ الإنذار.

إلى غير ذلك من المواصفات والشروط التي قد نستقصيها من الكتاب والسنّة.

فالوعي قد خوطب به المؤمن، وإنّ الأذن الواعية هي النفس والقلب، والعقل، وهو من أهمّ عوامل المؤمن، فالمؤمن دون القلب والعقل، لا يصل إلى هدفه الأساسيّ، وهو الوراثة في الأرض.

والتدبّر لا شكّ في أنّه مركزيّ في بنيانه، فكيف لمؤمنٍ أن يقرأ دستوره دون أن يتدبّر فيه وفي معانيه، ودون أن يعيها، ويزرعها، حتّى يسقيها من ماء الولاية.

والأخوّة تشكّل المعصم في نجاح المؤمن، والقضيّة الإيمانيّة، فالمؤمنون هم بنيان مرصوص، هكذا وصفهم ربّهم في كتابه، فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٣٤].

وهل يكونون كذلك دون الأخوّة فيما بينهم؟ وإن كانت الأخوّة مقسّمة إلى قسمين:

١ـ إخوان الثقة.

٢ـ إخوان المكاشرة.

وبأي قسمٍ أخذنا علينا أن نعلم جليّاً أنّ البنيان المرصوص، لا يمكن أن يتراصف وتبدو معالمه إلّا بالأخوّة الحقيقيّة، التي قد نراها مضمرة ولكن سيأتي الوقت الذي تتهيكل فيه تلك الأخوّة مع الموعود عجل الله فرجه.

ويدلّ على هذا الكلام ـ بل هو الدليل عليه ـ كلام الأمير عليه السلام في بعض درره، فقد ورد أنّه: «**قَامَ رَجُلٌ بِالْبَصْرَةِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنَا عَنِ الْإِخْوَانِ! فَقَالَ عليه السلام: الْإِخْوَانُ صِنْفَانِ: إِخْوَانُ الثِّقَةِ، وَإِخْوَانُ الْمُكَاشَرَةِ. فَأَمَّا إِخْوَانُ الثِّقَةِ، فَهُمُ الْكَفّ، وَالْجَنَاحُ، وَالْأَهْلُ، وَالمالُ، فَإِذَا كُنْتَ مِنْ أَخِيكَ عَلَى حَدِّ الثِّقَةِ؛ فَابْذُلْ لَه مَالَكَ وَبَدَنَكَ وَصَافِ مَنْ صَافَاه، وَعَادِ مَنْ**

عَادَاه، وَاكْتُمْ سِرّه وَعَيْبَه، وَأَظْهِرْ مِنْه الْحُسَنَ، وَاعْلَمْ أَيّهَا السّائِلُ أَنّهمْ أَقَلّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ. وَأَمّا إِخْوَانُ الْمُكَاشَرَةِ، فَإِنّكَ تُصِيبُ لَذّتَكَ مِنْهمْ، فَلَا تَقْطَعَنّ ذَلِكَ مِنْهمْ وَلَا تَطْلُبَنّ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ ضَمِيرِهِمْ، وَابْذُلْ لَهمْ مَا بَذَلُوا لَكَ مِنْ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَحَلَاوَةِ اللّسَان»[٣٥].

والرحمة كذلك، فهم رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وهم كزرعٍ أخرج شطأه، فاستغلظ، فأعجب الزرّاع نباته؛ لأنّه نبات حسن، وهذا الحسن يغيظ الكفّار، وهو وعد من الله عزّ وجل لمن كان مع محمّد ' ، فالمعيّة تقتضي منّا الكثير، كالوعي، والتدبّر والرحمة.

والدعوة من أهمّ عوامل تبلور وتجوهر الشخصيّة المؤمنة، فلا انفكاك بين كلّ المواصفات التي تقدّمت وهذه السمة؛ فإنّ النبيّ الخاتم ' يدعو إلى الله عزّ وجلّ، ويسرج الطريق للبشريّة أجمع، وينير درب الوجودات كلّها إلى المحطّة المنشودة، والساحة الموعودة، ساحة القدس الإلهيّ، والربّ الكريم.

وكذا من كان مع الرسول ' عليه أن يجهّز ويعدّ نفسه ليكون من أصحاب الدعوة إلى الهدف، ولكن الدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، وليس بالتهجّم، والتهكّم، وتجهيل الآخرين، والزهو بالنفس ومدحها، بل هذا العمل هو على نقيض مع من هو مع النبي ' .

والإنذار يدخل في الشخصيّة المؤمنة وبنائها، وكيف لا يكون الإنذار كذلك، وهو أهمّ عوامل تربية وتهذيب النفس، وتعنونها بالعناوين الإسلاميّة الأصيلة، وهذا النبيّ ' شاهد حقٍّ على ذلك؛ فإنّ من صفاته الإنذار، فهو بشير ونذير، وهو من أنذر عشيرته الأقربين، فكيف بمن معه من المؤمنين. فينبغي على المؤمنين أن يتحصّنوا بما قد تمّت الإشارة إليه في هذا المحور، فهي عناصر قرآنيّة وروائيّة في بناء الشخصيّة المحمّديّة فاغتنم.

تحصيل الوعي الذاتيّ

إنّ من أهمّ الأمور في هذا الطّرح هو كيفيّة تحصيل الوعي، فبعدما تبيّنت أهميّته بنحوٍ ما، لا بدّ من معرفة السبل الموصلة إليه، وهذا بحث برأسه، ويحتاج إلى الكثير من التفصيل، ولكن نشير باقتضاب، فنقول:

هناك عوامل عديدة تتدخّل في تحصيل الوعي، ومن أهمّها ما يلي:

١ـ التنبّه إلى أهميّة الوعي: فالإنسان كما أنّه مفطور على هدايتين: هدايةٍ فطريّةٍ، وهدايةٍ اكتسابيّةٍ جزائيّة، فالوعي كذلك. فهو موجود في فطرة وعجينة الإنسان، ولكن عليه أن يطوّرها من خلال التنبّه إلى وجود عنصرٍ فعّالٍ في بنيته الداخليّة، وهو الوعي.

وعندما نقول: منبّهات فطريّة، بمعنى أنّ الإنسان يدرك في الغالب أخطاءه وضعفه، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[٣٦]، فهو بصيرٌ بعيوبه، ولو ألقى إليك أعذاراً كثيرة، وما أكثر الناس الذين يسارعون إلى إلقاء الأعذار ليبرّروا أعمالهم الخاسرة.

فالإنسان يدرك ويعي ويبصر عيوبه، فعندما ينطلق إلى الإقرار بالعيوب، والسّعي لمعالجتها، يكون قد سار في الطريق الصحيح لاكتساب الوعي.

٢ـ تشخيص مستوى الوعي: فقد قلنا قبل قليل: إنّ الإنسان بصيرٌ بنفسه وعيوبها، ومن هنا عليه أن يحدّد مستوى الوعي عنده؛ حتّى يستطيع من خلال ذلك أن يشخّص العلاج المناسب، والجرعة التي عليه أن يعالج بها نفسه، فلا يتسّرع في تحديد نوع النقص المبتلى به، ولا يتسرّع في إعطاء الكميّة غير الصحيحة في العلاج.

فمن خلال محاسبة النفس في فترة منتظمة، وفي أوقات الالتفات، يدرك الإنسان المؤمن مكمنَ نقصه، ويدرك أيضاً العلاج المطلوب لرفع الضعف

الذي يعاني منه، وهذا ما صرّح به أهل بيت العصمة عليهم السلام، وقد أوصوا الناس باتّباع المحاسبة للوصول السليم إلى الأهداف المرجوّة.

قال أبو عَبْدِ الله عليه السلام: «**إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَسْأَلَ رَبّه شَيْئاً إِلّا أَعْطَاه فَلْيَيْأَسْ مِنَ الناسِ كُلِّهِمْ وَلَا يَكُونُ لَه رَجَاءٌ إِلّا مِنْ عِنْدِ اللهّ عَزّ ذِكْرُه، فَإِذَا عَلِمَ الله عزّ وجلّ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِهِ لَمْ يَسْأَلْه شَيْئاً إِلّا أَعْطَاه؛ فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا عَلَيْهَا فَإِنّ لِلْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفاً كُلّ مَوْقِفٍ مِقْدَارُه أَلْفُ سَنَةٍ ثُمّ تَلَا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾**»[٣٧].

وعن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهّزُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ**»[٣٨].

إلى غير ذلك من الأحاديث الّتي تدلّ على أهميّة المحاسبة للنفس، للفوز في الدّنيا والآخرة وبمحاسبة النفس يتّضح لكلّ فردٍ مدى الوعي عنده.

٣ـ تقوية الحسّ الإدراكيّ: وتعريفه: «هو القدرة على توجيه الانتباه إلى أشياء معيّنةٍ بشكلٍ مركّزٍ» ويعتبر الإدراك عاملاً مهمّاً في الفعل الوعيويّ، وعلينا تحسين الأداء الإدراكيّ في شخصيّتنا، وهذه التحسين يحتاج إلى جهدٍ ووقت.

وتتمّ عمليّة تحسين الإدراك من خلال اتّباع المحسّنات التّالية:

أولاً: القراءة والكتابة: قال عزّ وجل في محكم كتابه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[٣٩]. إنّ الإنسان ليستطيع من خلال القراءة والكتابة أن يحسّن نسبة التركيز والإدراك عنده، والله عزّ وجل قد أمر بني البشر بالقراءة، ودعاهم إلى التعلّم بالقلم، حتّى يعلم الإنسان ما لم يعلم. وعلى الإنسان أن يحسن انتقاء المقروء، ولا يذرف طاقته فيما لا محصّل منه، وأن يختار لنفسه الكتابة المفيدة والهادفة، لا أن يستنزف كلّ وسعه في بيان مطالب لا فائدة مرجوّة منها.

ثانياً: التأمّل، فعندما يسعى الإنسان ليكون من أصحاب التأمّل والتفكّر،

فإنّه سيكسب الإدراك الصحيح والقويّ الذي يساعده على تحصيل الوعي، فالله عزّ وجل قد أمر الناس بالتعقّل والتدبّر، والنظر في آيات الأنفس والآفاق حتّى يعرفوا أنّه الحقّ. والتّأمل يعتبر في علم النفس الإسلاميّ من العوامل المنشّطة للإدراك، فأنت عندما تتأمّل في أمرٍ ما فإنّك تصبّ جام قدرتك وطاقتك على فبركة الموضوع الذي تتأمّل فيه، ومن خلال هذا العمل تستطيع أن تقوّي وترفع نسبة الإدراك عندك.

ثالثاً: المشاركة الاجتماعيّة، فالعمل الاجتماعيّ يعتبر ـ أيضاً ـ من العوامل المساعدة على تحسين الإدراك، والحسّ الإدراكي، فمن الخوض في معترك العمل الاجتماعيّ يصل الإنسان إلى خبراتٍ عظيمة، يصعب تحصيلها من عوامل أخرى، فإنّ كلّ عاملٍ من العوامل يحسّن الإدراك من جهته، والعمل الاجتماعيّ يوصل الفرد إلى اكتساب الكثير من التجارب المفيدة له وللمحيط الذي يعيش فيه. إلى غير ذلك من العوامل المساعدة على تحسين الإدراك.

وبتحسين الإدراك يصل الإنسان إلى مراحل متقدّمةٍ من الوعي الذي يخوّله القرب من مستوى وراثة الأرض وعمارتها وإمامتها، كما وُعِدَ الإنسان المؤمن، وهذا ما سنستعرضه في المحور السادس والأخير.

المحور السادس: الوعي بنيان تقْوَويّ للفوز والوراثة

يُعتبر هذا المحور من خلاصات البناء، فالوعي يفضي إلى أنّ الإنسان المؤمن الموعود من قبل الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم في الكثير والعديد من الآيات، بأنّه الوارث، وأنّه المجعول إماماً، بعد أن كان مستضعفاً في الأرض، وسيرث كلّ الإرث، مع فارس الحجاز ﷺ[٤٠]، الذي تنتظره كلّ الموجودات قاطبةً، قال عزّ وجلّ في محكمه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[٤١]، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ

يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾، ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾[٤٢]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٤٣]. ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[٤٤].

بادئ ذي بدء لا بدّ من توضيح الاصطلاح في المقام، فالوراثة من مادة: «ورث»: والإِرْثُ: انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد. وسمّي بذلك المنتقل عن الميّت، فيقال للقنيةِ المَوْرُوثَةِ: مِيرَاثٌ وإِرْثٌ. وتُرَاثٌ أصله وُرَاثٌ فقلبت الواو ألفاً وتاءً، قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ...﴾[٤٥]. وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾[٤٦]. وقال: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾[٤٧]. وأَوْرَثَنِي الله كذا، قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[٤٨]. ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾[٤٩]. ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾[٥٠]. إلى غير ذلك من الآيات الدّالّة على معنى الإرث. والذي نريده من المعاني هو انتقال حكم الأرض من تسلّط الطغاة والبغاة، إلى الذين قد وعِدُوا من قبله عزّ وجل بأنّهم سيرثون الأرض، ويكونون الأئمة للنّاس في الهداية، من بعد الاستضعاف.

وكيف كان، فإنّ الله عزّ وجلّ سيمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، والمنّ كما هو معروف قد يناسب ما ذهب إليه صاحب المفردات، ولكن لا يصحّ له الحصر. ومعنى الوراثة يتّسع ليشمل الوراثة التي تنتج عن العمل والكدّ، والسعي، فتراه تعالى يشكّل صورةً واضحة المعالم لمن يريد أن يرث الفردوس. فمن أرادها، فعليه أن يتأطّر بهذه الأطر، فيحافظ على الأمانات، والعهود فلا ينكثها لأقلّ تسويفٍ من نفسه، ولا يتعدّى على الأمانة، بسبب إغراء الشيطان له، بل يتمسّك بالعهد والوعد، والأمانة.

ثمّ يعقّبها بالذين يحافظون على صلواتهم، ذيك المواصفات تنتج حصر

الإرث بهم، ثمّ يرثون الفردوس، الخالدة لهم.

أقسام الوارثة

قد نستطيع من خلال الآيات الكريمة أن نقسّم الوراثة إلى أقسام، منها:

١ـ وراثة ماديّة.

٢ـ وراثة معنويّة.

٣ـ وراثة دنيويّة.

٤ـ وراثة أخرويّة.

إلى غير ذلك من الأقسام التي قد تختلف بالحيثيّات التي يعتبرها المعتبر، وبناءاً على ما تقدّم نخلص إلى أنّ معنى الوراثة هي فعل انتقال لأيقونة وغيرها من يد إلى أخرى، ومن دوْلةٍ إلى دولةٍ أخرى، فلا يختصّ المعنى بالمنّة فقط، بل يشمل المحافظة على الأمانة والعهد والصلوات.

العلاقة الجدليّة بين الوعي والوراثة

لا ريب في أنّ العلاقة التي تجمع الوعي مع الوراثة علاقة جدليّة ونمطيّة، لدرجةٍ لا يمكن معها الانفكاك بين الركنين المركزيّين في عملية البناء الأنفسيّ، والشخصويّ التي تتبلور تباعاً في مدىً منظورٍ من التشكّل.

فالوعي الذي هو الحفظ المتين والمستقيم، في قرارٍ مكين، وهو النفس التي من خلالها يحافظ على ما يحفظه إيجاباً أو سلباً.

والوراثة التي هي الانتقال المِنّيّ، والانتقال الجزائيّ، لا يمكن من خلال كلّ ما ذُكر أن نتصوّر إنساناً ما يرث الوراثة الحقيقيّة التي توصله إلى حكم الأرض، وإمامتها، والسيطرة والتحكم بقدراتٍ هائلةٍ من البسط، والاتّساع، حتّى يصير مَعلماً من معالم الحكومة الإلهيّة دون أن يحوز على الوعي بأعلى درجاته.

كيف؟! والوراثة تحتاج إلى الصبر والمرابطة على ثغور تلي إبليس، فيدافع عن نفسه وعن النفوس المؤمنة، وعليه أن يصبرَ صبرَ قابضٍ على جمرة، فلا بدّ له من وعي يجعله مدركاً واستراتيجيّاً في بناء شخصيّته الفكريّة، والجسديّة، والمعنويّة. فلا ينتظر ـ مثلاً ـ أن يكسب المعركة مع العدو الماثل بإبليس في فترةٍ وجيزة، بل عليه أن يعلم علماً وعيويّاً أنّه سوف يخوض في بحر لجّيّ سحيقٍ، وعميقٍ في صراعه معه، وهكذا في سائر المصاعب الأخرى التي سوف يواجهها في مسيرته الطويلة.

وكما أنّ الوراثة تحتاج إلى وعي كاملٍ، فكذا الوعي يحتاج إلى الوراثة، فلا بدّ للإنسان في صنعه لشخصيّته، وشخصيّة الآخرين، من إرثٍ يرثه، فيكون هو الزاد في العمل البنّاء للأرضيّة البنيويّة، فكيف لك أن تبدأ برسم المعالم دون أيّ إرث فكريٍّ يقونن لك تلك الخطوات، وينظّم لك تلك المراحل في أثناء البناء.

فهل تستطيع أن تسير على صراطٍ مستقيمٍ دون السراج المضيء، والنور المبين، والعلم الرائع، والبشارة التي تهديك إلى أين المسير؟!

نعم، لا شكّ أنّ الجواب سيكون هو النفي، فلا يمكن لأحدٍ أن يدّعي أنّه قادر وحده على السلوك والفوز بالفردوس والإمامة دون أن يكون له أسوة حسنة، ودستور يرجع إليه، مكتوب، وناطق بالحقّ، صادح بالصدق.

كيف؟! والنبيّ ' ، قد بُعِثَ رحمةً للعالمين، وسراجاً وهاجاً، في ظلمات بعضها من بعض، وقد أورث من بعده وصيّه عليه السلام وأولاده عليهم السلام، ينهجون نهجه ويسيرون بالوجود إلى برّ الخلود، ويأخذون بأوعية خيرها أوعاها، ويسرجون لكلّ موجودٍ صراطاً واحداً، لا متعدّداً، يخْطُونه بلمح البصر، أو أسرع من ذلك.

ومن هنا، يتّضح كيف أنّ البناء المؤسّس على التقوى والوعي، لا ريب أنّه وارث للأرض، وحاكم مع الحاكم الموعود، والعهد المعهود، وسيرث من بعد

ذلك الفردوس وما فيها، ومن فيها.

صفات الوارث

بعد بيان معنى الوراثة، والعلاقة الجدليّة بين الوراثة، والوعي، لا بأس بالإشارة إلى بعض المواصفات الخاصّة بالوارث، ومن تلك المواصفات القرآنيّة:

١ـ الاستضعاف في الأرض.

٢ـ الإيمان.

٣ـ صفة العبد.

٤ـ صفة الصّلاح.

٥ـ العابد.

٦ـ الحافظ للأمانة.

٧ـ الحافظ للعهد.

ومن المعلوم في محلّه أنّ المراد من الاستضعاف، هو الإنسان الذي قد اعتدي عليه، وسلب حقّه، كما كان الحال مع القوم الذين عايشوا فرعون، حيث استضعفهم، وجعلهم شِيعاً، فمنّ الله عليهم بأن أغرق فرعون ومن معه، وهذه صفة غالبيّة. ففي غالبيّة الأحيان ترى المؤمنين مستضعفين في الأرض، وإن كانت لديهم سلطة؛ حيث إنّ الفساد أعمّ وأشمل، كما هو مشاهد بالوجدان.

ولكن هذا لا يعني أنّ الوارث عليه أن يتّصف بها، ويسعى لكسبها، بل عليه أن يتّصف بمواصفات المؤمن القويّ.

وأمّا صفة الإيمان فلا بدّ منها، وأن يعقد الإنسان قلبه على التوحيد، ومعرفة ربّه ونبوّة أنبيائه عليهم السلام، وإمامة الأئمة عليهم السلام المنصوبين من قبله.

وتحصيل ذلك يحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ لكي يعقد قلبه وقالبه على الإيمان، فلا يكفي أن يتلفّظ بها حتّى نَصِفَه بصفة الإيمان، وهذا فيه بحث مفصّل يضيق

المقام به.

وصفة العبد، والعابد، من الصفات الأساسيّة التي قد يعمل الإنسان المؤمن على الترقيّ في سلّم المراتب ليصل إلى درجة العبد، والعابد. فهذا العابد، هو الذي يمشي على الأرض هوناً وإذا خاطبه الجاهل قال سلاماً، ومقابله من يريد أن يخرق الأرض، ويبلغ الجبال طولاً.

ومن المواصفات المهمّة والمؤثّرة بقوّةٍ على شخصيّة الوارث، والواعي، هي حفظ العهد وأداء الأمانة، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**لَا تَغْتَرّوا بِصَلَاتِهِمْ، وَلَا بِصِيَامِهِمْ؛ فَإِنّ الرّجُلَ رُبّمَا لَهِجَ بِالصّلَاةِ وَالصّوْمِ حَتّى لَوْ تَرَكَه اسْتَوْحَشَ، وَلَكِنِ اخْتَبِرُوهمْ عِنْدَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ**»(51).

فصدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، والصلاح، من الصفات التي إن تخلّق بها الإنسان، فإنّه سيرث الأرض والفردوس؛ لأنّ المؤمن بعمله إمّا أن يظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت يداه، وإمّا أن يظهر القسط والعدل بما كسبت يداه أيضاً، فهو المؤثّر الحقيقيّ في عمران الأرض، أو فسادها.

إلى هنا، قد تبيّن أنّ الوراث له مواصفات ينبغي عليه أن يتخلّقها؛ حتّى يرث الأرض ويكون إماماً للناس، ووارثاً للفردوس.

خلاصة واستنتاج

قد تبيّن لك بواضح الكلام أنّ الوعي هو الحفظ الشديد في ركنٍ عتيد، وهو النفس، وأنّ الوعي قد نصّ عليه الرحمن في كتابه القرآن، وصدح الحقّ بالحقّ المبين أنّ الإنسان يحتاج إلى الوعي الكامل المتين، لكي يصير ويسير إلى الفردوس والنعيم، وأنّ الوعي يحتاج إلى الوراثة، والوراثة تحتاج إلى الوعي وبذلك الأمر يستبين.

وبناءاً عليه، فلا يذهب عليك ما يحصل في هذه الأيّام من الاستعجال في طرح الآراء المليئة بالشبهات الواضحة، وكيف أنّك ترى المصاديق منتشرة

انتشار النار في الهشيم، فترى أحدهم تحضره فكرة ما، فيسارع إلى كتابتها ونشرها دون أيّ تأمل في العواقب، والأهداف والنتائج.

عجباً، من إنسان لا يقرأ، فيعي، ويفهم، ويتدبّر في الدستور الإلهيّ، والسنّة النبويّة المليئة بالقوانين، التي تجعل كلّ إنسانٍ يتمتّع بفكرٍ خلّاق، ونبّاض بالحياة الصحيحة.

على كلّ حال، ومن دون إطالة، أخلص ـ في ختام هذا البحث الذي قد يطول الكلام فيه ولكن أردت الاختصار في المقام ـ إلى أنّ الوعي العمليّ لا بدّ منه في نجاح الإنسان ولاسيّما المؤمن.

والوعي يقتضي أن نعرف، ونتدبّر ونتأمل، ونتفكّر بما نقوله، وبما نكتبه، وبما نخطّط له فلا يصحّ أن نقول كلّ شيء، في كلّ وقت، وفي كلّ مقام. ولا يصحّ أن نتّهم الآخرين، بكلّ رحابة صدرٍ وأُنسٍ بذلك، ثمّ نقول: نحن أصحاب فكر، وقلم، فنكتب ما يخطر في البال، وعلى كلّ منوال.

الوعي القرآنيّ، أساس النجاح الإنسانيّ في كلّ المراحل، وعلى كلّ الصّعد، والإنسان المؤمن معنيّ بذلك أكثر وأشدّ من غيره؛ لأنّه مسؤول عن وراثة الأرض، وموعود بمُظْهِرٍ للعدل، وحاكمٍ إلهيّ، فكيف لا نسعى لأن نكون من أصحاب الوعي العمليّ، والفكر المهدويّ والصناعة الحقيقيّة للاستراتيجيّة الصحيحة التي تتكوّن بالأذن الواعية.

والحمد لله أوّلًا وآخراً، والصلاة على نبيّه وآله دائماً، أبداً.

* * *

الهوامش:

(١) شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحرانيّ،ج:١، خ:١٧، ص:٣٨٨، ط: نشر: دار الثقلين.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١٥: ٣٩٧.

(٣) سورة الحاقة:١٢.

(٤) سورة المعارج:١٨.

(٥) سورة يوسف: ٧٦.

(٦) مفرادت الراغب الاصفهاني، ص:٨٧٧، ط:١.

(٧) مجمع البحرين، الطريحي،١: ٤٤٤.

(٨) سورة الحاقة: ١٢.

(٩) سورة الانشقاق: ٢٣.

(١٠) سورة يوسف: ٧٦.

(١١) نهج البلاغة، ٤٣٤، ط: ١، نشر: مؤسسة نهج البلاغة.

(١٢) الكافي، الكليني، ج:١،ص:٤٢٣، ط:٤. سند الحديث: أَحْمَدُ بْنُ مِهْرَانَ عَنْ عَبْدِ الْعَظِيمِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَالِمٍ. ملاحظة: السند ضعيف.

(١٣) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ج:٢٠، ص:٢٧٢، نشر: اسماعيليان.

(١٤) من لا يحضره الفقيه، ج:٤، ص:٣٩١، ط:٢.

(١٥) الكافي، ج:١، ص: ٢٢٩؛ سند ومتن الحديث: عَلِيّ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ، عَنِ الْقَاسِمِ ابْنِ الرَّبِيعِ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ الصَّيْرَفِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُصْعَبٍ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ عِلْمِ مَا أُوتِينَا تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامَه وَعِلْمَ تَغْيِيرِ الزَّمَانِ وَحَدَثَانِهِ إِذَا أَرَادَ اللهّ بِقَوْمٍ خَيْراً أَسْمَعَهمْ وَلَوْ أَسْمَعَ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ لَوَلّى مُعْرِضاً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْ ثُمّ أَمْسَكَ هنَيْئَةً ثُمّ قَالَ وَلَوْ وَجَدْنَا أَوْعِيَةً أَوْ مُسْتَرَاحاً لَقُلْنَا وَاللهّ الْمُسْتَعَانُ». وهو ضعيف على المشهور.

(١٦) الأمالي، الطوسي،ص:٧، ط:١. سند الحديث: الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الطّوسِيّ فِي الْأَمَالِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ الْأَنْبَارِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ رُشَيْدٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللهّ بْنِ لَهِيعَةَ عَنِ الْمِسْرَجِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمّارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهّ صلى الله عليه وآله وسلم: ...

(١٧) سورة محمّد: ٢٤.

(١٨) سورة البقرة:٢١٩.

(١٩)سورة الأنبياء:١٠.

(٢٠)سورة الانشقاق: ٢٣.

(٢١) راجع لهذا الأسفار الأربعة، ٨: ٣٥٥، ولم أعثر عليه في المجاميع الحديثيّة، فانتبه.

(٢٢)سورة الذرايات: ٥٦.

(٢٣)سورة محمّد: ٢٤.

(٢٤)سورة الرعد:٤.

(٢٥)سورة النّحل:١٢.

(٢٦) مفردات الرّاغب، ص:٥٧٨.

(٢٧) الكافي الشريف، محمد الكليني، ج:٢، ص: ٥٥، ط: ١.

(٢٨) عيون الحكم والمواعظ، ص:٤٠٢، ط:١.

(٢٩)سورة طه:٧.

(٣٠)سورة الملك: ١٣.

(٣١) راجع: الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص: ١٢٣، بتصرّف.

(٣٢) نهج البلاغة،ص: ٤١٤.

(٣٣) بحار الأنوار، ج٧١، ص١٧٨، ح١٧، نقلاً عن كتاب الاختصاص.

(٣٤)سورة الصّف:٤.

(٣٥) الكافي، ج:٢، ص: ٢٤٩. سند الحديث: عِدّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمّدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَعْقُوبَ عَنْ أَبِي مَرْيَمَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ:... ملاحظة: الخبر موثّق كالصّحيح.

(٣٦) سورة القيامة: ١٤و١٥

(٣٧) الكافي، ج:٨،ص:١٤٤. سند الحديث: عَلِيّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ وَعَلِيّ بْنُ مُحَمّدٍ جَمِيعاً، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمّدٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ الْمِنْقَرِيِّ، ... قَالَ :... السّند ضعيف.

(٣٨) وسائل الشيعة،ج:١٦،ص:٩،ط:١. سند الحديث: عَلِيّ بْنُ مُوسَى بْنِ طَاوُسٍ فِي كِتَابِ «مُحَاسَبَةِ النّفْسِ» قَالَ: رُوِّينَا فِي الْحَدِيثِ النّبَوِيِّ الْمَشْهورِ...

(٣٩) سورة العلق: ١و٤.

(٤٠) هو لقبٌ من ألقابه الشريفة، لاحظ في هذا: [حلية الأبرار، للسيّد هاشم البحراني، ج:٢، ص:١٧، ط:١].

(٤١) سورة القصص، ٥.

(٤٢) سورة الأنبياء: ١٠٥ـ١٠٦

(٤٣) سورة المؤمنون: ١٠ـ١١.

(٤٤) سورة الأعراف: ١٠٠.

(٤٥) سورة الفجر: ١٩.

(٤٦) سورة النمل:١٦.

(٤٧) سورة النساء:١٢.

(٤٨) سورة الشعراء: ٥٩.

(٤٩) سورة الدخان: ٢٨.

(٥٠) سورة الأحزاب: ٢٧.

(٥١) الكافي،ج:٢،ص:١٠٤. سند الحديث: عَنْه عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمّارٍ وَ غَيْرِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ:... الحديث موثّق.

سنة الاختلاف

لنعرف كيف نختلف

الأستاذ: حفيظ الرحمن الأعظمي (*)

الاختلاف سنة من السنن الكونية، وسنة من السنن التشريعية، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً. فهو سنّة كونية؛ لأنّ قدرة الله عز وجل شاءت أن يكون هذا الكون الرحب الفسيح بهذا الاختلاف؛ الذي يفضي إلى التنوع والتناغم والتناسق، ويُذْهِبُ الرب التفاوت والفُتُور.

فالكواكب والنجوم، والسماء والأرض، والجبال والسهول، والبحار والمحيطات، والرجال والنساء، كل ذلك مختلف من حيث الخِلْقة والخَلق، ومن حيث السلوك والحركة، ومن حيث العاطفة والوجدان.

وداخل كلّ نوع من هذه الأنواع نجد اختلافاً لا حصر له، يصل إلى اختلاف أجناس البشر ولغاتهم وألوانهم، وعاداتهم وتقاليدهم، يصل هذا الاختلاف إلى حد اختلاف التوائم المتماثلة، ولو كان هذا الاختلاف يسيراً.

(*) باحث أكاديمي، وناشط سياسي باكستاني.

وهذا يجعل للحياة طعماً ومذاقاً مختلفاً، فهذا الاختلاف والتنوع يثري الحياة، ويكسب المرء خبرة حيث حلّ وحيثما ارتحل، فلو أنّ الناس جميعاً خلقوا على صورة واحدة، والأماكن كلها على صورة واحدة من حيث طبيعة المكان والمناخ، وغير ذلك ما احتاج الإنسان أن ينتقل من مكانه الذي ولد فيه، ولسئم العيش من أوّل شهر أو أوّل عام أدرك الحياة؛ لأنّه لا يجد جديدا.

فلنتأمل في كتابه العزيز، مشاهد الاختلاف وأثره في وجدان الإنسان:

ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ـ ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

ألا ترى أنّ الله جعل الاختلاف آية لقوم يعقلون ويتقون، وآية لأولي الألباب العالمين؟!

الاختلاف نعمة

يمتن الله على عباده ـ ومأ أكثر منّه وفضله ـ أنّه جعل الليل يعقب النهار، والنهار يعقب الليل حتى لا يشعر الإنسان بالملل، وكلّ وقت له ما يناسبه من الأعمال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم

بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

وهو سنّة تشريعية أيضاً؛ فإنّ آيات القرآن، وهو المصدر الأول للتشريع والمعرفة عند المسلم؛ بعضها (وهو القليل من حيث عدد الآيات) قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وبعضها (وهو الكثير من حيث العدد) قطعي الثبوت ظني الدلالة، وإنْ كان الاختلاف في النوع الأوّل ضيّق وقليل؛ فإنّ الاختلاف في النوع الثاني واسع رحب، وهو الذي أعطى الشريعة مرونتها وصلاحيتها لكلّ زمان ومكان.

هذا عن المصدر الأوّل، فإذا نظرنا في المصدر الثاني وهو السنة، وجدنا أنّ الأمر فيه متسع جداً وأرحب، فالسنّة تأتي على أربعة أنواع:

١) قطعي الثبوت[١] قطعي الدلالة[٢].

٢) قطعي الثبوت ظني الدلالة[٣].

٣) ظني الثبوت[٤] قطعي الدلالة.

٤) ظني الثبوت قطعي الدلالة.

فإذا نظرنا إلى أدوات الاستنباط عن الفرقتين العظيمتين من المسلمين بتنوّعها واختلافها؛ فإنّ الدائرة تتسع وتتداح حتى تصل إلى بحر لا شاطئ له، وهذا هو الذي صنع العقلية الفقهية الناضجة التي اجتهد لعصرها، بل تجاوزتها واستشرفت المستقبل لتجتهد لعدّة قرون.

فإذا نظرنا إلى طبيعة المجتهدين، وكلّ منهم نتاج عصره وبيئته وثقافته وزمانه ومكانه، ونظراً لتغّير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال لاتّسع الأمر أكثر وأكثر..

ونستطيع أن نخرج بنتيجةٍ، وهي: أنّ الاختلاف حقيقة كونية وفريضة

شرعية، فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة أيقنّا أنّ الذين يتحدّثون عن زوال هذا الاختلاف واجتماع الناس على رأي واحد غير منصوص عليه بنصٍّ قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وهو الذي يمثّل ثوابت الإسلام وأركانه، كلامهم هذا يحتاج إلى نظر حيث يستحيل تطبيقه، وهو لم يحدث في خير القرون، ولا في عهد الصحابة الذين اختلفوا والرسول بينهم يتنزّل عليه الوحي.

فنحن لا ينبغي أنْ نقلق من هذا الاختلاف، سواء كان في أمور شرعية أم أمور حياتية، بل إنّنا ننادي أن يكون هذا الاختلاف منهج حياه يطبقه الزوج في بيته مع أولاده وزوجته، وتطبّقه المؤسسات على اختلافها وتنوّعها بداية من الأسرة، وهي مؤسّسة صغيرة حتى تصل إلى مؤسّسة الدولة أو مجموعة الدول أو العالم أجمع.

إنّ الرجل الذي يريد أن يحوّل زوجته وأولاده إلى نسخة مكرّرة منه؛ هو رجل فاشل في إدارته لأسرته، ورئيس العمل الذي لا يقبل من الناس إلا أنْ يفكروا كما يفكر هو، ويؤمّنوا على قوله وأفعاله دون اعتراض ولا تفكير؛ فسيقضي على مؤسسته بالضياع والانهيار، مهما كانت عبقريته ومهما كان فكره، وعلى هذا تقاس كل أمورنا.

فالله الذي خلق البشر، ويعلم مكنونات صدورهم وخبايا نفوسهم نبهنا على هذا الاختلاف؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

ويقول تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام].

ويقول سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والنبي ' وهو المعصوم، والمؤيّد بالوحي من السماء قد سمح لأصحابه أن يخالفوه في مواطن كثيرة[٥]، ودرّبهم على التشاور، وحثّهم على التفكير والإبداع والابتكار، ونزل عن رأيه إلى رأيهم في أكثر من موضوع[٦].

رابطة الأخوة

ويبقى شيء مهمّ.. فإذا كان الاختلاف حقيقة كونية، وضرورة شرعية؛ فلماذا يؤدّي إلى التناحر والتشرذم والتفرق والضعف؟؟!!

إنّ السبب الرئيس في هذه المسألة هو غياب آداب وأخلاق الاختلاف، فكلّ يقول: رأيي صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ لا يحتمل الصواب.

وأوّل آداب الاختلاف هي الأخوّة الإنسانية عامة، والإسلامية خاصة: وبغياب هذه الروح يتحوّل الاختلاف إلى نقمة تفرّق ولا تجمع، تهدم ولا تبني، تدمر ولا تعمر، ووجود هذه الروح سيضمن للجميع مسلمين وغير مسلمين، سنة وشيعة، إخوان وسلفيين، أن يتعايشوا في سلام ووئام.

نعم، هم مختلفون على مستوى الأصول كما هو بين المسلمين وغير المسلمين، أو على مستوى الفروع كما هو بين المسلمين وبعضهم، لكنّهم متعاونون فيما اتفقوا عليه، ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه.

كلّهم ينصت لقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويقفون عند قول الصادق المصدوق: «**كلّكم لآدم وآدم من تراب**...».

يقول الدكتور طه جابر العلواني في كتابه القيم (آداب الاختلاف): «إنّ من

أهم الواجبات أن يدرك الجميع أن أخوّة الإسلام، ووحدة صفوف المسلمين المخلصين والحفاظ عليها، ونبذ كل ما يسيء إليها أو يُضعف من عراها، فريضة من أهمّ الفرائض، وعبادة من أهمّ العبادات، وقربة من أفضل القربات. ولذلك فإنّ التفريط في الأخوة الإسلامية أو المساس بها لمجرد اختلاف في الرأي أمر لا يجوز لمسلم أن يقع فيه، أو أن يسقط في شراكه.. إنّ الأخوّة في الله ووحدة القلوب بين المسلمين تحتلّ المراتب الأُولى للواجبات، بل هي في مقدّمتها؛ لأنّها شقيقة التوحيد وقرينته، كما أن هناك مراتب للمنهيّات يقع النيل من الأخوّة في مقدمتها كذلك؛ ولذلك فإنّ علماء السلف كثيراً ما يفعلون المفضول ويتركون الأفضل منه مراعاة للائتلاف وخروجاً من الخلاف، وقد يتركون المندوب، في نظرهم، ويفعلون الجائز تحقيقاً لذلك».

والأمثلة على ذلك في كلمات العلماء من جميع الفرق فوق حدّ الإحصاء، ولا يتحمّل نقله هذا المقال المختصر.

غاية الحقّ

ثاني هذه الآداب: الإخلاص والتجرّد.. وقد كان الإمام الشافعي يقول: «كنت أناظر الرجل وأدعو الله أن يظهر الحق على لسانه»، فغايته كانت ظهور الحق سواء كان على لسانه أو لسان غيره، فليس لديه رأي مسبق، ولكنه يتحاور ويناقش للوصول للحق، وليس التمادي في الباطل، حتى لو ظهر له بطلان رأيه وصواب رأي المخالف.

ثالث هذه الآداب: الحوار بالحسنى؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

يقول بعض الفضلاء: «نجد تفرقة في التعبير بين المطلوب في الموعظة والمطلوب في الجدال، ففي الموعظة اكتفى بأن تكون حسنة، أمّا في الجدال فلم

يرضَ إلّا أن يكون بالتي هي أحسن، بمعنى أنّه إذا كان هناك أسلوبان، أو طريقتان إحداهما حسنة، والأخرى أحسن منها وأفضل، فالمأمور به أن نتبع التي هي أحسن. وسر ذلك: أنّ الموعظة ترجع ـ عادة ـ إلى الموافقين الملتزمين بالمبدأ والفكرة، فهم لا يحتاجون إلّا إلى موعظة تذكّرهم، وترقّق قلوبهم وتجلو صدأهم، وتقوي عزائمهم، على حين يُوجّه الجدال ـ عادة ـ إلى المخالفين، الذين قد يدفع الخلاف معهم إلى شيء من القسوة في التعبير، أو الخشونة في التعامل، أو العنف في الجدل، فكان من الحكمة أن يطلب القرآن اتخاذ أحسن الطرائق وأمثلها للجدال أو الحوار، حتى يؤتي أكله».

ولهذا استخدم القرآن في مخاطبة اليهود والنصارى تعبيراً له إيحاؤه ودلالته في التقريب بينهم وبين المسلمين، وهو تعبير (أهل الكتاب) أو (الذين أوتوا الكتاب) ولهذا جاء في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].. حتى المشركون الوثنيّون لم يخاطبهم القرآن بقوله: (يأيها المشركون) بل كان يناديهم بقوله: (يا أيّها الناس).

ولم يرد في القرآن خطاب للمشركين بعنوان الشرك أو الكفر، إلا في سورة (الكافرون) وذلك لمناسبة خاصّة هي قطع الأمل عند المشركين أن يتنازل المسلمون عن أساس عقيدتهم، وهو التوحيد.

رابع هذه الآداب: التركيز على نقاط الالتقاء، ومواضع الاتفاق بينك وبين من تحاوره.

يقول القرضاوي في سالف زمانه: «وهذا أسلوب قرآني يجب أن نتعرّف عليه، فهو يقول في حوار أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ثمّ يتابع، فيقول: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾. ومثل ذلك قوله في سورة أخرى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ [البقرة: ١٣٩].

فإذا كان هذا موقف المسلم ممن يجادله من أهل الكتاب الذين يخالفونه في عقيدته، وأصل دينه، ولا يؤمنون بأنّ محمّداً رسول الله، ولا أنّ القرآن كتاب الله، ولا أنّ الإسلام شريعة الله، فكيف ينبغي أن يكون موقفه من أخيه المسلم الذي يؤمن بكلّ ما يؤمن به من عقيدة وشريعة، ورسول وكتاب؟!».

سماحة التحاور

خامس هذه الآداب: عدم التشكيك في النوايا ومعاملة الناس بالظاهر، وترك القلوب لعلّام الغيوب؛ لأنّه إذا عاملنا الناس بالنوايا فلن نصل إلى شيء، فلن نتحاور مع غير المسلمين؛ لأنّهم يضمرون لنا العداوة والبغضاء، حتى لو أظهروا المودّة والمحبة، وحتى لو اتضح فيهم الحياد والموضوعيّة، ولن نتحاور مع الشيعة؛ لأنّهم يأخذون بمبدأ التقيّة، وقس على ذلك كلّ اختلاف يحدث لو دخلنا في التفتيش في النوايا والبحث عنها ما استطعنا أن نقدّم شيئاً.

والنبي ' تعامل مع المنافقين الذين نزل فيهم قرآن يتلى إلى يومنا هذا، وفضحهم الله عنده وسماهم بأسمائهم وكشفهم للنبي ' بطريقة لا تقبل الشكّ، وعلى الرغم من هذا كلّه عاملهم النبي بالظاهر، وترك بواطنهم لعلام السرائر.

هذه بعض أسباب وآداب الاختلاف، لا أحسبني أتيت عليها جميعاً، لكنّي ركّزت على المهمّ منها من وجهة نظري، فالموضوع طويل ويحتاج إلى كتابات ممتدّة.

* * *

الهوامش:

(١) وهو الثابت بطريق قطعي لا يقبل الشكّ، والقرآن كلّه قطعي الثبوت حيث ورد كلّه بالتواتر، وتعهد الله بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أمّا السنة ففيها قطعي الثبوت وهو المتواتر والصحيح، وفيها ظني الثبوت وهو الضعيف بأنواعه .

(٢) وهو الذي ورد بصيغة لا تقبل الاختلاف كالأنصبة في الميراث وغير ذلك.

(٣) وهو الذي يقبل الاختلاف حيث يحتمل اللفظ أكثر من معنى.

(٤) وهو المشكوك في صحته كالضعيف أو المظنون في ثبوته.

(٥) لا بدّ أنْ يكون المقصود من ذلك: المخالفة في الإطار المسموح به، على متسوى إبداء الرأي، وإلا فقد قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥]. التحرير.

(٦) هذا مبنيٌّ على ما ورد في بعض الأخبار، التي نوقشت في محلّها وثبت بطلانها، من قبيل تأبير النخل ونحوها. (التحرير).

قراءة في مفهوم الوحدة

من حيث التأصيل والتحديات المناهضة

(الشهيد الثاني نموذجاً)

□ الشّيْخ مصطفى ملص (*)

المفهوم:

الوحدة الإسلامية هي الحقيقة التي أراد الإسلام إثباتها لأتباعه عندما اختار لهم أن يكونوا أُمّة واحدة من دون بقية الناس، تجمعهم الكلمة المعبّرة عن عقيدتهم، وهي: شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله.

والاختلاف بين أبناء الأُمة الواحدة لا يجعل منهم أُمتين أو أكثر، مهما بلغ شأو هذا الخلاف. قد يحوّلهم ذلك إلى فئتين أو طائفتين، ولكن ضمن الكيان الواحد للأُمة، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المفهوم بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وجاءت الأحاديث النبوية المنقولة إلينا لتؤكد على وحدة الأُمة، وعلى

(*) محامي، وعضو تجمع العلماء المسلمين/ لبنان.

وجوب وضع حدٍّ لكلّ ما يمكن أنْ يُشكّل ظاهرة انقسامية حتى ولو كان الأمر على صعيد السياسة والإدارة، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»[1]. وفي ذلك دليل واضح على وجوب الحزم في التصدي لظاهرة الانقسام، ولو وصل الأمر إلى حدّ استعمال السيف أو العنف.

فخطاب المولى عز وجل لجماعة المسلمين بأنّهم أُمّة، ورابطهم هو الإيمان بالله ورسوله ولو اختلفت ألوانهم وأعراقهم وبلدانهم وألسنتهم، رسّخ في وعيهم وثقافتهم مفهوم الوحدة فيما بينهم، فلا تجد داعية من كلّ الدعاة الذي حملوا لواء الإسلام على مرّ الأزمان إلّا وهو يؤكّد على مبدأ الوحدة بين أبناء الأُمة، مع التباهي بأنّها ضمّت بين جناحيها كافة الأعراق منذ انطلاقتها، فدخل فيها الحبشي والرومي والفارسي والعربي، ولم يتوقّف تمدّد الإسلام بين الأعراق إلى يومنا هذا، إنّه الدين المنفتح على الناس جميعاً، إنّها الأُمة الأغنى تنوّعاً بشرياً.

إنّ الإسلام بما هو عقيدة وشريعة حاضنة إنسانية تعطي الناس حرّيّة التمايز بالخصوصيات الإنسانية، فلا يضيق عليهم في مجال من المجالات إلّا بالحدود التي تكفل صيانة العقيدة وعدم الاجتراء على الشريعة. وهذا يكفل اليسر في مسألة الوحدة بحيث لا يشعر أحدٌ ممن ينتسب إلى هذه الأُمة بالغربة فيها، بل يشعر بلذة الانتماء إليها والفخر بهذا الانتماء.

الشعار:

ليست الوحدة الإسلامية مجرّد مفهوم فقط، بل إنّها شعار يرفع لواءه كل من يتصدى للشأن العامّ في أُمتنا، وتكاد تجد إجماعاً على هذا الشعار، وإن كان البعض ممن لا ينكرون أحقية الشعار يمارسون نقيضه في أعمالهم وأقوالهم، ويبرّرون ذلك بأنهم يلتزمون القيود المحددة للإيمان بحسب ما يفهمون الإيمان ومقتضياته، وهذه القيود في معظمها مجرد فهم بشري للنصوص الشرعية ليس

إِلّا، وإذا عرضنا هذا الفهم على سيرة المصطفى ' نجد أنّه متناقض مع هذه السيرة، وما سلكه النبي ' مع الناس في زمنه: «**قولوا لا إله إِلّا الله تفلحوا**»[٢].

وهذا ما نسميه بالمنهج التكفيري، الذي تعاني منه أُمتنا اليوم أشد المعاناة. كما عانت منه في السابق، وما آل إليه مصير العالمين الكبيرين، أعني: الشهيدين محمد بن مكي الجزيني، وزين الدين الجبعي، إِلّا نتيجة لهذا المنهج التكفيري الذي أودى على مرّ التاريخ الإنساني بكثير من العلماء والدعاة والمصلحين.

الشهيد الثاني المثال الوحدوي:

من المعروف أنّ أهم أسباب تفرّق أبناء الأُمة هو الخلاف السياسي حول مسألة الحكم والخلافة، وقد كانت البداية منذ اجتماع السقيفة؛ سقيفة بني ساعدة، لاختيار خليفة لرسول الله ' ، لقد أسس ذلك الاجتماع لصراع ما زالت رحاه دائرة إلى اليوم، تثور مرّة وتخبو أخرى، ولكنّه موجود وأثاره ظاهرة إلى يومنا هذا؛ لأنّ كلّ ما تلاه إِنّما يعود إليه بشكلٍ من الأشكال.

وتطوّر الأمر بقيام معاوية بن أبي سفيان بنقض أُسس الخلافة الراشدة عندما حوّل الحكم إلى ملك عضوض كانت فاتحته تولية ابنه يزيد الحكم، وما نجم عن هذا الأمر من مسار مأساويّ كانت قمته باستشهاد الإِمام الحسين عليه السلام، ووقوع الشرخ الذي عمل الحكام والسلاطين على توسيعه وتأصيله على مرّ العصور. مما أوجد شريحة من المسلمين جعلت كلّ همّها هو نبذ الآخر من بين صفوف الأُمة.

ولكن وبما أنّ الأُمة واحدة بنصّ كتاب ربّها وسنة نبيها ' ، وبما قدّمه أهل البيت ^ من نموذج رائع لوحدة الأُمة وتمسكهم بها رغم الظلم الكبير الذي أصابهم على أيدي الحكام الظالمين، وذلك منذ الإمام علي عليه السلام واستمرار لذلك

في الأئمة من ذريته.

ولو سلك أئمة أهل البيت ^ سلوكاً آخر لانتهت وحدة الأُمة ولسقط مفهومها وشعارها؛ لذلك يعود إليهم الفضل في تكريس مفهوم الوحدة، وحدة المسلمين كأمّة لها مرجعية واحدة؛ كتاب الله وسنة نبيه محمد ' .

على خطى أئمة أهل البيت ^ سار الشهيد الثاني الشيخ زين الدين بن علي الجبعي.

ومن خلال ما اطلعنا عليه من سيرة هذا العالم الجليل أنّه أسّس على مفهوم الوحدة، وأنّ الدين واحد، وأنّ العلم مبثوث بين أبناء الملة على اختلاف مناهجهم ومدارسهم ومذاهبهم.

فبعد أن تلقّى أسس العلوم الشرعية على والده الشيخ علي الجبعي ارتحل بطلب العلم في ميس وكرك نوح، ثمّ عاد إلى جبع يشتغل بالعلم والمذاكرة حتى سنة ٩٣٧ هـ. ثم انتقل إلى دمشق، وهناك يقول: إنّه قرأ على المحقق الشيخ شمس الدين بن مكي كتب الطب والفلسفة والحكمة.

وقرأ على الشيخ أحمد بن جابر الشاطبية في علم القراءات، وقرأ القرآن بقراءة نافع وابن كثير وأبي عمر وعاصم.

ويخبرنا هو عن بعض جولاته في العالم الإسلامي قائلاً: «**ورحلتُ إلى مصر في أوّل سنة ٩٤٢ لتحصيل ما أمكنَ من العلوم، واجتمعتُ في تلك السفرة بجماعةٍ كثيرةٍ من الأفاضل، فأوّل اجتماعي بالشيخ شمس الدين ابن طولون الدمشقيّ الحنفيّ، وقرأتُ عليه جملةً من الصحيحين، وأجازني روايتَهما مع ما يجوز له روايته، في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.**

وكان وصولي إلى مصر يوم الجمعة منتصف شهر ربيع الآخر من السنة المتقدّمة، واشتغلتُ بها على جماعةٍ: منهم: الشيخ شهاب الدين أحمد الرملي الشافعي، قرأتُ عليه منهاج النووي في الفقه وأكثر مختصر الأُصول لابن

الحاجب وشرح العَضُدي مع مطالعة حواشيه، منها: السعديّة والشريفيّة. وسمعتُ عليه كتباً كثيرةً في الفنون العربية والعقلية وغيرهما.

فمنها: شرح التلخيص المختصر في المعاني والبيان لملا سعد الدين. ومنها: شرح تصريف العزّي.

ومنها: شرح الشيخ المذكور لورقات إمام الحرمين الجويني في أُصول الفقه.

ومنها: أذكار النووي وبعض شرح جمع الجوامع المحلّي في أُصول الفقه وتوضيح ابن هشام في النحو وغير ذلك ممّا يَطُول ذكره.

وأجازني إجازةً عامّةً بما يجوز له روايته سنة ٩٤٣.

ومنهم: المحسن الجُرجاني، قرأنا عليه جملةً من شرح التجريد للملا علي القوشجي مع حاشية ملا جلال الدين الدواني، وشرح أشكال التأسيس في الهندسة لقاضي زادة الرومي، وشرح الچغميني في الهيئة له.

ومنهم: الملا محمّد الاسترآبادي، قرأنا عليه جملة من المُطَوّل، مع حاشية السيّد الشريف والجامي في شرح الكافية.

ومنهم: الملا محمد الكيلاني، سمعنا عليه جملةً من المعاني والمنطق.

ومنهم: الشيخ شهاب الدين بن النجّار الحنبلي، قرأتُ عليه جميعَ شرح الشافية للجاربردي، وجميع شرح الخزرجية في العروض والقوافي للشيخ زكريا الأنصاريّ، وسمعتُ عليه كتباً كثيرة في الفنون والحديث، منها الصحيحان، وأجازني جميع ما قرأتُ وسمعتُ وما يجوز له روايته في السنة المذكورة.

ومنهم: الشيخ أبو الحسن البكريّ، سمعتُ عليه جملةً من الكتب في الفقه والتفسير وبعض شرحه على المنهاج.

ومنهم: الشيخ زين الدين الحري المالكي، قرأت عليه ألفية ابن مالك.

ومنهم: الشيخ المحقّق ناصر الدين اللّقاني المالكي محقّق الوقت وفاضل تلك البلدة، لم أَرَ في الديار المصريّة أفضل منه في العلوم العقليّة والعربيّة، سمعتُ عليه

البيضاوي في التفسير وغيره من الفنون.

ومنهم: الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعيّ، قرأتُ عليه القرآنَ بقراءة أبي عمرو ورسالةً في القراءات من تأليفاته.

ومنهم: الشيخ شمس الدين محمّد أبو النجا النحّاس، قرأتُ عليه الشاطبية في القراءات والقرآن العزيز للأئمّة السبعة، وشرعتُ ثانياً أقرأ عليه للعشرة، ولم أُكمل الختم بها.

ومنهم: الشيخ الفاضل الكامل عبد الحميد السمهودي، قرأت عليه جملةً صالحةً من الفنون وأجازني إجازةً عامّة.

ومنهم: الشيخ شمس الدين محمد بن عبد القادر الفرضي الشافعي، قرأت عليه كتباً كثيرة في الحساب الهوائي والمرشدة في حساب الهند الغباري والياسمينية وشرحها في علم الجبر والمقابلة وشرح المقنع في علم الجبر والمقابلة، وسمعتُ عليه بعضَ شرح الوسيلة و أجازني إجازةً عامّة. وسمعت بالبلد المذكور من جملة متكثّرة من المشايخ يطول الخطبُ بتفصيلهم.

ومنهم: الشيخ عميرة والشيخ شهاب الدين بن عبد الحقّ والشيخ شهاب الدين البلقيني والشيخ شمس الدين الديروطي وغيرهم. ثمّ ارتحلتُ من مصر إلى الحجاز الشريف سابعَ عَشَرَ شهر شوّال سنة ٩٤٣.

ورجعتُ إلى وطني الأوّل بعد قضاء الواجب من الحجّ والعُمرة والتمتّع بزيارة النبيّ وآله و أصحابه صلوات الله عليهم»[٣].

ثمّ بعد عودته إلى موطنه الأوّل سافر إلى العراق لزيارة الأئمة ^ ، وانتهى به المطاف في بيت المقدس؛ حيث يقول: «وسافرتُ لزيارة بيت المقدس منتصف ذي الحجّة سنة ٩٤٨، واجتمعتُ في تلك السفرة بالشيخ شمس الدين بن أبي اللطف المقدسي، وقرأتُ عليه بعضَ صحيح البخاري وبعض صحيح مسلم، وأجازني إجازةً عامّة»[٤].

إذن لم يكتفِ الشهيد الثاني بما تلقاه من علوم على يد علماء المذهب الإثني عشري، بل قصد علماء المذاهب الأُخرى في مختلف البلدان، من دمشق إلى مصر إلى الحجاز وبيت المقدس، وقرأ عليهم في مختلف العلوم، من علم القراءات إلى الفقه والسيرة والحديث وعلوم اللغة العربية والمنطق والرياضيات والفلسفة والهندسة والطب، ومن ثمّ اجتمعت له معرفة بهذه العلوم جميعها، وكان موسوعياً بحق.

وتبيّن من رحلته إلى اسطنبول في تركيا، حيث دار الخلافة، أنّه كان قد بلغ المرتبة العليا في طريق العلم والمعرفة؛ إذ ما إن عرف أصحاب القرار بسعة علمه حتى عرضوا عليه المناصب، فاختار أنْ يكون له مركز بعلبك في بلاد الشام، مركزاً ينشر فيه علمه؛ حيث لم يقتصر نشاطه على مذهب واحدٍ بل إنّه يقول: «**واتّفَق وصولُنا إلى البلاد مُنْتَصفَ شهرِ صفر سنة ٩٥٣... ثمّ أقمنا ببعلبك ودَرّسْنا فيها مدّةً في المذاهب الخمسة وكثيرٍ من الفنون، وصاحَبْنا أهلَها على اختلاف آرائهم أحسنَ صُحبةً، وعاشَرْناهم أحسنَ عِشْرة، وكانت أيّاماً ميمونةً وأوقاتاً بَهِجةً، ما رأى أصحابُنا في الأعصار مثلَها**»[٥].

لقد جسّد الشيخ الجبعي ـ كما رأينا ـ من خلال ما كتب الوحدة الإسلامية تجسيداً حقيقياً صادقاً.

لقد جسّدها وهو يحصّل العلوم من مصادرها بغضّ النظر عن الاختلاف في المذاهب ورؤيتها لبعض المسائل؛ حيث لم تؤثّر تلك الاختلافات عليه في تلقي العلم والمعرفة، وفي الإقرار لأهل الفضل بفضلهم، وللمتميّزين بتميّزهم.

ثم نراه بعد ذلك يجسّدها عندما زار عاصمة دولة الخلافة، وقَبِل أن يتولّى المنصب الديني بتوليتها إياه، وهذا بحدّ ذاته موقف وحدويّ قلّ نظيره فيما نعلم.

وجسّده في قيامه بوظيفته في بعلبك في المدرسة النورية؛ حيث درّس الناس

وأفتاهم على مذاهبهم الخمسة، فأحبوه جميعاً وأحبهم، واجتمعوا حوله في صورةٍ رائعةٍ كما يقول هو نفسه؛ إذ وصفها بأنّها أحسن صحبة، وأحسن عشرة، وكانت أياماً ميمونة.

ويتحدّث تلميذه ابن العودي عن تلك المرحلة فيقول: «**كنت في خدمته في تلك الأيام، ولا أنسى وهو في أعلى مقام، ومرجع الأنام، وملاذ الخاصّ والعام، ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها، ويدرّس في المذاهب كتبها. وكان له في المسجد الأعظم بها درسٌ، مضافاً إلى ما ذكر. وصار أهل البلد كلهم في انقياده ومن وراء مراده، بقلوب مخلصة في الوداد، وحسن الإقبال والاعتقاد. وقام سوق العلم بها على طبق المراد، ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد، ورقي ناموس السادة والأصحاب في الازدياد، وكانت عليهم تلك الأيام من الأعياد**»[٦].

يدلّنا هذا النصّ على تجربة عالمٍ وحدويٍّ، عَلَم استطاع أنْ يجسّد نموذج الوحدة الإسلامية بحيث صار محلَّ قبول عند جميع المسلمين، يثقون بعلمه وحكمته وورعه وتقواه؛ إذ لا يكفي العلم وحده ليحظى العالم بمحبة الناس واحترامهم وترؤّسه عليهم، فلا بدّ لذلك كلّه من توفّر عنصر الثقة الذي عماده التقوى والورع، وقد استطاع هذا العالم المتصف بهذه الصفات أنْ يؤسس مجتمع الوحدة الإسلامية لفترةٍ من الزمن.

إنّ تجربة الشيخ زين الدين الجبعي في بعلبك لم تَرُق ـ على ما يبدو ـ للبعض من أصحاب النفوذ والأغراض؛ لذلك عملوا على وضع حدٍّ لها بالطرق التي أدّت إلى أنْ يترك الشيخ الجبعي بعلبك ومدرستها النورية وجامعها الأعظم، وأنْ يعود إلى بلدته جبع، ليعيش فيها حياة من نوع آخر، كما يقول في ختام مذكراته: «**ثمّ انتقلْنا عنهم إلى بلدنا بنيّة المفارقة؛ امتثالاً لأمر إلهي، سابقاً في المشاهد الشريفة ولاحِقاً في المشهد الشريف مشهدِ شيث، وأقَمْنا في بلادنا إلى**

سنة خمسٍ وخمسين مشتغلين بالدرس والتصنيف»[٧].

وقد علّق تلميذه ابن العودي على هذه الكلمات بقوله: «**وهذا التاريخ كان خاتمة أوقات الأمان، والسلامة من الحدثان، ثمّ نزل به ما نزل، وستقف عليه إن شاء الله إلى خاتمة الأجل**»[٨].

لقد تحوّلت حياته بعد ذلك إلى حياةٍ أُخرى، فقد أصبح مطارداً وملاحقاً، يعيش في تستّر وتخفٍ على مدى تسع سنوات، انتهت بالقبض عليه في مكة المكرمة، وبسوقه إلى مدينة إسلامبول، حيث نفّذ فيه حكم الطغيان بالإعدام؛ ليتمّ وضع حدٍّ لتجربةٍ نموذجيةٍ رائعةٍ مثّلها عالمٌ مسلمٌ رفض أنْ يكون منغلقاً على نفسه ومذهبه، وانفتح على مذاهب الأُمة وعلمائها.

وهذه هي ثمار منهج التكفير على مرّ العصور، فسادٌ وإزهاق أرواح المؤمنين المخلصين العاملين، إنّه المنهج الذي يضع نفسه في خدمة الحاكم حماية لعرشه من إصلاح المصلحين.

التحديات المناهضة لمشروع الوحدة في الأمة:

لم تكن التحديات المواجهة لوحدة الأُمة يوماً أكثر مما هي عليه اليوم. كما أنّها لم تكن قياساً بالمعطيات الزمنية السائدة أقلّ مِما هي عليه اليوم.

فلطالما كانت سياسة (فرّق تسد) هي الدستور الذي يلجأ إليه الطغاة لتفريق صفوف الناس عبر بثّ مشاريع الخلاف فيما بينهم، واستحضار الوقائع التاريخية كعاملٍ مساعدٍ على إيغار الصدور وإيقاظ الضغائن، وهذا نهمٌ مستمرٌّ إلى يومنا هذا.

والذي يزيد الأمور سوءاً وجود هذا الكمّ الهائل من وسائل الإعلام التي تستعمل الفضاء لبثّ الحقد والضغينة والاختلاف والتنازع، وهذه الوسائل الفضائية والإذاعات المسموعة والمرئية تحرّض على الكراهية والقتل مباشرةً

وصراحةً دون مواربة أو تمويه، وهي تتمتع بحماية ورعاية حكومات ودول عربية وإسلامية، أو جهات سياسية أو اعتقادية، فتؤمّن لها مستلزمات استمرارها مادياً ومعنوياً.

ومع تحوّل الإعلام من ناقلٍ للحدث إلى صناعةٍ بكلّ ما للكلمة من معنى، صار الإعلام يصنع الحدث ويهيّء له الظروف المناسبة لحدوثه، فلم يعد لدى الإعلام في ظل هذا الواقع أدنى مصداقية، فقد تحوّل إلى تجارةٍ أو صناعةٍ في خدمة من يموّل ومن يدفع.

إنّ ظروف عالمنا الإسلامي من التعقيد بمكانٍ حيث تتشابك خيوط الواقع المحلي الفاسد والمريض مع خيوط الواقع الإقليمي السيء، والواقع الدولي المتربّص شراً بالإسلام والمسلمين.

وإنّ أخطر ما في الأمر هو هذا الواقع الإسلامي القابل للفتنة والمتعطش للخلاف والتناحر؛ لذلك نراه سريع الوقوع في حبائل شياطين الفتن، الذين لا يدعون مناسبة إلّا ويستغلونها لإيقاع الشرّ بالمسلمين وقضاياهم.

إنّنا في ظلّ دراستنا لعَلَمٍ من أعلام أُمتنا، خاض تجربة، وقدّم نموذجاً للأُمة وأجيالها. في ظلّ ذلك، وما تواجهه الأُمة من مؤامرات تهدف إلى إنهاء الإسلام من الوجود كقوّةٍ حيّةٍ وفاعلة، وتحويله إلى مجرّد ذيل وتابع وخانع، نجد أنّ من أهم أسباب منعتنا، ومن عوامل قوتنا كمسلمين هي هذه الوحدة التي تجمع كلمتنا وتلمّ شعثنا، وتجعلنا قادرين على المواجهة والتحدي لأعداء أُمتنا، الذين لم يعودوا موجودين خلف الحدود، وإنّما أصبحوا في العواصم وداخل الأوطان...

إنّ على المسلمين أنْ يتوقفوا عن استحضار السلبيات في تجربة أُمتهم، وأنْ يستحضروا الإيجابيات التي جعلت من هذا الدين الأقوى شعبياً في العالم.

* * *

الهوامش:

(١) النّيسابوري، مسلم، صحيح مسلم ٦: ٢٣، نشر دار الفكر، بيروت.

(٢) الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٣: ٤٩٢، دار صادر، بيروت.

(٣) زين الدين بن علي، الشهيد الثاني، رسائل الشهيد الثاني ٢: ٨٦٥، تحقيق: رضا مختاري وحسين شريفي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأُولى ١٤٢١، قم.

(٤) المصدر نفسه: ٨٦٩.

(٥) المصدر نفسه: ٨٨٤.

(٦) الدر المنثور ٢: ١٨٢. نقله عنه في مقدمة تحقيق كتاب مسالك الأفهام.

(٧) رسائل الشهيد الثاني ٢: ٨٨٤.

(٨) الدر المنثور ٢: ١٨٣.

شيخ المدينة الإمام عليّ بن الحسين ‘

قراءة في السلوكيّات

(القسم الثاني)

❐ السيّد أمين السعيدي (*)

تلخيص:

تكلّمنا فيما سبق بعد التمهيد لسيرة الإمام زين العابدين عليه السلام وتعريفه من حيث المولد والمنشأ والرحيل، ومن حيث التراجم وأقوال الرجاليِّين والأعلام والعلماء من العامّة فيه، وبعد بيان زاوية الكلام ومجال الحديث، وبعد الوقوف على الأسباب الداعية لطرح موضوع البحث، تكلّمنا هناك عن رؤية التباين والتناقض التي قد يصوّرها البعض تجاه سيرة الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام، ضمن المجموع الكلّي لسِيَرِهم التجزيئيّة والمقارنة فيما بينها.

كما أشرنا هناك إلى أنّ هذه الرؤية نفسها كما تتوجّه للسّيَر ككلّ بالمقارنة، كذلك تتوجّه للمجموع الكلّي للسيرة الواحدة من سِيَرِهم ^ بغضّ النظر

(*) باحث إسلاميّ/ السعوديّة.

عن الأخرى، مضافاً إلى أنّنا بيّنّا هناك شموليّة هذه الرؤية لكلتا الجنبتين (القياديّة السياسيّة) و(التشريعيّة الدينيّة) على حدٍّ سواء، ولا تستقلّ بالأولى دون الثانية، فتناولنا الجنبة الأولى منوّهين لحاجة الجنبة الثانية ـ على أهمّيّتها الفائقة ـ لقراءة مستقلّة ووقفة خاصّة أُخرى.

أمّا في الجنبة الأولى فضربنا من خلالها العديد من الأمثلة لكلٍّ من الدراستين؛ الدراسة لكلّي سِيَر الأئمّة عليهم السلام بالمقارنة، والدراسة لكلّي السيرة الواحدة المفردة، والتي اختصصناها ـ حسب موضوع المقام ـ بسيرة الإمام الرابع من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، علي بن الحسين، ومعالجتها وفق رؤية التباين المطروحة.

كما استنبطنا واستعرضنا هناك الخطوط العامّة لسلوكيّات الأئمّة عليهم السلام المتغايرة.

وهنا نريد أن نستكمل البحث لنتحدَّث عمّا أشرنا له من نقاط في نهاية ذلك المقال كما يلي:

منافشة رؤية التباين على ضوء المجموع الكلّي للسّيرة التجزيئيّة للإمام علي بن الحسين عليه السلام:

وهنا يمكننا القول ـ وبكلّ يقين ردّاً على ما تقدّم ـ بأنّ هذه الدراسة وإن كانت للوهلة الأولى تُظهِر لنا ذلك، إلا أنّها في مضمونها ليست إلّا نظرة سطحيّة شكليّة بعيدة تمام البُعد عن الواقع وعن الهدف الذي يجمع هؤلاء العظماء في سلوكهم ومسيرتهم، والذي يهمّنا في المقام هو الوقوف على خصوص سيرة رابع الأئمّة من أوصياء رسول الله ' الإمام علي بن الحسين '، لنرَى مدَى شكليّة هذه الرؤية تجاه سيرته الكلّيّة المفردة، وكذا تجاه كلّي السيرة لجميع الأئمّة عليهم السلام.

والقول في بيان ذلك سينعقد هاهنا في النقطتين التاليتين:

أوّلاً: بيان منهجيّة التقييم الصّحيح للحوادث التأريخيّة وسلوكيّات الأفراد:

إنّنا بالعود إلى الحدث التأريخي بحسب كلّ مرحلة مارس فيها المعصوم عليه السلام حياته؛ نجد أنّ دوره تجاه ذلك الحدث كان دقيقاً متناسقاً متناغماً تماماً مع مرحلته ومهامّه الإلهيّة، وهذا لا يضرّ بأن تكون هنالك مرحلة أخرى في فترة أُخرى تَفرض عليه دوراً آخر، فالمهمّ هو عنصر التناسق والتوافق بين ذلك السلوك وتلك المرحلة بما يحقّق المهامّ التي تتطلّبها مسؤوليّته كإمام متصرِّف، وبالتالي: لا معنى لمقولة التناقض تجاه ذلك، فالذي مثلاً يؤمن بحرمة الخمر فلا يخلط به دمه ولحمه، ثمَّ يمرّ في لحظة من اللحظات بظرف يرتبط ببقائه فيشربه لينقذ به حياته ولا سبيل له لذلك إلّا به، هل نقول عنه بأنّه متناقض في تصرّفاته وسلوكيّاته؟!

فهذه الحالة مع أنّها من الحالات العُليا إلّا أنّنا مع ذلك لا نقول هذه المقولة في حقِّ صاحبها، وإلّا، لو قلنا هذا في مثل ذلك لوجب أن نلتزم بنسبتها للمولى سبحانه وتعالى أوّلاً قبل غيره؛ لأنّه هو من قال: هذا في صورته الأوّليّة حرام، وفي مورد آخر ثانوي حلال، بل أَوجبَ شربه في فرض المثال، والحال أنّنا لا نلتزم بذلك، فهو سبحانه سيّد العُقلاء، فنبرّر ذلك عقلاً وشرعاً تبعاً للموضوع، فنقول بأنّ اختلاف الموضوع دخيل طبيعي في اختلاف الحكم.

هكذا الأمر أيضاً في اختلاف الحدث والظرف ـ الموضوع ـ فكلّ ذلك دخيل طبيعي في اختلاف الدور والممارسة ـ الحكم ـ فما دامت الممارَسة (التي هي بتصوير آخر تمثِّل محمول الموضوع) متناسقة عقلاً وشرعاً مع الظرف المتّخَذة تجاهه، فهذا لا يتيح مجالاً لمقولة التناقض بتاتاً، وإن وُجِدَ التغاير، فالحياة البشريّة متحرّكة، ولا تثبت على طريقة ليثبت فيها الإنسان أو مجموعة من الناس المتعاقبين زماناً على سلوك واحد.

نعم؛ التغاير في العمل تجاه ظرف واحد متّحد الشرائط والوقائع من جميع الجهات هو الذي يعدّ تناقضاً بلا إشكال.

ثانياً: تحليل سيرة الإمام علي بن الحسين ‘ وفق منهجيّة التقييم:

وهنا سنقسّم قراءتنا لسيرته عليه السلام حسب أبرز معالمها ومفاصلها إلى فترتين كما يلي:

أ) فترة ما بين كربلاء والسبي:

إذا أدركنا ما تقدّم بقي علينا أن نثبت حقيقة التلاؤم والتناسق بالنسبة للدور الممارس من قِبل المعصوم في ظرفٍ ما مع حدثه، وهذا ما يتكفّل به التحليل الدقيق والدراسة الشاملة المتفحّصة لكافّة أجزاء وجهات السيرة الواحدة وما مرّ فيها من أدوار ووقائع ومتغيّرات.

فالإمام زين العابدين عليه السلام لمّا سلَّ السيف مثلاً في مرحلته الأولى في كربلاء كان سلوكه هذا قد جاء في ظرفٍ مركَّبٍ من عدّة تداعيات تتطلّب ذلك حتماً أكيداً عليه، نذكر منها:

١- محاصرة القوم لأبيه كإمام وحجّة إلهيّة عليه وعلى غيره، وهذا بلا شكّ سبب مهمّ يتطلّب مثل هذا السلوك، كيف لا؟! ومجرَّد سبّ النبي أو وصيّه يوجب قتل فاعل ذلك دون مرافعة للقاضي حسب ما عليه الشريعة، فما بالك بما هو أشدّ من ذلك؟

٢- الظلم الواقع على أبيه بغضّ النظر عن إمامته وأُبوّته، ونصرة المظلوم واجبة شرعاً، وحسنة لا ينبغي تركها عقلاً؛ نظراً لكونها وظيفة وواجباً من الوظائف والواجبات الإنسانيّة والإلهيّة، وهي تشتدّ باجتماع الأبوّة مع المظلوميّة.

٣- حاجة الأمّة لحركة شديدة الأثر فريدة من نوعها في تأريخ البشريّة لتوقظ الضمائر وأتباع الدين، تماماً كما فعل دم الإمام الحسين عليه السلام بعد قتله،

حيث أثّر أثره في إرجاع الأمّة لرشدها بدليل ما قام من ثورات ووقع من تحرّكات ورسوم هائلة، وليس وجود الإمام زين العابدين عليه السلام في ظلِّ تلك الحركة بمنأى عن مطالبته بتقويم هذه الهزّة وهذا الدم المبارك الذي يَفرض منطق السيف بكلّ أنحاء الظرف القائم آنذاك، فهو من أبرز معالم الصلاح ومن أوائل من يناط بهم امتثال وتحقيق هذه المهمّة الصّعبة والعظيمة.

٤- الدفاع عن العرض والشرف الشخصي، حيث كان في كربلاء رجال وأطفال ونسوة على انتماء تام به عليه السلام كان من بينهم (على رواية) ابنه محمّد الباقر عليه السلام الإمام من بعده[1] وغلامه مُنْجِح وأُمّه، ناهيك عن غيرهم، فليس من عاقل يَرفض ويعارض هذا الحق، وسلّ الإمام علي بن الحسين عليه السلام للسيف ما كان إلّا على إثر هذا العامل الجزئي في ضمن العوامل الأخرى.

أضف لهذا نصرته عليه السلام لذلك الجمع الذي كان برفقة أبيه بما هو جمع محاصر مظلوم مغرّر به مضطهَد مسلوب العرض والإرادة، وقعت عليه الجرائم القاسية بما يحرق قلب الناظر ويهيّج مشاعره، وغير ذلك من العِلل، كرفعة أنصار الحسين ' وكون بعضهم من صحابة رسول الله ' ، وكتضمّنهم لعدّة أفراد من بني هاشم ممّن خصّهم الله تعالى بأحكام خاصّة، فضلاً عن أبيه عليه السلام، وغير ذلك.

فنحن عندما نطالع هذه الأسباب؛ سنجد أنّ كلَّ واحدٍ منها كفيلٌ بمفرده لأن يَفرض على أيِّ مسلمٍ ملتزِمٍ أو عاقلٍ صاحب مواثيق مع محاسن الفعل أن يَنتشق حسامه ويقف وقفة الشريف الذي لا يرتضي الظلم والذلّ والهوان في سبيل شيء من الحياة بدون ذلك، فكيف بها كلّها مجتمعة على الشخص، بل وعلى إمام وخليفة إلهي يمثّل بوجوده عزّة السماء وشرفها ومنطق كرامتها؟! إذاً هذا الدور وهذا السلوك كان متوافقاً تماماً مع الظرف والمرحلة.

وأمّا سلوكه عليه السلام فيما تلا واقعة الطفّ فهو في رحلة أسره وتسييره للشام مع

من تبقّى من نساء الحسين عليه السلام وأطفاله كان السيّد الأمثل في شجاعته وتنديده العلني بالظلم والظالمين وعلى رأسهم السلطة وسلطانها يزيد بن معاوية، للحدّ الذي كادت تصريحاته وكلماته ومواقفه على طول ذلك الظرف أن تودي بحياته بما أحدثته من زلازل لعرش القيادة الأمويّة المستبدّة في الشام بتغطياتها على الحقائق ومكائدها، خصوصاً عندما حاجّ يزيد بن معاوية في مجلسه بين الجمع فأفحمه وأَلجم حجّته، فخطبته ـ بلسان العلم والفصاحة وشجاعته في موقفه على رغم صعوبة الحدث وعُسره ـ دليل وبرهان ناصع على هذه الحقيقة؛ فلا تناقض بين الموقفَين في كربلاء وفي السبي والشام.

ب) فترة ما بعد السبي والرجوع للمدينة:

وهنا سنتكلّم في أربع جهات؛ إحداها تتكفّل استقراء المبرّرات الفكريّة لحركة الإمام عليه السلام في هذه الفترة، والثانية تتكفّل بمقارنة هذه المبرّرات مع الوقائع العمليّة التي مارسها الإمام عليه السلام وقام بتطبيقها في أفعاله، والثالثة نستعرض من خلالها الخيارات الأخرى المقابِلة لدور هذه المرحلة بالنظر والتحليل وتقييمها على أساس الأكثر موافقة وتناسقاً مع الواقع والمجريات القائمة آنذاك، والرابعة نبيِّن فيها الحقيقة الكاملة لسلوكيّات هذه الفترة، والخامسة نَستقرئ من خلالها الوظائف الأخرى التي مارسها الإمام عليه السلام طوال هذه المدّة، وذلك كما يلي:

١- الغايات الفكريّة لسلوكيّات هذه المرحلة:

وأمّا بعد رجوعه عليه السلام من أسره للمدينة فإنّ عَوده إليها كان عَود من يحكمه ظرف الهدوء المخيّم على أهلها ورجالها ودعاتها، وظرف الرجل المحاصَر المراقَب في ذات الوقت المهدَّد بالموت من قِبَل أزلام يزيد بن معاوية الذي امتدّت سلطته وقدرته إلى هناك، للدرجة التي كان يحتاج فيها لتفجير الموقف

وإطلاق الصرخة على شرف حريم البيت النبوي وسبطه الحسين صحابيّ رسول الله ' وخليفته وسيّد شباب أهل الجنّة إلى أن يبتعث لضمائر القابعين في تلك الديار من يكون أشدّ وقعاً عليهم، وأكثر تحريكاً لنفوسهم الفاترة، حيث أرسل بِشْر بن حَذْلَم الشاعر المعروف باقتداره وقوّة بيانه وشدّة اجتذابه للقلوب وتهييجه للأحاسيس والمشاعر، فوقف عليه السلام في خارج المدينة على أطرافها، ونصب للنساء والأطفال شيئاً من الستار، وجلس يقدّم الموقف المؤلم ويصوّر غربته حتّى في دار قومه بين من سمع أحاديث رسول الله ' في أبيه ورأى ما رأت عيناه من فعاله العظيمة معه.

ثمَّ إنّه عليه السلام وإن لم يكن يخاف الموت ولا يهاب القتل في سبيل ربّه والقِيَم العالية، إلا أنّه كان يَرَى أنّ دم الحسين عليه السلام قد وفَّى بالغرض المطلوب في تحريك كيان الأمّة وتحقيق يقظتها وصحوتها بكل قوّة وامتداد، فكان يَرَى على نفْسه أن يمارس دوره في توجيه وإدارة ذلك الدم وأهدافه ومراقبة آثاره ودفعها لمواقعها الصحيحة وتمثيل حركة عمليّة على صعيد التعامل السليم تجاه جميع وقائع فاجعة الطف بكافّة الرسوم والطقوس والتحرّكات.

لذا كان يَرَى في ضمن ذلك أنّ حركة الثوّار المشتّتة المتصاعدة يوماً بعد يوم، ومشاعر الأمّة الحادثة المتزايدة صعبت الضبط على غيره بحاجة لقيادة وتوعية وتوجيه، ذلك التوجيه الذي يحتاج لعامل وعلّة مهمّة تكمن في بقائه وحياته بما يبيِّن معنَى مقولة الحسين عليه السلام فيه لعمّته زينب بنت علي ' عندما برز الإمام السجّاد للقتال في يوم الطفّ بإرجاعه؛ وبرّر ذلك بقوله: كيلا ينقطع نسل جدّي رسول الله ' .

إذ إنّ انقطاع نسل رسول الله ' يعني قيام نسل الطغاة وضياع دم الحسين والحسن وعلي وتضحيات رسول الله ' وصحبه الأطهار وكلّ ما جاءت به السماء، وازدياد وانتشار ظواهر البؤس والتدليس والانحلال والطغيان في كلّ

مكان، وإلّا، فيزيد (الذي لم يتوانَ عن ضرب الكعبة المثال الأقدس للإسلام وقبلة كلّ مسلم للحظة واحدة)[٢] وأمثاله ما كان وجودهم وحكمهم يصب في مصلحة الدين بأقلّ ما يُعتدّ به، ولولا المواجهات الطويلة والتضحيات العظيمة الكثيرة التي قُدِّمَتْ لإبطال ما أرادوا تحقيقه، لَعَلم الله سبحانه ما سيحصل على الأمّة وعلى الدين الذي لن تقوم له قائمة.

أمّا السيف في دستورهم عليهم السلام فليس أداةً للتّباهي ولا وسيلةً لفرض الأنانيّة الخاصّة والشرف الخاصّ والمصلحة الخاصّة، وإنّما هو آلة لعلاج حالة مرضيّة آنيّة، وهذه الحالة المرضيّة قد عولجت بما سُكِب من دم الحسين عليه السلام، الذي رفع الأمّة من إصابتها ومرضها المرير القائم على الخضوع للتخويف والذلّ والطمع في الدينار والدرهم بمثل ما كان عليه الكثير من عناصر جيش الإمام الحسن عليه السلام في عهدهم مع معاوية، ومَسْحِ ذقونهم بالمال وتذليل أعناقهم بالبشائر.

إلّا أنّه بعد حادثة كربلاء ووصفة الدواء التي تكفّل بها الدم الطاهر وفجائع الطفّ القاسية والسبي المخزي للإمام زين العابدين عليه السلام والنساء والأطفال؛ نالت الأمّة طفرة نوعيّة إلى المرحلة التالية التي تعقب الطفرة بما لها من تداعيات وحاجة كبيرة للضبط والتوجيه والتوعية والقيادة الصحيحة، فكلّ ثورة تتعقّبها تداعيات وتلازمها أنفاس التوتّر وردود فعل فقْدِ الأبناء والأحبّة التي إن فَقَدَتِ التوجيه الصحيح والقيادة الصحيحة تجاهها ضاعت بها جميع تضحياتها وراحت هدراً في مهبِّ الريح.

لذا كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام يمارس وظيفته في استكشاف واستيضاح الموقف، ومحاصرة كلّ الثغرات الباحثة عن هدم جهاد المضحّين، فكان من أوّل ما سعَى وراء تحقيقه هو «توجيه عواطف الأمّة المستفيضة لله تعالى لا للثّائر، وإن كان هذا الثائر هو نفْس أبيه الحسين عليه السلام»، كما كان يسعى جاهداً لتجريد

أيّة حركة وأيّ سلوك من الحميّة العمياء والقبليّة، فلا بنو هاشم لهم أن يمارسوا مشاعرهم الثائرة على أساس العرق، ولا لغيرهم من عامّة المسلمين أن يمارسوا ذلك على أساس أيّ شيءٍ آخر بعيد عن الله تعالى وعن قول أبيه عليه السلام: «**إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي**». وعن مقولة جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام: «**والله لأُسلِمَنَّ ما سَلِمَتْ أمور المسلمِين ولم يكن فيها جورٌ إلا عليَّ خاصّة التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه**»[٣]؛ مبرِّراً بذلك حقيقة أنّ السيف ليس آلة للاستعراض والتباهي والعصبيّة، وإنّما هو آلة للعلاج المناسب الذي يتطلَّب ذلك فحسب، وأنّه على استعداد تامّ لأن يغضَّ الطرف عن آلامه وجراحه والجور عليه بشخصه في قِبال المصالح الكبرى للأمّة.

فالإمام زين العابدين عليه السلام كان في ظلِّ هذه الظروف الموضوعيّة يريد أن يستغلّ ما حوله من هيجان وعواطف متحرّكة ليجتذبها لتعاليم الدين، وينشرها في جوانبه، فيملأها بالإيمان ويحصّنها برفعة الاعتقاد بعد طول ما اعتراها من ركود ومنامات؛ وهذا ما لن ندركه ونعيه إلّا بعد مطالعة تفصيليّة واعية لأدعية الصحيفة السجّاديّة، ولحظات صدور كلّ دعاء منها، وما تحيط به من حيثيّات، مضافاً لمضمونه وحركة الإمام عليه السلام فيه، وكافّة مُقتضَيات أفعاله.

فهذه الدراسة وإن كانت صعبة من جهة استقراء فترة وقوع الدعاء وتداعياته الحاليّة الملتصقة به وما يحيط بجوانبه من علل معيّنة وآثار خاصّة؛ بسبب الثغرات الكثيرة المتواجدة بطبيعة الحال في النقل التأريخي وضبابيّة وضآلة ما وصلنا من حياة الماضين، إلّا أنّها ليست بتلك الصعوبة من جهة دراسة مضامين تلك الأدعية وتداعياتها العامّة وآثارها القصوى، وما قام في السيرة المباركة من أعمال وفِعال.

ونحن هنا سنقف على هذه الجنبة في جملة من المقتطفات بصورة مَليّة بعض

الشيء؛ لنلاحظ من خلالها مدى تناسق السلوك مع الظرف بما يرفع مقولة التناقض المطروحة، على أنّه هل كانت سلوكيّات الإمامعليه السلام متوافقة مع مفاصل هذه النظريّة وجهاتها ومبرّراتها المذكورة أم لا؟

وبعبارة أخرى: هل تشكّل المجريات التي اتّخذها الإمامعليه السلام في حياته امتثالاً عمليّاً لما تمَّ تقديمه من غايات أم لا؟ بحيث يمكننا في حالة التوافق والتطابق بين النظريّة والتطبيق أن نسقط رؤية التناقض من أصل تبعاً لما طُرح من مبرّرات، أو أن نقول في حالة عدم وجود نوع من التوافق والتطابق بين ذلك:

إنَّ هذه الرؤية، رؤية التناقض، ثابتة صحيحة لم تفِ هذه المبرّرات المقدَّمة (التي لم تجد تطبيقاً) بإسقاطها، وأنّها مجرّد ترف فكري ودعاوى لا مصداق لها في الخارج يدعمها ويصدّقها، فنحتاج بالتالي لقراءة مغايرة كفيلة بنقض وإبطال مضمون تلك الرؤية، أو الإقرار بصوابها وتماميّتها. هذا ما سنتكفّل إيضاحه والكشف عن حقيقته، سلباً أو إيجاباً، تحت العنوان الآتي.

٢- قياس درجة التطابق العملي مع غايات هذه المرحلة:

ولنأخذ على سبيل المثال بعض تلك الأدعية سريعاً بالنظر والتحليل، وإلّا، فاستيفاء ذلك وتفصيله يحتاج لدراسة مستقلّة ووقفة خاصّة مليئة بالإمعان والتمعُّن، فمثلاً:

دعاء «**يا من تُحلُّ به عُقَد المَكارِه**» كان بالمستوى الذي يفيض به الداعي إيماناً وتسليماً بقدر الله تعالى وعدم القنوط منه أو السخط عليه بما جرَى من مكاره ومحن وعوارض الدنيا في كربلاء وأيّام الأسر وشتات وقتل وتعذيب وآلام جسديّة، من تطويق السلاسل والحديد وعسر المسير وطول المسافة وشتائم ومتاعب مختلفة! بما يمزج بين المرحلتين، المرحلة السابقة في العراق والشام

والمرحلة اللاحقة في ديار المدينة، وبما يعطي درساً للحضور بأنّ ما جرَى لم يكن بمبدئه هواناً على الله تعالى ولا ذلّة، كما عبَّرت زينب بنت عليٍّ ‘ ، فكيف يكون من يوفَّق لكلّ هذا الجهاد وهذه التضحيات وهذه الاستقامة هيّناً على الله العزيز الحكيم؟!

فكان عليه السلام يمثّل للجميع درساً ضَمَّنَ أنّ الإنسان المسْلم المسَلِّم يجب أن يكون في ذروة الألم وعسر الموقف مع الله، وأن يعلم يقيناً بأنّه في أحلك الظروف والمحن هناك قوَّة جبّارة مقتدرة، وأنَّ الإيمان لا بدّ أن يسود في أرجاء النفْس ويملأ القلب تجاه قَدر الله الذي لا يضيع عنده شيء، وأن يَلتجئ لربّه رغم ذلك بكلّ ذلٍّ وخضوعٍ وحُبّ، وأن يَترامَى على أعتاب عفوه بدموع العيون ووجل الوجدان وإبحار العقل؛ هذا أقلّ ما يصوّره هذا الدعاء.

وأمّا مثل دعاء «مكارم الأخلاق» فإنّه يصوِّر لنا أنّ السيف ليس دائماً هو الحدّ الأقصَى لتحصيل الحدود، بل هناك التسامح الذي يمثّل قيمة عُظمَى وخُلُق الأنبياء والأوصياء وكلّ الصالحين، وأنّ الدعاء للأقارب والمسلمين والمخطئين يجب أن يكون طريقاً من طرق النصر وتحقّق الأهداف والآمال، فقدرة الله تعالى على الهداية فوق كلّ الاعتبارات، وليست غاية المؤمن الصالح هي العداء، وإنّما الهداية، فعداؤه لشخصٍ ما إنّما يتحصّل بسبب عدم كون هذا الفرد على سبيل الهدى، فإن أمكن تحقيق الهداية فيه فهذا من شأنه أن يرفع العداء له من رأس، والحال أنّ الهداية بيد الله سبحانه، والدعاء طريق إلهي لإنزال الهدى وإحلاله في ذات ذلك الشخص.

وهكذا فالعداوة في الدعاء أو الدعاء على العدوّ إنّما لأنّه معاند لله سبحانه ومتمرّد لا يَقبل مَحاسن السبل والحلول، ممّا يدفع بالداعي لأن يجعل عظمة القدرة الإلهيّة لله عزّوجلّ طريقاً للخلاص من شرّه؛ فهذا، كما ترى، ممّا يُحتاج فيه للدعاء أيضاً.

ودونك المناجاة الخمسة عشر ودعاء أبي حمزة الثمالي، ففي ذلك ما تسمو به الروح، وينعش القلب، ويحلّق بلُباب العقل. فالإمام عليه السلام كان معلِّم الطريقة، ومبيّن الآداب التي تستلزمها تلك الطريقة للفوز بكلِّ المآرب مادام الارتباط بالله القوّة العليا متحقّق، وكان عمليّاً في تعليمه، كما كان فاعلاً للنّصر ومؤكِّداً على أنّ النصر ليس دائماً يعني الفوز على أرض المعركة والحِراك المسلّح فحسب.

هذا ولنا وقفة تأمّل، إن شاء الله تعالى، في بعض مقاطع أدعيته عليه السلام نستوفي بها الوقائع، ونُبيِّن من خلالها هذه الحقائق، ونَرنُّ بها لذائد الأرواح، ونُطيِّب بها الخواطر، بما يرسم ويقدّم لنا مقداراً من شموخ دعائه عليه السلام وجزالة كلماته ورونق معانيها الفائق الخلّابة، وذلك عند بيان الحقيقة الكاملة لسلوك هذه المرحلة؛ فتَرَقَّب.

٣- خيارات أخرى مقابلة لسلوك هذه المرحلة:

قد يقول قائل: ألا يوجد هناك فرضيّة أو طريقة أخرى أنفع وأبلغ للمقاصد من سلوك هذه المرحلة المذكورة؟

وبعبارة أوضح: ألا يوجد واحداً من السلوكيّات والخطوط العامّة الخمسة الباقية المتقدّمة يكون العمل على طبقه في هذه المرحلة أجدَى وأكثر تناسقاً مع سلوك المرحلة السابقة وما تلاها؟ خصوصاً وأنّ الأمّة لتوّها آخذة في يقظتها، وحرارة دم الحسين عليه السلام لاتزال حديثة الأثر فيها بما لذلك الدم الزكي من هيجان القسوة الواقعة من السلطة على الجميع وقوّة عاطفيّة في النفوس يتزايد بها الغليل كلّما اتّضحت معالم القسوة ووقائع كربلاء أكثر فأكثر في إعلامٍ مستمر ومتجدّد لا يجيء إلّا بما هو مؤلم ولا يفضي إلّا للمطالبة بالحقّ وطلب النصرة؟!

والجواب على هذا التساؤل المهم يتّضح بتناول كلّ سلوك من تلك السلوكيّات وعرضها على تلك الظروف لمعرفة مدَى تناسبها معها، وهل أنّها

كانت أصلح وأوفَى بهذه المرحلة، أم أنّ ما سلكه الإمامعليه السلام في هذه الفترة كان هو الأكثر تناسباً بل والمتعيّن مِراسه من بين بقيّة الأدوار المقترَحة.

وفيما يلي نتناول كل خيار من هذه الخيارات الباقية بصورة شاملة بشيء من الفرض والنظر.

أ) خيار السيف ومنطق السلاح:

من الواضح أنّ خياراً من هذا القَبيل، على فرض إمكانيّته، في مثل مرحلة ما بعد عاشوراء كان عند اتّخاذه بمثابة الضربة القاتلة للأمَّة، القاضية على جميع ما تبقَّى فيها من نبض يعالج أنفاسها المتقطّعة؛ وذلك للعوامل والموانع الآتية، وهي على قراءتَين؛ إحداهما تَلحظ هذا الخِيار ضمن تحرّك واسع يمارسه الإمامعليه السلام بأتباعه، والأخرى تَلحظ هذا الخِيار من جهة التحرّك الفردي على غرار حركة الإمام الحسينعليه السلام، وذلك كالآتي:

الموانع وفق حركة الإمامعليه السلام مع الجماعة حِراكاً مسلحاً واسعاً:

وهنا نذكر عدّة عوامل مهمَّة تَلُوح بها المؤشّرات الواقعيّة تجاه حركة الإمامعليه السلام فيما لو سَلك دوره في هذه المرحلة على أساس القِتال والمواجهة وفق الحِراك الجَمْعي الواسع، فالحديث في ذلك كما يلي:

المانع الأوّل: (التحام الأمّة ببعضها والفضاء عليها من الداخل):

إنّ المواجهة الحربيّة ـ على فرضها ـ لو وقعت فسوف يكون مدارها، على أقلّ تقدير، حسب المؤشّرات القائمة آنذاك بين جبهة الحجاز وجبهة العراقَين (الكوفة والبصرة) والشام، وهذا يعني سقوطاً ذريعاً وموتاً أحمر في الساحة الإسلاميّة، كما أنّه سيكون قابلاً لتحقيق أي اختراقٍ خارجيٍّ بعدَ أو أثناء حلول

معضلة من هذا القبيل، فخونة الكوفة وجبناء تلك البقعة، وأهل البصرة بطابعهم البعيد عن التشيّع في تلك الفترة، لن يجعل من العراق سوَى جبهة في مواجهة أهل الحجاز على فرض نهضتهم لدم الحسين لو حصل، ناهيك عن انحراف أهل الشام ومناصرتهم لبني أُميّة.

قد تقول: إذاً لماذا خرج الحسين عليه السلام والظرف مماثل، فلا أهل الحجاز كانوا في نصرته يوم أن خرج، ولا أهل العراق، في الوقت الذي كان خيار الحرب نصب عينيه فيما لو فُرِض عليه قهراً، بل كان بنفْسه يؤكِّد على أنّه مقتول وخارج للشّهادة!

إلّا أنّ هذا القول باطل؛ لأنّ الظرف كان مختلفاً عن ظرف الإمام زين العابدين عليه السلام في هذه المرحلة، حيث كان الجوّ في ظل خروج الحسين عليه السلام قائماً في ظاهره على أساس أنّ أهل العراق، وخصوصاً أهل الكوفة وشيعتها بما للكوفة من أهمّيّة جغرافيّة وثقل يطغَى على ثقل البصرة المحدودة الوجود والجمع، كانوا في صفّه، بل والدعاة لوفوده عليهم وقيامه بشؤون الدين بينهم بما قام به فيهم أبوه أمير المؤمنين عليه السلام. بينما تحوّل هذا الوضع بشكل كامل إلى حالة معاكسة أوجدت يأساً ذريعاً في وجدان الأمّة قِبال العراق وأهله؛ إذ ليس من الهيّن أن تتوالى وتتكاثر الدعوات والرسائل للحسين قطْب المدينة وابن رسولها للقدوم عليهم بكل حثٍّ ورغبةٍ شملت الكبير والصغير منهم، ومن ثمّ يُخرج إليه ليواجه بحدّ الصارم من نفس تلك الجماعة الكبيرة، فينقلب بهم الموقف إلى الطرف النقيض انقلاباً ذريعاً بلغ حدّ تلك الأفاعيل القاسية المريرة التي ذاقها الحسين عليه السلام.

فالظرفان ما كانا متشابهَين بتاتاً، بل على العكس كان الظرف اللاحق على خلاف ظرف المرحلة السابقة بكثير، بحيث ينتهي بالوضع إلى أن يحمل مؤشّراً شديد الوضوح على أنّ أيّة مواجهة يمكن أن يقوم بها الإمام علي بن

الحسين عليه السلام مع يزيد، فهي تعني دماراً فتّاكاً في الأمّة، يقضي على دولتها بصورة مريعة؛ إذ لن تبدأ (على أقلّ تقاديره الظاهريّة) إلّا بحرب بين الحجاز والعراق المهيَّب والمحرَّك والمدعوم بجيش الشام، وهو ما لم يكن واقعاً في سلوك الحسين عليه السلام وفترته، حيث جاء دمه الطاهر بما هو إيجابيّ في الأمّة، لا بما هو سلبي.

وهذا عين ما يفسّر حقيقة الحال التي كان عليها الوضع في الحجاز حينما أباح يزيد المدينة لجيشه مدة ثلاثة أيّام يستبد فيها بثاراته التي قُتِل على إثرها ٧٠٠ حامل للقرآن، وافْتَضَّ فيها ما شاء من الأبكار، مضافاً لاستباحة قداسة مكّة، وضربه الكعبة بالمنجنيق حتّى أحرقها[٤]،وصَدَّع الركن بثلاث قطع لم يَنْسَها تأريخ ذلك الركن الأقدس بعلائمه الشاهدة لليوم[٥]،حيث لم يكن للعراق حركة ردع في وجه هذا الطاغية كما لم يكن لأهل الحجاز القدرة على المواجهة، كيف ذلك والبلاد كانت في يد يزيد، والجبناء والخونة والمسترزقة ملؤوا الأنحاء، مضافاً لفتح العراق ذراعه لعبور أتباع هذا الرجس، نظراً لتمثيله البوّابة البرّيّة الوحيدة والبوّابة الحصريّة حسب ظرف ذلك الزمان للدخول إلى أرض الحجاز!

وقد تقول أيضاً: لماذا خرج الحسين عليه السلام في هذا الظرف الذي كان بالإمكان أن يوجِد نفس النتيجة من تصارع الأمّة فيما بينها ودخول الأجنبي للفتك بها؟

وجوابه: أنّ الحسين عليه السلام وإن كان منطلَق حركته في البداية لم يكن الحرب، حيث فُرِضَتْ عليه قَسْراً، إلّا أنّ المواجهة لو وقعت فسوف تقع على أكثر التقادير بين أهل العراق وجيش الشام، بما يعني عزل الحجاز، بنوع من التقدير، عن ذلك، أو دخول الحجاز الرافض ليزيد تحت راية الحسين عليه السلام مع أهل العراق مستقبَلاً، ممّا يعني إيجاد قوّة كافية لمنع أي تدخّل أجنبي، أو التفكير في شيء من ذلك قِبال المسلمِين.

ففي الرواية التأريخيّة: «ومَلَكَ يزيد بن معاوية، وأمّه ميسون بنت بجدل الكلبي، في مستهل رجب سنة ٦٠هـ ...، وكان غائباً، فلمّا قَدِمَ دمشق كتب إلى الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، وهو عامل المدينة: إذا أتاك كتابي هذا، فأحضر الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، فخذهما بالبيعة لي، فإن امتنعا فاضربْ أعناقهما، وابعثْ لي برؤوسهما[٦]، وخذ الناس بالبيعة، فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم، وفي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، والسلام».

فورد الكتاب على الوليد ليلاً، فوَجَّه إلى الحسين وإلى عبد الله بن الزبير، فأخبرهما الخبر، فقالا: نُصْبِح ونأتيك مع الناس. فقال له مروان: إنّهما والله إن خرجا لم ترهما، فخذهما بأن يبايِعا، وإلا فاضرب أعناقهما. فقال: والله ما كنت لأقطع أرحامهما! فخرجا من عنده وتنحّيا من تحت ليلتهما، فخرج الحسين إلى مكّة، فأقام بها أيّاماً، وكتب أهل العراق إليه، ووَجَّهوا بالرسل على أثر الرسل، فكان آخر كتاب ورد عليه منهم كتاب هانئ بن أبي هانئ، وسعيد بن عبد الله الخثعمي: بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي من شيعته المؤمنين والمسلمين، أمّا بعد فحيّهلا، فإنّ الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعَجَل ثمّ العَجَل، والسلام. فوَجَّه إليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وكتب إليهم، وأعلمهم أنّه أثر كتابه، فلمّا قَدِمَ مسلم الكوفة اجتمعوا إليه، فبايعوه وعاهدوه وعاقدوه، وأعطوه المواثيق على النصرة والمشايعة والوفاء. وأقبل الحسين من مكّة يريد العراق، وكان يزيد قد ولّى عُبيد الله بن زياد العراق، وكتب إليه: قد بلغني أنّ أهل الكوفة قد كتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم، وأنّه قد خرج من مكّة متوجّهاً نحوهم، وقد بُلِيَ به بلدك من بين البلدان، وأيّامك من بين الأيّام، فإن قتلته، وإلا رجعتَ إلى نسبك وإلى أبيك عُبَيد[٧]،فاحذر أن يفوتك. وقَدِمَ عُبيد الله بن زياد الكوفة، وبها مسلم بن عقيل قد نزل على هانئ بن عروة، وهانئ شديد العلّة[٨]، وكان صديقاً لابن زياد، فلمّا قَدِمَ ابن زياد الكوفة أُخْبِرَ

بعلّة هانئ، فأتاه ليعوده، فقال هانئ لمسلم بن عقيل وأصحابه، وهم جماعة: إذا جلس ابن زياد عندي وتَمَكَّن، فإنّي سأقول أسقوني، فاخرجوا فاقتلوه. فأدخلهم البيت وجلس في الرواق، وأتاه عُبيد الله بن زياد يعوده، فلمّا تمكّن قال هانئ بن عروة: اسقوني! فلم يخرجوا، فقال: اسقوني، ما يؤخّركم؟ ثمّ قال: اسقوني، ولو كانت فيه نفسي. ففهم ابن زياد، فقام، فخرج من عنده، ووَجَّه بالشرَط يطلبون مسلماً، وخرج وأصحابه، وهو لا يشك في وفاء القوم، وصحّة نيّاتهم، فقاتل عُبيد الله، فأخذوه، فقتله عبيد الله، وجُرَّ برجله في السوق، وقَتَلَ هانئ بن عروة لنزول مسلم منزله وإعانته إياه.

وسار الحسين عليه السلام يريد العراق، فلمّا بلغ القُطْقُطانة[9] أتاه الخبر بقتل مسلم بن عقيل، ووَجَّه عبيد الله بن زياد، لمّا بلغه قربه (قرب الحسين عليه السلام) من الكوفة، بالحُر بن يزيد، فمنعه من أن يَعْدِل، ثمَّ بعث إليه بعُمَر بن سعد بن أبي وقّاص في جيش، فلقي الحسين بموضع على الفرات يقال له كربلاء، وكان الحسين في اثنين وستّين، أو اثنين وسبعين رجلاً من أهل بيته وأصحابه، وعُمر بن سعد في أربعة آلاف، فمنعوه الماء، وحالوا بينه وبين الفرات، فناشدهم الله عزّوجل، فأبوا إلّا قتاله أو يستسلم، فيمضوا به إلى عبيد الله بن زياد فيرَى رأيه فيه، وينفذ فيه حكم يزيد...

فلمّا كان من الغد خرج فكلّم القوم، وعَظَّمَ عليهم حقَّه، وذكّرهم الله عزّ وجلّ ورسوله، وسألهم أن يخلّوا بينه وبين الرجوع، فأبوا إلا قتاله، أو أخْذه حتَّى يأتوا به عبيد الله بن زياد، فجَعَل يكلّم القوم بعد القوم والرجل بعد الرجل، فيقولون: ما ندري ما تقول! ...

وخرج زهير بن القَين على فرس له فنادَى: يا أهل الكوفة! نذارِ لكم من عذاب الله! نذارِ عباد الله! وِلْد فاطمة أحقّ بالودِّ والنصر من ولد سميّة، فإنَّ لم تنصروهم، فلا تقاتلوهم. أيّها الناس! إنّه ما أصبح على ظهر الأرض ابن بنت

نبي إلا الحسين، فلا يُعْيِن أحد على قتله ولو بكلمة إلا نغَّصه الله الدنيا، وعذّبه أشد عذاب الآخرة.

ثمّ تقدّموا[١٠] رجلاً رجلاً، حتَّى بقي الحسين عليه السلام وحده ما معه أحد من أهله، ولا ولده، ولا أقاربه، فإنّه لواقف على فرسه إذ أُتي بمولود قد وُلِدَ له في تلك الساعة، فأَذَّنَ في أذنه، وجعل يحنّكه[١١]،إذ أتاه سهم، فوقع في حلق الصبي، فذبحه، فنزع الحسين السهم من حلقه، وجعل يلطّخه بدمه ويقول: والله لأنت أكرم على الله من الناقة، ولمحمّد أكرم على الله من (النبي) صالح! ثمّ أتَى فوضعه مع ولده وبني أخيه، ثمّ حَمَلَ عليهم، فقَتَلَ منهم خَلقاً عظيماً، وأتاه سهم فوقع في لُبَّتِه[١٢]،فخرج من قفاه، فسقط، وبادر القوم فاحتزّوا رأسه، وبعثوا به إلى عبيد الله بن زياد، وانتهبوا مضاربه، وابتَزّوا حرمه، وحملوهنّ إلى الكوفة...، وأخرج عيال الحسين وولْده إلى الشأم، ونصب رأسه على رمح...، ووضع الرأس بين يدي يزيد، فجَعَلَ يزيد يقرع ثناياه بالقَصَب...[١٣]!

فالحسين عليه السلام أُجبِر على القِتال رغم عدم خروجه له، حيث خرج من المدينة بعد إجباره على البيعة وتعريضه للقَتل، فمكث في مكّة، فدعاه أهل العراق بالمراسيل والرسل تَترَى، فاستجاب لأمر الله في إجابة المؤمنين والقيام فيهم بالعلم والعدل والهداية والمعروف.

كما بلغه خبر قتل رسوله مسلم رضوان الله عليه مؤخَّراً بعد رحيله وبلوغه القُطْقُطانة بقرب الكوفة، فمُنع من العدول إلى الحجاز أو المواصلة لمقصده أو أيِّ جهةٍ أخرى، حتَّى أُحيطَ به ومُنِعَ من الماء وأُلْزِم القِتال بعد أن رفض البيعة ليزيد، رغم أنّ صلح أخيه الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية والد يزيد كان يتضمّن شرطاً مفاده أنّه إذا مات معاوية ينتقل الحكم إلى أهل البيت عليهم السلام، للحسن عليه السلام إن وُجِد، وإلا فللحسين عليه السلام من بعده، فأمضَى الطرفان على هذا البَنْد وسُلِّم الحكم لمعاوية الذي لم يلتزم بذلك لا هو ولا ابنه يزيد الذي طعن في منهجه

حتَّى ابنه معاوية[١٤]،ليقوم بعدها بجبر الحسين عليه السلام على الخضوع والبيعة له ومطاردته!

فالحسين عليه السلام قُسِرَ على الحرب ولم يكن يريدها، فإن قيل: إنّ خروجه من مكّة واستجابته لأهل العراق تعريض منه لذلك، ورغبة في المواجهة، فردّه: أنّه حتَّى في خروجه من مكّة (التي لاذ بها كحرم لله يأمن من لاذ به ويَحْرم القِتال فيه) كان مجبوراً على ذلك، بحيث لا يعود للمدينة ولا يبقَى في حرم الله تعالى، إذ هُدِّد بالقَتل في مكّة أيضاً فلم يدعه يزيد مطمئنّاً وأُرسِلت له الكثير من الرجال لقتله بالغدرِ غِيْلة، فما بقي أمامه سوى ذلك الخيار الوحيد، وهو الخروج لأهل العراق تأديةً لحقّهم في الطلب، وحفظاً لقدسيّة الحرمين من الهتك الذي لن يتورّع عنه يزيد، وليلوذ بمكانٍ يحميه ومن معه من القِتال والمواجهة.

ومع ذلك لم يَبلغ مرامه، ولم يدعوه يسير في طريقه السلْمي، فعاجله يزيد في سنة ٦١هـ بعد سنة من تسلّمه الحكم بالموت المرير، وهو عليه السلام في السادسة والخمسين من العُمر، وفعل بذرّيّة رسول الله ' الأفاعيل التي لم يكن يطلب بها الحسين عليه السلام بشخصه وبيعته فحسب، وإنّما كان يطلب الترويح عمّا في قلبه من حَنَق وأحقاد تجاه جدِّه وأبيه وأخيه!

جاء في كتب التأريخ في تتمّة الخبر من جهة مصير عبد الله بن الزبير الذي أَبَى المبايعة كما أَبَى الحسين عليه السلام، فخرج هو الآخر إلى مكّة كالحسين عليه السلام، فقام في أهلها، وحَمَلَهم على رفض خلافة يزيد وعصيان أمره، فعَزَله، ودعا إلى نفسه وتقدّم للمبايعة، فبايعه الناس، فأَخْرَجَ عامل يزيد من مكّة، بينما رفض عبد الله بن عبّاس شيخ مكّة مبايعة ابن الزبير ومَنَعَ الناس من قَبوله، فسَرَّ يزيد بن معاوية ذلك حينما بلغه الخبر، فأَرسَل كتاباً لابن عبّاس يمتدحه فيه لرفضه ابن الزبير ونزوله على ما يريد، وطَلَبَ منه أن يدعو الناس إليه[١٥]،فأجابه جواباً

لاذعاً بيّن فيه أفعاله التي انتشرت وذاعت بما يبيّن أمر الحسين عليه السلام وعلّة خروجه من مكّة وظهور أمره فيهم بجلاء، حيث كتب له: «من عبد الله بن عباس إلى يزيد بن معاوية. أمّا بعد، فقد بلغني كتابك بذكر دعاء ابن الزبير إيّاي إلى نفسه وامتناعي عليه في الذي دعاني إليه من بيعته، فإن يكُ ذلك كما بلغك، فلستُ حمدك أردتُ، ولا ودّك، ولكنَّ الله بالذي أنوي عليم. وزعمتَ أنّك لستَ بناسٍ وِدّي، فلَعَمْري ما تؤتينا ممّا في يديك من حقِّنا إلا القليل، وإنّك لتحبس عنّا منه العريض الطويل، وسألتَني أن أَحثَّ الناس عليك وأخذلهم عن ابن الزبير، فلا، ولا سُروراً، ولا حُبوراً، وأنت قتلتَ الحسين بن علي، بفيك الكَثْكَث[١٦]،ولك الأثْلَب[١٧]،إنّك إن تُمنِّك نفسك ذلك لَعازبُ الرأي، وإنّك لأنت المُفْنِد المُهوّر[١٨].

لا تحسبني، لا أبا لك، نسيت قتلك حسيناً وفتيان بني عبد المطّلب، مصابيح الدجَى، ونجوم الأعلام، غادرهم جنودك مصرَّعِين في صعيد، مرمَّلِين بالتراب، مسلوبِين بالعراء، لا مكفَّنِين، تسفي عليهم الرياح، وتعاورهم الذئاب[١٩]،وتنشي بهم عرج الضباع، حتَّى أتاح الله لهم أقواماً لم يشتركوا في دمائهم، فأَجنّوهم في أكفانهم[٢٠]،وبي والله وبهم عززتَ وجلستَ مجلسك الذي جلستَ، يا يزيد. وما أنسَ من الأشياء، فلستُ بناسٍ تسليطك عليهم الدعيّ العاهر[٢١]،ابن العاهر، البعيد رحماً، اللئيم أباً وأُمّاً، الذي في ادِّعاء أبيك إيّاه ما اكتسب أبوك به إلا العار والخزي والمذلّة في الآخرة والأُولَى، وفي الممات والـمَحيا، إنّ نبي الله قال: الوَلَدُ للفِراش، وللعاهرِ الحَجَر، فألحقه بأبيه كما يلحق بالعفيف النقي وَلده الرشيد؛ وقد أمات أبوك السنَّة جهلاً وأحيا البِدَع والأَحْداث المضِلَّة عمداً. وما أنسَ من الأشياء، فلستُ بناسٍ اطْرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله[٢٢]،ودسّك إليه الرجال تغتاله، فأشخصتَه من حرم الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يَتَرَقَّب، وقد كان أعزَّ أهل

البطحاء بالبطحاء قديماً، وأعزَّ أهلها بها حديثاً، وأَطْوَعَ أهل الحرمين بالحرمين لو تَبوَّأَ بها مقاماً واستَحلَّ بها قِتالاً، ولكنْ كَره أن يكون هو الذي يَستحل حرمة البيت وحرمة رسول الله، فأَكْبَرَ من ذلك ما لم تُكْبِر حيث دسستَ إليه الرجال فيها ليقاتل في الحرم، وما لم يُكْبِر ابن الزبير حيث أَلْحَدَ بالبيت الحرام وعرَّضه للعائر[٢٣] وأراقل[٢٤] العالم. وأنت؟ لأنت المستحِلّ فيما أظن بل لا شكَّ فيه أنّك لَلْمُحرّف العريف، فإنّك حلف نسوة[٢٥]، صاحب ملاءٍ، فلمّا رأى[٢٦] سوء رأيك شَخَص إلى العراق، ولم يبتغك ضراباً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ثمَّ إنَّك الكاتب إلى ابن مرجانة[٢٧]أن يستقبل حسيناً بالرجال، وأمرته بمعاجلته، وترك مطاولته، والإلحاح عليه، حتَّى يَقتله ومن معه من بني عبد المطّلِب، أهل البيت الذين أَذهب اللهُ عنهم الرجسَ وطهَّرهم تطهيراً، فنحن أولئك لسنا كآبائك الأجلاف الجفاة الأكباد الحمير.

ثمّ طَلَبَ الحسين بن علي إليه الموادعة، وسألهم الرجعة، فاغتنمتم قلّة أنصاره، واستئصال أهل بيته، فعدوتم عليهم، فقتلوهم كأنّما قَتلوا أهلَ بيتٍ من الترك والكفر، فلا شيء عندي أعجب من طلبك وِدِّي ونصري، وقد قتلتَ بني أبي، وسيفك يقطرُ من دمي، وأنت آخذ ثأري، فإن يشأ الله لا يُطل لديك دمي ولا تسبقني بثأري، وإن سبقتني به في الدنيا، فقبلنا ما قتل النبيّون وآل النبيِّين وكان الله الموعد، وكفَى به للمظلومِين ناصراً، ومن الظالِمين منتقماً، فلا يعجبنّك أن ظفرتَ بنا اليوم، فوالله لنظفرنَّ بك يوماً.

فأمّا ما ذكرتَ من وفائي، وما زعمتَ من حقِّي، فإنْ يكُ ذلك كذلك، فقد والله بايعت أباك، وإنّي لأعلمُ أنّ ابني عمّي وجميع بني أبي أحقّ بهذا الأمر من أبيك، ولكنّكم، معاشر قريش، كاثرتمونا، فاستأثرتم علينا سلطاننا، ودفعتمونا عن حقِّنا، فبُعْداً على من يَجترئ على ظُلمنا، واستغوَى السفهاء علينا، وتولَّى الأمر دوننا، فبُعْداً لهم كما بَعُدَتْ ثمود، وقوم لوط، وأصحاب مَدْيَن، ومكذِّبو

المرسلِين.

ألا ومن أعجب الأعاجيب، وما عشتَ أراكَ الدهر العجيب، حمْلك بنات عبد المطّلب وغلْمة صغاراً من ولده إليك بالشأم كالسبي المجلوب، تُري الناس أنَّك قهرتنا، وأنّكَ تأمر علينا، ولعَمْري لئن كنتَ تصبح وتمسي آمنا لِـجَرحِ يدي، إنّي لأرجو أن يعظم جراحك بلساني ونقضي وإبرامي، فلا يستقر بك الجدل، ولا يمهلك الله بعد قتلِك عترة رسول الله إلا قليلاً، حتَّى يأخذك أخذاً أليماً، فيخرجك الله من الدنيا ذَميماً أثيماً، فعِشْ لا أبا لك، فقد والله أَرداك عند الله ما اقتَرفتَ، والسلام على من أطاع الله»[٢٨].

فابن عبّاس كما أكّد ما قلناه سلفاً وأوضح الحال فيه بَيَّنَ حقيقة إخراج الحسين عليه السلام بالقوّة بعد استهدافه وإرسال الرجال إليه لاغتياله خفْية في السر، أو قِتاله علناً في حرم الله بعد أن فرَّ من حرم رسوله ' الذي كَرِه أن تُهتك حرمته كمكان طاهر يجب على المسلمين تقديسه قبل من سِواهم، فخرج من حرم الله كما خرج من حرم رسوله لنفس العِلَّة من رعاية ما حرَّم الله ممّا رعَى رسوله ' في حياته فلم يقاتِل فيه، ولم يرعَ غيره، كعبد الله بن الزبير، فقاتل فيه بل وأمر بترك يزيد يضرب الكعبة مليّاً مكرَّراً ليُثير الناس مستعيناً بهذه الحرمة الممنوعة[٢٩]، ولغير ذلك من العِلل والأسباب التي ذكرناها قَبلاً، حيث قال بَيِّناً واضحاً:

«وما أنسَ من الأشياء، فلستُ بناسٍ اطْرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله، ودسّك إليه الرجال تغتاله، فأشخصتَه من حرم الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يَتَرَقَّب، وقد كان أعزَّ أهل البطحاء بالبطحاء قديماً، وأعزَّ أهلها بها حديثاً، وأَطْوَعَ أهل الحرمين بالحرمين لو تَبوَّأَ بها مقاماً واستَحلَّ بها قِتالاً، ولكنْ كَره أن يكون هو الذي يَستحل حرمة البيت وحرمة رسول الله، فأَكْبَرَ من ذلك ما لم تُكْبِر حيث دسستَ إليه الرجال فيها ليقاتل في الحرم، وما لم

يُكْبِر ابن الزبير حيث أَلْحَدَ بالبيت الحرام وعرَّضه للعائر وأراقل العالم، وأنت؟ لأنت المستحِلّ فيما أظنّ بل لا شكَّ فيه أنّك لَلْمُحرّف العريف، فإنّك حلف نسوة، صاحب ملاهٍ، فلمّا رأَى سوء رأيك شَخص إلى العراق، ولم يبتغك ضراباً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً».

المانع الثاني: (دخول مَلِك الروم للبلاد الإسلاميّة من الخارج):

إذاً الظرف كان مختلفاً تماماً، فمرحلة الإمام زين العابدين عليه السلام وقعت فيها متغيّرات ساهمت في عكس الوقائع بشكل كبير تماماً، بحيث كانت الحرب لو وقعت ستتيح فرصة كبيرة لتدخّل الروم والطمع في المسلمين، فالروم رغم ابتعاد الأمّة عن هذا المآل كانت آنذاك لديهم رغبة شديدة في القضاء على الإسلام وأتباعه واستحلال البلاد الإسلاميّة، فكيف بهم لو جُرَّت الأمّة لمثل هذه الأحوال؟

ففي الخبر: «واستقامت الشأم لعبد الملك بن مروان خلا فلسطين، فإنّ ناتل بن قيس[٣٠] كان بها، فلمّا أراد عبد الملك النهوض أتاه الخبر بأنّ طاغية الروم قد أناخ على المصّيصة[٣١] فِكْره أن يتشاغل بمحاربته مع اضطراب البلدان، فوَجَّه إليه، فصالحه، وحمل أموالاً كثيرة إليه، حتَّى انصرف!»[٣٢].

فالبلاد الإسلاميّة كانت تمرّ بحالة مأساويّة من الهرج والمرج والاقتتال في داخلها بين بلدانها وأهلها بسبب تصارع بني أميّة وأزلامهم على الحكم والمناصب، بما دفع عبد الملك بن مروان بن الحكم لدفع كلّ تلك الأموال الطائلة من بيت مال المسلمين لملك الروم بهدف إسكاته.

وفي خبر آخر: «كتب مَلِك الروم إلى عبد الملك: لَأَغزونّك بجنود مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف!»[٣٣]، حتَّى تحيّر عبد الملك بن مروان فأنقذ الإمام زين العابدين عليه السلام الموقف، كما سيأتي، وحَلَّ هذه المعضلة العظيمة التي كادت أن

تهلك الأمّة وتدمّر الدين، بما يُبيِّن أنّه عليه السلام كان عليه أن يحمي البلاد الإسلاميّة بفكره ووعيه كما فَعَلَ، لا أن يسلَّ السيف ويحارب.

فمَلِك الروم كتب ذلك بما له من خطورة كبيرة والأمّة قائمة في دولتها ولو بصورة متفكّكة في بعض الجهات، فكيف بصنعه لو كانت الأمّة قد وقعت في وسط حربٍ داخليّة من قَبيل ما ذكرنا؟!

المانع الثالث: نكوث أهل الحجاز وغيرهم عن نصرة الإمام السجّاد عليه السلام:

كلّ ما تقدّم كان على فرض أنّ أهل الحجاز استجابوا لحركة الإمام زين العابدين عليه السلام فيما لو اختار منطق السيف، إلّا أنّه من الواضح أنّ أهل الحجاز لم يكونوا على استعداد لخوض مثل هذه المعركة؛ نظراً لما يواجهها من مخاطر كبيرة ستؤدّي لفشلها الذريع وعدم اتّباعهم للأئمّة عليهم السلام، فهم في الفترة التي كان الحسين عليه السلام يتحرّك فيها على أساس أنّ العراق معه لم يستجيبوا لحركته رغم مكانته ورفعته فيهم وإيجابيّة المعطيات، فكيف بهم بعد أن اتّضح أنّ العراق أصبح عدوّاً مُعِيناً ليزيد؟ بل ويستحقّ رجاله العقاب وإقامة الحدود فيهم قِبال ما فعلوه من مظالم واعتداءات واجتراء على ذرّيّة رسول الله ' وسبطه الحسين عليه السلام ومن معه، بما يوجب القصاص والحد وفق قوانين الشريعة الإسلاميّة.

أضف إليه أنّ المجريات التي وقعت لاحقاً في المدينة ومكّة من يزيد بذاتها تشكّل أيضاً برهاناً واضحاً على هذه الحقيقة.

فالإمام زين العابدين عليه السلام كان متفطّناً لكلّ هذه الأوضاع بدقّة، وعارفاً بأنَّ حمل السلاح لا يجدي نفعاً، وهذا عين ما يفسّر لنا جوابه للزّهري لـمّا طرح عليه سؤالاً اعتراضيّاً في شأن اعتزاله للجهاد واشتغاله بالعبادة، ففي الخَبَر:

«لقي الزهري علي بن الحسين ' في طريق الحج، فقال له: تركتَ الجهاد

وصعوبته وأقبلتَ إلى الحج والله سبحانه يقول: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]؟!

فقال عليه السلام له: أتمّ الآية الأُخرى: {ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١١٢]، ثمّ قال: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ»[٣٤]، فأفحمه عليه السلام بالجواب ونقضَ حُجَّته على أساس الواقع القائم.

وغير ذلك ممّا يلي من أسباب.

فإن قيل: كيف لم يكن هنالك من يتحرّك من خلاله الإمام عليه السلام ولم يكن أهل الحجاز في طاعته، في حين أنّ أهل المدينة لمّا وقعت حادثة الحَرَّة فيها ـ كما سنبيّن في خيار المعاهدة ـ وقَتَل مسلم بن عقبة مبعوث يزيد بن معاوية أهلها وقرّاءها، وهتك مسجد النبي ' ، وافتضَّ الأبكار وأجبرهم على البيعة امتنعوا عن ذلك، فلمّا نزل الإمام علي بن الحسين على ما طلب منه مسلم بن عقبة، أطاع أهل المدينة الإمام عليه السلام وساروا على رأيه وفعله؟! ممّا يعني أنّه كانت له طاعة وزعامة وقيادة، بخلاف ما قلتم من عدم وجود شيء من هذا القبيل.

وجوابه: أنّ أهل الحجاز لم يكونوا على طاعته وأمره بتاتاً، بدليل أنّ أهل مكّة واجهوا بأمر عبد الله بن الزبير مرسول يزيد، وقاتلوه شهوراً مديدة، وكان ذلك بعد وقائع المدينة وواقعة الحَرَّة مباشرة، في حين أنّ مكّة جزء لا يتجزّأ من أرض الحجاز، وثقلها لا يقل عن ثقل المدينة، فلو كان القوم على رأيه عليه السلام وفي طاعته لسلك أهل مكّة نفس سلوك أهل المدينة بعد فرض أنّهم اتّبعوا سلوكه مع مسلم مبعوث يزيد.

هذا من جهة أهل مكّة، وأمّا من جهة أهل المدينة فهم لم يكونوا على رأيه إلا فئة خاصّة كانت تعتقد بإمامته عليه السلام وتعمل بأمره، بدليل تخلّفهم عن أبيه الحسين عليه السلام ومن معه، وهل كان أهل مكّة إلا أهل المدينة بعد أن انتقل ابن الزبير إليها وتحصّن بها وقاتل في حرمها المكّي وفي بيتها المشرّف؟

فإن كان هذا هو حال أهل الحرمين فلا حديث في غيرهم من أهل الحجاز وهم واجهة الحوادث يوم ذاك؛ وسيأتيك ـ عند الكلام عن خيار المعاهَدة والصلح ـ استدلال أكثر لهذا الإشكال ودفعه.

المانع الرابع: تشتّت رايات المطالبين بدم الحسين عليه السلام:

قد يقال: إنّ ما نقله التأريخ يفيد بأنّه بعد قتل الحسين عليه السلام وانتشار نبئه خرجت رايات كُثُر تطالب بدمه، خصوصاً من أرض العراق، وكان منها ما هو ملتفّ حول الإمام زين العابدين عليه السلام، وهذا يعارض القول بأنّه ما كانت هناك مؤشّرات ومقوّمات لنصرته فيما لو اختار منطق القتال.

وجوابه: أنّ انتشار الحدث وتحريكه للجماهير في ذلك الزمان كانت تحكمه صعوبة الإعلام وضعفه، ممّا يمنع من بروز تحرّكات سريعة تجتذب الحدث وتوظّفه بحرارته في زمن مقارب له.

نعم، بالنسبة لخبر قتل الحسين عليه السلام اختلف الأمر من هذه الجهة، ففي الوقت الذي امتاز فيه دمه الزكي بحرارة لا تبرد في قلوب المؤمنين أبداً راج خبر مقتله بسرعة في مساحة واسعة، وذلك يعود لموقع حدوثه والجيش المقابل، إذ ساهم كلا الأمرين في سرعة انتشاره في العراق، مضافاً إلى حركة السبايا وسرعة تسييرهم بمعيّة الإمام زين العابدين وعمّته زينب ‘ ، فكان عبورهم على البلدان بصورة ملفته وبرؤوس صرعاهم الـمُشرعة على أَسِنَّة الرماح ومكوثهم في الشام وما مارسه الإمام عليه السلام من إعلام مليء بالدلالات والاحتجاج

والإقناع والتأثير، يشكّل نافذة مرنة لنقل الحدث سريعاً ونشره، ففي الخبر:

«وابتزّوا ـ أي: من أرسلهم عبيد الله بن زياد لقتال الحسين ـ حرمه، وحملوهنّ إلى الكوفة، فلمّا دخلن إليها خرجت نساء الكوفة يصرخن ويبكين، فقال علي بن الحسين: هؤلاء يبكين علينا فمن قتلنا؟ وأُخْرِجَ عيال الحسين وولده إلى الشأم، ونُصِبَ رأسه على رمح»[٣٥].

أضف إليه رجوعه عليه السلام السريع إلى المدينة، ومواقفه المؤثّرة على أطرافها بما نَصب من خيام لحرمه كما الغرباء، ودفعه ببشر بن حذلم الشاعر المتمرّس القدير لإثارة أهلها، وإقامة النواعي والمراثي فيها، ونصب السيّدة زينب ÷ للمجالس بلا انقطاع، وإقامة أمّ البنين رضي الله عنها للمَراثي باستمرار في البقيع كبقعة حسّاسّة واستراتيجيّة في المدينة، بما فجّر الخبر في مناطق مختلفة شملت مكّة المكرّمة وغيرها في الحجاز، مضافاً لتردّد الإمام علي بن الحسين ' الرمز الأوّل عليها في مواسم الحج.

بل وما كان موقف أم سَلَمة إلا صاعقة إعلاميّة ارتجَّ لها أهل المدينة، فقد نقل المؤرّخون خبرها بقولٍ بَيِّنٍ جاء فيه:

«وكان أوّل صارخة صرخت في المدينة أم سلمة زوج رسول الله، كان دَفَعَ ـ أي: رسول الله ' ـ إليها قارورة فيها تربة ـ وكانت حسب النقل تربة من كربلاء ـ وقال لها: إنّ جبريل أعلمني أنّ أُمّتي تقتل الحسين، وأعطاني هذه التربة، وقال لي: إذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنّ الحسين قد قُتِل، وكانت عندها، فلمّا حضر ذلك الوقت جعلت تنظر إلى القارورة في كلِّ ساعة، فلمّا رأتها قد صارت دماً صاحت: واحسيناه! وابن رسول الله! وتصارخت النساء من كلّ ناحية، حتَّى ارتفعت المدينة بالرجّة التي ما سُمع بمثلها قَط»[٣٦]؛ فشكّل نعي زوجة رسول الله ' وبرهانها حركة إعلاميّة قويّة لانتشار الخبر وتأجيجه للنّفوس ونفوذه في الذوات الخامدة.

ولكنَّ هنالك نقطة مهمّة كانت تؤثّر على الموقف والتحرّكات يجب الالتفات إليها ضمن الإذعان بحقيقة انتشار خبر قتل الحسين عليه السلام بأقل قدر من الموانع، وهي أنّ الإعلام السريع كما كان يؤدّي دوراً إيجابيّاً في نقل الحدث المأساوي من الطف ونشره كان في ذات الوقت يؤدّي دوراً عكسيّاً يتلاءم مع فعليّة القسوة والإجرام في كربلاء وخارجها، وكثرة القتل والتهديد هنا وهناك.

فخبر كربلاء بجميع جرائمه ومآسيه الرهيبة، بما فيها قتْل الرضيع عَطِشاً على صدر أبيه، وحزّ رأس الحسين عليه السلام عطشاناً جنب الفرات المكتظّ بالماء، بعد قلبه على وجهه، وعلوِّ صدره الأقدس بنعل من حديد، وطحن صدره بحوافر الخيول، كان يحمل معه وحشيّة بني أميّة بما كان يوزّع في بعض النفوس حالة من الانقباض والخوف، تماماً كما كان يولّد في بعضها الآخر حرارة وألماً، ورغبة شديدة في المواجهة والتحرّك.

أمّا النفوس التي تولّدت فيها الغيرة ونفرت للاقتصاص والقتال منذعرة متألّمة، فكَوَّنت رايات وحرّكت قبائلها وأنصارها ومن ثارت ثائرته مثلها، فرايات زعمائها كانت متشتّتة متفرّقة لم تجمعها الحركة وإن جمعها السبب في بعض جهاته؛ لذا لمّا لم تجمعها راية واحدة ما كانت مؤهَّلة لحالة من هذا القبيل، فكانت بحاجة للابتعاد بها عن الوقوع في مثل ما وقع فيه القوم في معركة صفِّين وفي فترة صلح الإمام الحسن عليه السلام وفترة تحرّك الإمام الحسين عليه السلام من تمزّق وفتن وفشل، وهذا عين ما مارسه الإمام زين العابدين عليه السلام.

ففي الخبر التأريخي أنَّه في عهد مروان بن الحَكَم (الذي طرده عبد الله بن الزبير من الحجاز فذهب للشّام فتسلّط عليها وعلى العراق وغيرهما) وعبد الله بن الزبير (الذي تسمَّى بأمير المؤمنين ودعا لنفسه فتسلّط على الحجاز وأكثر المناطق في البلاد الإسلاميّة) «قام سليمان بن صُرد الخزاعي، والمسيّب بن نَجَبَة الفزّاري، وخرجا في جماعة معهما من الشيعة بالعراق، بموضع يقال له عين

الوردة[٣٧]،يطلبون بدم الحسين بن علي، ويعملون بما أمر الله به بني إسرائيل، إذ قال: {فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}[البقرة:٥٤]، واتّبعهم خلق من الناس، فوَجَّه إليهم مروان عبيد الله بن زياد، وقال: إن غلبت على العراق فأنت أميرها، فلقي سليمان بن صُرد، فلم يزل يحاربه حتَّى قتله، وقيل لم يُقْتَل سليمان في أيام مروان، ولكنّه قُتِل في أيّام [ابنه] عبد الملك»[٣٨].

هذا بالنسبة لراية سليمان بن صُرد والمسيّب بن نَجَبَة ومن خرج معهما من الناس، وهناك ثورات ورايات أخرى خرجت للمطالبة بدم الحسين عليه السلام كـ«ثورة التوّابين» المشهورة التي تزعّمها المختار بن أبي عُبيد الثقفي، والتي كانت أشوس وأشدّ الرايات على بني أميّة، فبعد أن مات مروان بن الحكم وهو في الحادية والستّين من العمر في سنة ٦٥هـ بعد حكم دام تسعة أشهر خَلَفَ بعده ابنه عبد الملك، بينما بَقِيَ عبد الله بن الزبير سلطاناً على ما في يده من البلاد بما فيها الكوفة في الوقت الذي «كان المختار بن أبي عُبيد الثقفي أقبل في جماعة عليهم السلاح، يريدون نصر الحسين بن علي، فأخذه عُبيد الله بن زياد، فحبسه، وضربه بالقضيب، حتَّى شتر عينه، فكتب فيه عبد الله بن عمر إلى يزيد بن معاوية، وكتب يزيد إلى عبيد الله: أن خلِّ سبيله، فخلَّى سبيله، ونفاه، فخرج المختار إلى الحجاز، فكان مع ابن الزبير، فلمّا لم يرَ ابن الزبير يستعمله شَخَصَ إلى العراق، فوافَى وقد خرج سليمان بن صرد الخزاعي يطلب بدم الحسين، فلمّا صار إلى الكوفة اجتمعت إليه الشيعة، فقال لهم: إنَّ محمّد بن علي بن أبي طالب بعثني إليكم أميراً، وأمرني بقتل المحلّين، وأطلب بدماء أهل بيته المظلومين، وإنّي والله قاتل ابن مرجانة، والمنتقم لآل رسول الله ممّن ظلمهم، فصدّقه طائفة من الشيعة، وقالت طائفة: نخرج إلى محمّد بن علي فنسأله، فخرجوا إليه، فسألوه، فقال: ما أَحبَّ إلينا مِن طلبٍ بثأرِنا، وأخذٍ لنا بحقِّنا، وقتْلِ عدوّنا، فانصرَفوا

إلى المختار، فبايَعوه وعاقَدوه، واجتمعت طائفة. وكان ابن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة، فجعل يطلب الشيعة ويخيفهم، فواعد المختار أصحابه، ثمّ خرجوا بعد المغرب، وصاحب الجيش إبراهيم بن مالك بن الحارث الأشتر، ونادَى: يا لثارات الحسين بن علي! وكان ذلك سنة ٦٦هـ، والْتَحَمَ القتال بينهم وبين عبد الله بن مطيع، وكانت أشدَّ حربٍ وأصعبها، ثمَّ صار ابن مطيع إلى القصر ودعا الناس إلى البيعة، فبايعوا لآل رسول الله، ودفع المختار إلى ابن مطيع مائة ألف، وقال له: تحمل بها وانفذْ لوجهك. وسرَّح المختار عمّاله إلى النواحي، فأخرجوا من كان فيها، وأقاموا بها، وكان عامل المختار على الموصل عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني ـ وهو من أشرف اليمانيّين من شِبام وسيّد قومه ـ فزحف إليه عُبيد الله بن زياد، بعد قتله سليمان بن صُرد، فحاربه عبد الرحمن، وكتب إلى المختار بخبره، فوجَّه إليه يزيد بن أنس، ثمَّ وجَّه إبراهيم بن مالك بن الحارث الأشتر، فلقي عُبيد الله بن زياد فقتله، وقتل الحصين بن نمير السكوني، وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري، وحرق أبدانهما بالنار، وأقام والياً على الموصل وأرمينية وأذربيجان من قبل المختار وهو على العراق والٍ... وتَتَبَّع المختار قتلة الحسين، فقتل منهم خلقاً عظيماً، حتَّى لم يبقَ منهم كثير أحد، وقتل عمر بن سعد وغيره، وحرق بالنار، وعذَّب بأصناف العذاب»[٣٩].

فالمختار ـ بغضّ النظر عمّا نُسِبَ إليه من تشويه في سيرته ـ وإن قام بأفعال حسنة وانتصر لعترة رسول الله ' ، وأخذ بالحق من الظالم للمظلوم، إلا أنّ رايته وراية غيره ما كانت تحت إدارة الإمام عليه السلام وتوجيهه، في الوقت الذي لم تتّحد فيه تلك الرايات في حركة واحدة.

وهكذا الأمر بالنسبة للراهب (في الحادثة المشهورة) الذي وقع رأس الحسين عليه السلام في يده، فأخذه إلى بيته، فطيَّبه، ووقع له ما وقع، فأسلم، وثارت ثائرته، فشدَّ حزامه واعتزل طعامه وانتفض مع سبعين رجلٍ من تلامذته الذين

تبعوه في اعتناق الإسلام، متوجِّهاً بهم للإمام عليه السلام يسأله في أمر الخروج لقتال المعتدين، فهدّأ عليه السلام من روعهم وأمرهم بالسكون واعتزال ذلك.

بل إذا وسّعنا الحلقة ونظرنا لمجموع الحركات التي خرجت على بني أميّة لا لخصوص الرايات التي خرجت للمطالبة بدم الحسين عليه السلام؛ فسنلاحظ واقعيّة التشتّت في تلك الحركات المتعدّدة.

وبعبارة أخرى: تارة ننظر للحركات التي خرجت في هذه المرحلة بخصوصيّة كونها تهدف للمطالبة بدم الحسين عليه السلام المظلوم والأخذ بحق أهل البيت عليهم السلام الموصَى به في الكتاب والسنّة عند كافّة المسلمين، وتارة ننظر لها بصورة عامّة تشمل جميع التحرّكات المواجهة للأمويّين.

وقد تقدّم الأمر في الشكل الأوّل، وفيما يلي نتحدّث عن الشكل الثاني.

المانع الخامس: تشتّت الرايات المواجهة لحكم بني أميّة بعيداً عن خط أهل البيت عليهم السلام:

أمّا الشكل الثاني فنلحظ فيه حركة عبد الله بن الزبير الذي كان يدعو لنفسه في فترة يزيد وما بعدها، بالدرجة التي جلب فيها الخراب والدمار على حرم الله في مكّة، بينما كان الحسين عليه السلام يَتجنّب ذلك ويتحاشاه، ويرفض القتال فيه وفي حرم رسول الله في المدينة حفاظاً على حرمتيهما من يزيد العنجهي المتهوّر كما أشرنا في رسالة عبد الله بن عبّاس، ممّا دفعه عليه السلام للخروج مضطرّاً للعراق في ظرف كان حساب الخروج فيه هو الأدقّ.

فممّا ورد عن ابن عبّاس في برقيَّته الجوابيّة ليزيد يوم فَرِحَ برفضه لبيعة ابن الزبير ومعارضته له في مكَّة فامتدحه وأثنَى عليه، فكرِه منه ذلك:

«من عبد الله بن عباس إلى يزيد بن معاوية.

أمّا بعد، فقد بلغني كتابك بذكر دعاء ابن الزبير إيّاي إلى نفسه وامتناعي

عليه في الذي دعاني إليه من بيعته، فإن يكُ ذلك كما بلغك، فلستُ حمدك أردتُ، ولا ودّك، ولكنَّ الله بالذي أنوي عليم... وما أنسَ من الأشياء، فلستُ بناسٍ اطْرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله[٤٠]،ودسّك إليه الرجال تغتاله، فأشخصتَه من حرم الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يَتَرَقَّب، وقد كان أعزَّ أهل البطحاء بالبطحاء قديماً، وأعزَّ أهلها بها حديثاً، وأَطْوَعَ أهل الحرمين بالحرمين لو تَبوَّأَ بها مقاماً واستَحلَّ بها قِتالاً، ولكنْ كَره أن يكون هو الذي يَستحلّ حرمة البيت وحرمة رسول الله، فأَكْبَرَ من ذلك ما لم تُكْبِر حيث دسستَ إليه الرجال فيها ليقاتل في الحرم، وما لم يُكْبِر ابن الزبير حيث أَلْحَدَ بالبيت الحرام وعرَّضه للعائر[٤١] وأراقل العالم»[٤٢].

فحركة عبد الله بن الزبير بن العوّام التي اتّسعت فيما بعد فمكّنته من التسلّط على أغلب بقاع الدوّلة الإسلاميّة، كانت تشكّل حركة أخرى في عرض تلك الحركات المطالبة بدم الحسين عليه السلام.

فقد جاء في ذكر أحداث سنين يزيد بن معاوية وسنة وفاة ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: «كان عبد الله بن الزبير بن العوّام، وأمّه أسماء بنت أبي بكر، قد تغلَّب على مكّة، وتسمَّى بأمير المؤمنين، ومال إليه أكثر النواحي، وكان ابتداء أمره في أيّام يزيد بن معاوية، على ما اقتصصنا من خبره، ومحاربته للحصين بن نمير، فلمّا توفِّي يزيد بن معاوية مال الناس من البلدان جميعاً إلى ابن الزبير، وكان بمصر عبد الرحمن بن جحدم الفهري عاملاً لابن الزبير، وأهل مصر في طاعته، وبفلسطين ناتل بن قيس الجذامي، وبدمشق الضحّاك بن قيس الفهري، وبحمص النعمان بن بشير الأنصاري، وبقنّسرين والعواصم زفر بن الحارث الكلابي، وبالكوفة عبد الله بن مطيع [الذي سبق أن ذكرنا خبره في التضييق على المختار الثقفي ومن معه] وبالبصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وبخراسان عبد الله بن خازم السلمي، ولم تبقَ ناحية إلا مالت

إلى ابن الزبير خلا الأردن، ورئيسها يومئذ حسّان بن بجدل الكلبي (أخو أُم يزيد). وأخرج ابن الزبير بني أميّة من المدينة، وأخذ مروان بالخروج، فأتَى عبد الملك ابنه، وهو عليل مُجدر[٤٣]،فقال له: يا بُنَيَّ أنّ ابن الزبير قد أخرجني! قال: فما يمنعك أن تخرجني معك؟ قال: كيف أخرجك وأنت على هذا الحال؟ قال: لفّني في القطن، فإنَّ هذا رأي لم يتعقّبه ابن الزبير [أي لم يلتفت لمخاطره] فخرج وأخرج عبد الملك، وتعقّب ابن الزبير الرأي، فعلم أنّه قد أخطأ، فوَجَّه يردّهم ففاتوه.

وقدم مروان، وقد مات معاوية بن يزيد، وأمْرُ الشأم مضطرب، فدعا إلى نفسه، واجتمع الناس بالجابية من أرض دمشق، فتناظروا في ابن الزبير وفيما تقدّم لبني أميّة عندهم ـ حيث طردهم وأذلّهم ـ وتناظروا في خالد بن يزيد بن معاوية، وفي عمرو بن سعيد بن العاص بعده، وكان روح بن زنباع الجذامي يميل مع مروان، فقام خطيباً، فقال: يا أهل الشأم! هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، والطالب بدم عثمان، والمقاتل لعلي بن أبي طالب يوم الجمل، ويوم صفِّين، فبايعوا الكبير، واستنيبوا للصّغير [أي اجعلوا ولاية العهد والخلافة له من بعده] ثمّ لعمرو بن سعيد؛ فبايَعوا لمروان بن الحكم، ثمّ لخالد بن يزيد، ثمّ لعمرو بن سعيد، فلمّا عقدوا البيعة جمعوا من كان في ناحيتهم، ثم تناظروا في أيِّ بلدٍ يقصدون...»[٤٤].

المانع السادس: تضييق أعداء بني أميّة على بني هاشم:

أضف إلى هذا عاملاً آخر شديد الأهمّيّة، وهو أنّ عبد الله بن الزبير في الوقت الذي فتح فيه باباً جديداً على الأمّة مليئاً بالمحن والفتن بطرده مروان بن الحكم وابنه عبد الملك من الحجاز الذي اضطرّه وفتح له المجال ليعيد دولة بني أميّة من جديد وينعش كيانها ويسلّط فيها أبناءه وأحفاده لاحقاً، حيث صار حكّام

الدولة بعد مروان ابنه عبد الملك ثمّ أبناء عبد الملك، ففي هذا الوقت كان ـ أعني: ابن الزبير ـ يتحرّك في سلطانه على أساس قمع بني هاشم وأنصارهم، والتحامل عليهم ومحاربتهم والتشفّي لغيظه تجاه أمير المؤمنين عليعليه السلام ممّا أنزله بأتباع الجَمل الناكثين في معركة الجَمل بما فيهم والده الزبير وعمّه طلحة، وهو ابن أسماء بنت الخليفة الأوّل أبي بكر، فقد نقل التأريخ شواهد كثيرة على ذلك نذكر منها:

أوّلاً: تركه الصلاة على محمّد ' في خطبته، فقد ورد في كتب التأريخ: «وتحامَل عبد الله بن الزبير على بني هاشم تحاملاً شديداً، وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتَّى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمّد في خطبته، فقيل له: لم تركت الصلاة على النبي؟! فقال: إنّ له أهل سوء يشرئبّون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به»[٤٥]؛ يريد بذلك بني هاشم.

وهل كان الإمامعليه السلام إلا أبرز رموز بني هاشم وواجهة هذه الذرّيّة الطاهر، خصوصاً وأنّه كانت له موقعيّة بين الناس؟

ثانياً: حبسه لمحمّد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحَنفيّة مع عبد الله بن عبّاس (جليل الحجاز وصحابي رسول الله ') وأربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم، فهو لمّا عرض عليهم البيعة وأجبرهم عليها فرفضوا مبايعته، مارس تجاههم أشدّ الخِراب، كما فعل مع أهل الشام بمنعه لهم من الحج، بسبب عرضه البيعة عليهم وإجباره إيّاهم عليها، لحتَّى اضطرَّ عبد الملك بن مروان لأن يصنع لهم كعبةً في الشام يحجّون إليها ويطوفون حولها بدل بيت الله المكّي المحرَّم! فقد أورد المؤرّخون في كتبهم ما يلي:

«وأَخذَ ابن الزبير محمّد بن الحنفيّة، وعبد الله بن عبّاس، وأربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم ليبايعوا له، فامتنعوا، فحبسهم في حجرة زمزم، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو ليبايعُنَّ أو ليحرقنّهم بالنار، فكتب محمّد بن الحنفيّة إلى

المختار بن أبي عبيد: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد بن علي ومَن قِبَله من آل رسول الله إلى المختار بن أبي عبيد ومَن قِبَله من المسلمين، أمّا بعد، فإنّ عبد الله بن الزبير أخذنا، فحبسنا في حجرة زمزم، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو لنبايعنّه، أو ليضرمنّها علينا بالنار، فيا غوثاً! فوَجَّه إليهم المختار بن أبي عبيد بأبي عبد الله الجدلي في أربعة آلاف راكب، فقدم مكّة، فكسر الحجرة، وقال لمحمّد بن علي: دعني وابن الزبير! قال: لا أَسْتِحِلُّ مِن قَطْعِ رحمه ما استَحَلَّ منِّي»[٤٦].

ثالثاً: تهجّمه على علي بن أبي طالب عليه السلام (وليد الكعبة وأوّل المؤمنين ونبراس الصحابة وأعلمهم) في حضرة المسلمين في حرم الله مكّة المشرّفة، ونيله منه في خطبه بكلام بذيء يستحي المسلم أن يذكره! ولكن نذكر شاهد فعله لذلك بصورة عامّة، فقد ورد في كتب التأريخ: «أنّ ابن الزبير قام خطيباً فنال من علي بن أبي طالب!»[٤٧].

رابعاً: تهجّمه على محمّد بن الحَنفيّة لمّا قام خطيباً يدافع عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام في حرم الله تعالى مكّة المكرّمة في قِبال ما قاله في علي بن أبي طالب عليه السلام ونال به منه وتحامل به عليه! حيث وصف محمّداًبكلمات بذيئة وتحامل عليه بعبارات التعيير وهو من مفاخره، ففي الخبر: «وبلغ محمّد بن علي بن أبي طالب أنّ ابن الزبير قام خطيباً فنال من علي بن أبي طالب، فدخل [يعني محمّد] المسجد الحرام، فوضع رحلاً، ثمّ قام عليه، فحمد الله وأثنَى عليه، وصلَّى على محمّد ' ، ثمّ قال: شاهَت الوجوه، يا معشر قريش، أيقال هذا بين أظهركم وأنتم تسمعون، ويُذكر عليٌّ فلا تغضبون؟ ألا إنّ عليّاً كان سهما صائباً من مرامي الله أعداءه، يضرب وجوههم، ويهوعهم مآكلهم، ويأخذ بحناجرهم، ألا وإنّا على سننٍ ونهجٍ من حاله، وليس علينا في مقادير الأمور حيلة، وسيَعْلَم الذينَ ظَلموا أيَّ مُنقلبٍ يَنقلبون. فبلغ قوله عبد الله بن الزبير،

فقال: هذا عذرة بني الفواطم[٤٨]،فما بال ابن أَمَةِ بني حنيفة؟ وبلغ محمّداً قوله، فقال: يا معاشر قريش وما ميَّزني من بني الفواطم[٤٩]؟أليست فاطمة ابنة رسول الله حليلة أبي وأُم إخوتي؟ أوَليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدّتي وأُم أبي؟ أليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم جدّة أبي وأُم جدّتي؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد لما تركت في أسد عظماً إلا هشّمته، فإنّي بتلك التي فيها المعاب بصير»[٥٠].

خامساً: طرده لبني هاشم من مكّة بما فيهم محمّد بن الحنفيّة مع عبد الله بن عبّاس فقيه الحجاز ومفسّرها، بعد أن عجز عن هذه الذرّيّة الطاهرة وعن أبطالها وشجعانها، فأدرك خشونة لحومهم وعزّتهم وشموخهم، وهو العارف بهم الخبير بمعاليهم، حيث أشخصهم إلى خارجها إشخاصاً قبيحاً! فقد جاء في النص التأريخي:

«ولّما لم يكن بابن الزبير قوّة على بني هاشم، وعجز عمّا دبَّره فيهم، أخرجهم عن مكّة، وأخرج محمّد بن الحنفيّة إلى ناحية رَضْوَى[٥١]،وأَخرَج عبد الله بن عبّاس إلى الطائف إخراجاً قبيحاً!»[٥٢].

وهذا عين ما دفع محمّد بن الحنفيّة لمكاتبة ابن عبّاس وتسليته في مصابه الجلل هذا وغيره، حيث «كتب محمّد بن الحنفيّة إلى عبد الله بن عبّاس: أمّا بعد، فقد بلغني أنّ عبد الله بن الزبير سيّرك إلى الطائف، فرفع الله بك أجراً، واحتطَّ عنك وزراً، يا ابن عم، إنّما يُبتلَى الصالحون، وتُعدّ الكرامة للأخيار، ولو لم تؤجَر إلا فيما نحب وتحب قَلَّ الأجر، فاصبرْ فإنَّ الله قد وعد الصابرين خيراً، والسلام»[٥٣].

و«روَى بعضهم أنّ محمّد بن الحنفيّة صار أيضاً إلى الطائف، فلم يزل بها، وتوفّي ابن عبّاس بها في سنة ٦٨هـ، وهو ابن إحدى وسبعين سنة، وصلّى عليه محمّد بن الحنفيّة، ودفن عبد الله بن عباس بالطائف في مسجد جامعها، وضرب

عليه فسطاط[٥٤]،ولّما دُفن أتى طائر أبيض فدخل معه قبره، فقال بعض الناس: عِلْمُه، وقال آخرون: عَمَلُه الصالح. قال عبد الله بن عبّاس: أردفني رسول الله، ثمّ قال لي: يا غلام! ألا أعلّمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى! يا رسول الله، قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، أذكر الله في الرخاء يذكرك في الشدّة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جفَّ القلم بما هو كائن، ولو جَهد الخَلق على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لم يقدروا عليه، ولو جَهدوا على أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فعليك بالصدق في اليقين، إنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلمْ أنّ النصر مع الصبر ، وأنّ الفَرَجَ مع الكرب، وأنّ مع العُسر يسراً»[٥٥].

هذا وفي المانع التالي شكل سادس لتضييقه على بني هاشم.

المانع السابع: محاربة ابن الزبير للتّوّار المطالبين بدم الحسين:

لقد مارس عبد الله بن الزبير نوعاً آخر من العدوان على بني هاشم، وذلك يكمن في محاربته الممتدّة لشيعة أهل البيت عليهم السلام، وإحباطه المستديم للحركات التي خرجت للمطالبة بدم سبط رسول الله ' المظلوم، وتشويه سِيَر قادتها، وعلى رأسهم المختار الثقفي، لحتَّى أن نكّل بهم أي تنكيل، وشتّت جموعهم فأنزل بهم المَهالك، ففي الأثر: «وَجَّه عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير إلى العراق، فقدمها سنة ٦٨هـ، فقاتله المختار، وكانت بينهم وقعات مذكورة، وكان المختار شديد العلّة من بَطَنٍ[٥٦] به، فأقام يحارب مصعباً أربعة أشهر، ثمّ جعل أصحابه يتسلّلون منه حتَّى بقي في نفر يسير، فصار إلى الكوفة، فنزل القصر، وكان يخرج في كل يوم، فيحاربهم في سوق الكوفة أشد محاربة، ثمّ يرجع إلى القصر.

وكان عُبيد الله بن علي بن أبي طالب مع مصعب بن الزبير، فجعل مصعب

يقول: يا أيّها الناس، المختار كذّاب [يريد أن يشوّه سمعته ويشكّك في نواياه بفعل مواقفه المشرّفة مع ابن عبّاس وبني هاشم] وإنّما يغرّكم بأنّه يطلب بدم آل محمد! وهذا ولي الثأر، يعني عُبيد الله بن علي، يزعم أنّه مبطل فيما يقول.

ثمّ خرج المختار يوماً، فلم يزل يقاتلهم أشدَّ قتال يكون، حتَّى قُتِل، ودخل أصحابه إلى القصر فتحصّنوا، وهم سبعة آلاف رجل، فأعطاهم مصعب الأمان، وكتب لهم كتاباً بأغلظ العهود، وأشدِّ المواثيق، فخرجوا على ذلك، فقدّمهم رجلاً رجلاً فضرب أعناقهم! فكانت إحدى الغدرات المذكورة المشهورة في الإسلام. وأخذ أسماء بنت النعمان بن بشير امرأة المختار، فقال لها: ما تقولين في المختار بن أبي عُبيد؟ قالت: أقول إنّه كان تقيّاً، نقيّاً، صوّاماً. قال: يا عدوّة الله أنتِ ممّن يزكّيه! فأمر بها فضرب عنقها، وكانت أوّل امرأة ضرب عنقها صبراً، فقال [الشاعر القرشي المعروف الذي ولِد في ليلة وفاة عمر بن الخطّاب فسمّيَ باسمه] عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إنَّ من أعجب العجائب عندي ... قتل بيضاءَ حرّةٍ عُطْبُولِ[٥٧]
قتلوها بغير جرْم أتتهُ ... إنَّ لله درّها من قتيل
كُتِب القتلُ والقتال علينا ... وعلى الغانياتِ جرّ الذيولِ[٥٨]

فعبد الله بن الزبير الذي لم يكتفِ بهذه الفعال والمفاسد، حيث حسد أخاه مصعب [الذي قتله عبد الملك بن مروان في حروبه مع عبد الله بن الزبير] بعد أن قتل المختار واستقام له أمور العراق فوَجَّه إليه ابنه حمزة ليصرف أمر البصرة إليه رغم كون حمزة ـ كما ورد عنه ـ كان أضعف الناس وأقلّهم علماً بالأمر، ممّا اضطرّه للعودة إلى مكّة بعد أن اجتبَى خراج البصرة، فعبد الله بن الزبير كان في تذبذبه لا ينكفئ حتّى عن قتل أخيه عمرو لعداوة كانت بينهما لمبايعته لمروان بن الحكم! فقد ورد في بيان ذلك: «فلمّا قَتل مصعب بن الزبير المختار، واستقامت

له أمور العراق، حسده عبد الله بن الزبير على ذلك، فوَجَّه حمزة ابنه إلى البصرة، وكتب إلى مصعب أن يصرف أمر البصرة إلى حمزة، ففعل ذلك، فكان حمزة من أضعف الناس، وأقلّهم علماً بالأمر، ثمّ اجتبَى خراج البصرة، ونفذ إلى أبيه إلى مكّة. ووفدَ مصعب على أخيه عبد الله فجفاه حتّى كان لَيدخل فيسلِّم فلا يرفعه، فلمّا قدم على عبد الله ابنه حمزة ردّ مصعب إلى العراق، وقتل عبد الله بن الزبير أخاه عمرو بن الزبير لعداوة كانت بينه وبينه، ولمبايعته لمروان بن الحكم، وقيل: إنّه كان على شرطة عمرو بن سعيد، فوَجَّه به عمرو لمحاربة أخيه فقتله!»[٥٩].

كما كان حادّاً في رعيّته مُقْبِضاً، وقد مرّ عبد الله بن عمر على عبد الله بن الزبير وهو مصلوب في مكّة بعد أن نكّس الحَجّاج بن يوسف الثقفي رايته وذلّه شرّ ذلّة في عهد عبد الملك بن مروان في سنة ٧٣هـ، فقال: «يرحمك الله، أبا خُبَيب، لولا ثلاث كنَّ فيك لقلتُ أنتَ أنت: إلحادك في الحرم، ومسارعتك إلى الفتنة، وبُخْل بكفِّك، وما زلتُ أتخوّف عليك هذا المركب وما صرتَ إليه، مذ كنتُ أراك ترمق بغلات شهباً كنَّ لابن حرب، فيعجبنك، إلا أنّه كان أسوس لدُنْياه منك»[٦٠].

وهو القائل يعيِّر أصحابه لمّا تثاقلوا عن نصرته في مواجهته مع الحَجّاج بن يوسف وملّوا حروبه وفعاله فيهم: أَكلتم تمري وعَصيتم أمري، فالرواية التأريخيّة هكذا جاءت: «ورأَى ابن الزبير من أصحابه تثاقلاً عنه، وكان يجري لهم نصف صاع من تمر، فقال: أكلتم تمري، وعصيتم أمري! وكان شديد البخل»[٦١].

المانع الثامن: (كثرة الحروب التي مُنِيَتْ بها الأمّة خلال هذه المرحلة):

هذا ومن العوامل المانعة لسلِّ السيف ما وقع بين مروان وعبد الله بن الزبير

من حروب طويلة طاحنة أكلت الأرواح وذهبت بالنفوس، تلك الحروب التي امتدّت لفترة عبد الملك بن مروان مع الحَجّاج وغيره من ولاة بني أميّة في قِبال ابن الزبير الذي جنا مرّة أخرَى على بيت الله الحرام عندما قاتله الحَجّاج، إلى أن قُتِل (ابن الزبير) هناك.

فهذه الحروب الطاحنة الطويلة كان لها من الأثر السلبي الشيء الكبير في إيجاد حالة من الإرباك في الوضع الداخلي وعدم القدرة على ضبطه وتنظيمه، ولو اطّلعتَ على كثرتها وحوادثِها لرأيتَ العَجبَ العُجاب!

المانع التاسع: جشع النفوس والقبائل في الحكم والتكالب على الإمرة والخلافة:

ومن العوامل المهمّة أيضاً ابتلاء الأمّة خلال هذه المرحلة بطولها بطمع النفوس الراغبة في التسلّط والملك والخلافة، فبينما يُقضَى من الجهاز الحاكم بكلا شقَّيه الأموي والزبيري على حركة متمرّدة هنا يريد رؤوسها الاستيلاء على البلاد، تفغر فاغرة أخرَى في بقعة أخرَى، لينشغل بها الجهاز الحاكم فتعود المنطقة السابقة لما كانت فيه من هَرَج ومَرَج بما يحتاج سرده لمجلّدات من الكتب!

ويكفيك أنّه «في هذه السنة [٦٨هـ] وقفت أربعة ألوية بعرفات: محمّد بن الحنفيّة في أصحابه، وابن الزبير في أصحابه، ونجدة بن عامر الحروري[٦٢]، ولواء بني أميّة، وقال المساور بن هند بن قيس[٦٣]:وتشعَّبوا شُعَبَاً، فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين!»[٦٤].

المانع العاشر: اتّساع رقعة الخوارج في المناطق وتربّصهم بالمسلمين وآل علي عليه السلام وآل أميّة:

ومن العوامل المهمّة أيضاً ابتلاء الأمّة بالخوارج وفرَقِهم لا سيّما فرقة الأزارقة منهم التابعة لنافع بن الأزرق والمتسمّية باسمه، وصولات هذه الجماعات في منطقة البحرين ومختلف نواحي البلاد الإسلاميّة، وتنقّلها من مكان إلى آخر، وشدّة بأسها وعنادها واستبسالها ومكوثها على المواجهات مع الجهاز الحاكم، فضلاً عن عدائها الواضح لعلي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته وكافّة بني هاشم!

المانع الحادي عشر: بقاء المنافقين وكثرتهم وعدم إنابة قتلة الحسين عليه السلام:

أضف إليه ما قلناه من كون الكثرة الغالبة في الوجود في ظلِّ تلك المساحة من الأرض لتلك الجماعة التي غدرت بالحسين عليه السلام وخانته وقتلته، والجماعة التي أنكر الإمام عليه السلام عند سبيه للكوفة على نسائها عندما بكين عليهم كما ذكرنا سابقاً، وبطانة المختار الثقفي التي اخترقها المنافقون، فأخذوا يتسلّلون من جيشه خلال مواجهته لمصعب بن الزبير الذي غَدر بسبعة آلاف من ذلك الجمع كما رأيت في الخبر، وكذا جماعة السلطة الغاصبة المنتشرة في كل مكان، فضلاً عن جماعة الشتم التي كانت تسبّ عليّاً عليه السلام مئة عام على المنابر سيراً على سنّة معاوية، بما يعني العَود لنفس ما قلناه في بداية هذا العنوان، مضافاً لما ذكرناه في خبر الزهري من عدم وجود الناصر الثابت الحقيقي الحقيق بالجهاد وغير ذلك ممّا يلي.

الموانع وفق حركة الإمام عليه السلام بمفرده على غرار حركة أبيه الحسين عليه السلام:

قد يقال: كان سلّه عليه السلام للسيف ولو بمفرده يماثل سلّ الحسين عليه السلام للسيف،

ويصبّ في نفس غايات أبيه، فلِمَ لم يختر هذا الطريق في هذه المرحلة بدل غيره، فلا حاجة له بأهل الحجاز ولا غيرهم، كما لم يكن للحسين عليه السلام اعتماد عليهم في حركته؟

وهنا نذكر عدّة عوامل مهمَّة تلوح بهما المؤشّرات الواقعيّة تجاه حركة الإمام عليه السلام فيما لو سلك دوره في هذه المرحلة على أساس القتال والمواجهة بمفرده على غرار مواجهة أبيه الحسين عليه السلام بعيداً عن الحراك الجَمْعي الواسع، فالحديث في مَحْضر الإجابة على هذا القول كما يلي:

العامل الأوّل: حركة أئمّة أهل البيت عليهم السلام على أساس سِلْمي ما لم تجبرهم الظروف:

إنّ الحسين عليه السلام ـ كما أسلفنا ـ ما كان خارجاً للحرب، فخروجه لمكّة للحج كان سلميّاً، إلا أنّ الحرب فرضت عليه فرضاً، فقُسِرَ على الخروج من مكّة حتّى حوَّل حجّه لعمرة مفرَدة مسرعاً في خروجه ليحافظ على البيت وحرمته، وإلا وقع به ما لم يرتدع عنه يزيد لاحقاً من هدم الكعبة وإسفار مكّة وغيره ممّا بيّنّا.

وفي المقابل، ما كان الإمام علي بن الحسين ' يمرّ بظرف من هذا القبيل بالدرجة التي تجبره على ترك مبدأ السلْم على هذا المستوَى كما هو واضح.

العامل الثاني: الحاجة الماسّة لوجود الإمام السجاد عليه السلام بالخصوص وتوجيهه للأمّة:

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الأمّة كانت بحاجة ماسّة لوجود شخص كالإمام زين العابدين عليه السلام؛ لأنّ دم الحسين عليه السلام الذي هُدر كان بحاجة لتوجيه دقيق، ولتصحيح حركة الأمّة في تلقّي حدثه والانفعال معه، ووجود الإمام عليه السلام بالذات يمثّل الحصن الأكبر لتحقيق هذا الهدف كونه: ١ـ ابن الحسين عليه السلام، ٢ـ والأولى بدمه، ٣ـ ودماء الهاشميّين ممّن كانوا معه، ٥ـ ودماء أصحابه كشيعة يعتقد ذووهم بإمامته، ٥ـ وأحد الشخصيّات المهمّة التي

حضرت مَقْتَل سبط الرسالة وأحداث الطفّ وذاقت مَواجعها، ٦ـ وأَعْلَمَت إعلاماً واسعاً عنها، ٧ـ وأَرَّخَت لها.

وما سعي الحسين عليه السلام في كربلاء للحفاظ على حياة وبقاء هذا الفرد بالخصوص من بين شباب الطف، وسعي زينب ÷ خلال مسيرة الشام لذلك إلا حقيقة مبرهِنة على هذا الأمر المهمّ. فالإمام زين العابدين كان بقاؤه ضروريّاً لمواصلة المسيرة وتحقيق أهدافها، لا العكس وهو استشهاده وتقديم دمه حسب معطيات الجهة التالية، فهو لم يكن لدى أيّ أحد في ذلك الوقت مؤهِّليّة لأن يسدّ الفراغ الذي سيخلّفه غيابه فيما لو وقع ذلك.

وهذا بذاته يشكّل مانعاً آخر من موانع الحِراك الجمعي أيضاً، وذلك فيما لو وقع بصورة غير مدروسة وأدَّى سريعاً لمثل هذه النتيجة المولِّدة لهذه الآثار الوخيمة.

العامل الثالث: عدم تحقيق أهداف جديدة وهدم أهداف كربلاء:

ومن جهة ثالثة، ما كانت حركته بهذه الطريقة ستحقّق هدفاً جديداً، ولن تؤكّد غايات أبيه، بل وستصبّ في مصبّ الهدم لتلك الأهداف والجهود، كما كانت أيّة حركة من هذا القبيل حسب الفرض المذكور، وكذا حسب المعطيات وقتذاك (بغضّ النظر عن التدخّلات الغيبيّة الواجبة الإيمان) تعطي احتمالاً كبيراً بأنّها ستنتهي بموت قائدها، ليبقى دم القائد ومن معه يأخذ مجراه ويؤدّي دوره في النفوس، بينما هذا لن يغيّر في الأمر شيئاً ولن يفيد مكسباً جديداً؛ وذلك للسبب الذي سنذكره في العامل التالي.

العامل الرابع: تأدية دم الحسين عليه السلام لدورٍ لا يَتعالَى عليه دور أيِّ دمٍ آخر:

ومن جهة رابعة، إنّ دم الحسين عليه السلام أدّى دوره الكبير بأعلى درجاته على صعيد صحوة الأمّة بشكل كامل في حدود أهدافه المرادة بلا حاجة لما يضاف إليه، بما يعني أنّ أيّ دمٍ يُهدر بعد دمه لن يكن ذا أثرٍ يُعتدّ به في ذلك الوقت

بتلك الدرجة، فحرارة دم الحسين في وجدان المسلمين لا يمكن لدم آخر أن يحقّقها ولو كان نفس دم ابنه الإمام السجّادعليه السلام؛ لأنّ مكانة الحسينعليه السلام لا شكّ كانت أكبر امتداداً وأوسع نفوذاً تبعاً لرفعة منزلته فيهم بما يمثّله نسبه وأحاديث رسول الله ' الكثيرة فيه ومواقفه العظيمة تجاهه، وما دام لا يحقّق الدم الواحد بعد دمه ما يكون بالمستوى المطلوب في الإمام، فإنّ الركون لخيار من هذا الشكل بلا شكٍّ ليس هو الخيار الأفضل ما دام لا جابر عليه.

وبالتالي: فإنّ فرض تحريك الدم الجديد لوجدان الأمّة أكثر فأكثر سيكون فرضاً شكليّاً لا واقع له، خصوصاً في ظلّ حاجة الأمّة لوجود الإمام بينها أكثر من وجود تلك الآثار التي سيسْفِر عنها دمه الطاهر.

العامل الخامس: إحداث فوضَى واسعة في الأُمّة:

ومن جهة خامسة، فإنّه في مقابل هدم مثل هذا التوجّه لأهداف وغايات كربلاء كان تحرّكه عليه السلام، لو وقع، سيُحدث فوضىً كبيرة في صفوف الأمّة؛ بسبب الرايات المختلفة التي خرجت وقد تخرج وتتكاثر بصورة عفويّة غير منظَّمة بحيث تكون درجة عُسْر السيطرة عليها أشد ممّا هي عليه، خصوصاً وأنّها كانت بحاجة للتوعية والتوجيه بعد ما نالته من جرعة الصحوة وأثر الهزّة قبل أيّ دخول في خيار من هذا النوع، فحمل السلاح على أكتاف لا تحظى بذلك يأتي بنتائج سلبيّة كما هو واضح وكما بَيَّن الإمامعليه السلام للزّهري في ردّه عليه كما مرّ.

العامل السادس: انفتاح باب واسع للتشويش وتشويه حركة الإمام السجّادعليه السلام:

ومن جهة سادسة سيكون هذا التحرّك في ظلّ نهايته المميتة وما سيؤول فيه بأصحابه للشهادة ذا صورة قابلة لمختلف ألوان التشويه؛ إذ أقلّ ما سيقال فيه بصورته المتهوّرة المفهومة لدى بعض العقول البعيدة عن فهم الإمامعليه السلام ـ في

فرض اتّخاذه لمثل هذا القرار والتحرّك الجهادي الفرديّ ـ بأنّه تصرّف غير عقلانيّ؛ لأنّه سلوك كان الظرف فيه لا يخدم صاحبه، وأنّه عليه السلام لم يتحرّك لأجل الدين، وإنّما لأجل أبيه وعرقه وقوميّته وقبيلته، وبهذا سينفتح الطريق أيضاً للتشكيك ولإعلام الطاغية يزيد وغيره ضدّ أهل البيت عليهم السلام وسيخدمهم كثيراً.

ردُّ القول بأنَّ دم الحسين عليه السلام كان بذاته يدعو الإمام للمواجهة بهذه الصورة:

قد يقال من جانب آخر: ما حرّكه دم الحسين عليه السلام في جماهير الأُمّة كان بذاته يدعو للمواجهة بالسيف والمطالبة بدمه عليه السلام.

وجوابه: أنّ طلب دم الحسين بهذه الصورة يجعل منه قضيّة شخصيّة، بينما المراد لديهم عليهم السلام هو قضيّة دين وقضيّة أمّة كما بيّنّا سابقاً. أضف إليه أنّ ما أحدثه دم الحسين عليه السلام كان يتحرّك في أُطر معيّنة ونفوس متوزّعة، بما يعني أنّ فرضيّة القتال ستعود بنا لنفس الفرضين السابقين بتقديريهما، وهما استجابة أهل الحجاز وعدم استجابتهم، ومواجهة العراق والشام، وقد بان لك سقوط النتيجة على كل فرض منهما.

العامل السابع: علّة القائد:

وفي مقابل ما ذكرنا يبقى هناك علّة رئيسيّة مهمّة تمنع من التوجّه لخيار من هذا النوع، وهي مرض الإمام عليه السلام الذي يمنعه من قيادة حِراك مسلّح بهذا الشكل؛ وهذه العلّة أيضاً تعتبر مانعاً من موانع الحِراك الجَمْعي.

والسؤال: كيف لو أضفنا جميع هذه الجهات لبعضها البعض؟

لا ريب سنخرج حينها بنتيجة تنص على أنّ خيار الحرب في هذه المرحلة بكلا قراءتيه ما كان سليماً قَطّ. ومن هنا ينقدح الاستفهام بـ: هل كان الإمام علي بن الحسين ' في غفلة عن جميع هذه الموانع والعوامل؟ بلا ريب كلّا، فهو العارف بما يدور حوله، المدرك لظروف ومتغيّرات تلك الفترة كما اتّضح.

نكتفي بهذا القدر، لنتم الحديث في المقال الآتي إن شاء الله تعالى، والذي

سنتناول فيه، وفق منهجيّة التقييم الصحيح للحوادث التأريخيّة وسلوكيّات الأفراد، قِبال تحليل وتقييم سيرة الإمام عليه السلام، وضمن الفترة الثانية من مسيرته المباركة، المتعلّقة بمرحلة ما بعد السبي والرجوع للمدينة، الخيارات الأربعة الباقية من مبحث الجهة الثالثة، وهي:

ـ خيار المعارَضة السلميّة. ـ خيار المعاهدة والصلح. ـ خيار نشر العلوم والانشغال ببثّ المعارف المختلفة بصورة واسعة. ـ خيار التثبيت على الخط والتصدّي لدفع دواعي التخبّط والحيرة.

ومن ثمّ نتعرّض للجهة الرابعة وبيان الحقيقة الكاملة لسلوك هذه المرحلة، لنختم الحديث بتناول الجهة الخامسة واستقراء الوظائف والمهام الأخرَى التي مارسها الإمام عليه السلام خلال ذلك.

* * *

الهوامش:

(١) ففي تأريخ اليعقوبي وغيره كما سبق أن ذكرنا: «قال أبو جعفر (أي الإمام الباقر عليه السلام): قُتِل جدّي الحسين ولي أربع سنين، وإنّي لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت»؛ تأريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب: ج٢ ص٣٢٠.

(٢) ويكفيك قول الشاعر في الزمن القديم فيه: يا أيُّها القبر بحوارينا * ضممتَ شرَّ النّاس أجمعينا؛ حوارينا: منطقة في حمص من بلاد الشام.

(٣) نهج البلاغة، خُطَب الإمام علي عليه السلام، جمع الشريف الرضي: ١: ١٢٤.

(٤) فقد جاء في كتب التّأريخ في أحداث سنتي ٦٢هـ و٦٣هـ ما نصّه: وَجَّه (أي يزيد بن معاوية) إلى مسلم بن عقبة، فأقدَمه من فلسطين، وهو مريض، فأدخله منزله، ثمّ قصَّ عليه القصّة (يعني رفض أهل الحجاز لولاته وعمّاله وبيعته ودفع الصّوافي من المحاصيل إليه..) فقال: يا أمير المؤمنين! وجِّهني إليهم، فوالله لأدعنَّ أسفلها أعلاها، يعني مدينة الرّسول، فوجَّهه في خمسة آلاف إلى المدينة، فأوقع بأهلها وقعة الحَرَّة (الحَرَّة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنّها أحرقت

بالنّار) فقاتله أهل المدينة قتالاً شديداً، وخندقوا على المدينة، فرام ناحية من نواحي الخندق، فتعذر ذلك عليه، فخدع مروان بعضهم (يعني بعض أهل المدينة) فدخل ومعه مائة فارس، فأتبعه الخيل حتَّى دخلت المدينة، فلم يبقَ بها كثير أحد إلا قُتِل، وأباح حرم رسول الله، حتَّى ولدت الأبكار لا يُعرف مَن أولدهن، ثمَّ أخذ النّاس على أن يبايعوا على أنّهم عبيد يزيد بن معاوية، فكان الرّجل من قريش يؤتَى به، فيقال: بايع آيةَ أنّك عبد قنّ ليزيد (القنّ: غبدٌ مُلِك هو وأبواه) فيقول: لا. فيضرب عنقه!... وكان جيش مسلم خمسة آلاف رجل: من فلسطين ألف رجل عليهم روح بن زنباع الجذامي، ومن الأردن ألف رجل عليهم حبيش بن دلجة القيني، ومن دمشق ألف رجل عليهم عبد الله بن مسعدة الفزّاري، ومن أهل حمص ألف رجل عليهم الحصين بن نمير السّكوني، ومن قنسرين ألف رجل عليهم زفر بن الحارث الكلابي... وخرج مسلم بن عقبة من المدينة يريد مكّة لمحاربة ابن الزّبير (كما سنبّن في المتن) فلمّا صار بثنيّة المُشلّل احتضر، (ثنيّة المُشلّل: هي ثنيّة مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكّة، وتسمَّى ثنيّة الوداع لأنَّ النّبي ' ودَّع بها بعض من خلّفه بالمدينة في آخر خرَجاته) واستخلف الحُصَين بن نُمَير، وقال له: يا برذعة الحمار! لولا حبيش بن دلجة القيني لما ولّيتك، فإذا قدمتَ مكّة، فلا يكون عملك إلا الوقاف ثمَّ الثّقاف، ثمّ الانصراف، ثمّ قال: اللهم إن عذّبتني بعد طاعتي لخليفتك يزيد بن معاوية وقتل أهل الحَرَّة، فإنِّي إذاً لشقي. ثمَّ خرجت نفسه فدفن بثنيّة المُشلّل، وجاءت أم ولد يزيد بن عبد الله بن زمعة، فنبشته وصلبته على المُشلّل، وجاء النّاس فرجموه، وبلغ الخبر الحُصَين بن نُمَير فرجع فدفنه، وقتل جماعة من أهل ذلك الموضع، وقيل لم يدع منهم أحداً...وقَدِم الحُصَين بن نُمَير مكّة فناوش ابن الزّبير الحرب في الحرم، ورماه بالنّيران حتَّى أحرق الكعبة. وكان عبد الله بن عُمَير الليثي قاضي ابن الزّبير، إذا تواقف الفريقان قام على الكعبة، فنادى بأعلَى صوته: يا أهل الشّأم! هذا حرم الله الذي كان مأمنا في الجاهلية يأمن فيه الطّير والصّيد، فاتّقوا الله، يا أهل الشّأم! فيصيح الشاميّون: الطّاعة الطّاعة! الكَرَّة الكَرَّة! الرّواح قبل المساء! فلم يزل على ذلك حتَّى أُحرقت الكعبة... وكان سعيد بن المسيَّب يسمِّي سنين يزيد بن معاوية بالشّؤم: في السّنة الأولى قتل الحسين بن علي وأهل بيت رسول الله، والثّانية استبيح حرم رسول الله وانتهكت حرمة المدينة، والثّالثة سفكت الدّماء في حرم الله وحُرِّقتِ الكعبة. تأريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب، تحقيق عبد الأمير مهَنّا٢: ١٦٥و١٦٦.

(٥)قال المؤرِّخون: «وكان الرّكن لمّا أصابه الحريق تصدّع بثلاث قطع، فشدّه ابن الزّبير بالفضّة»!. تأريخ اليعقوبي٢: ٢٦٠.

(٦)أعناقهما ورؤوسهما كناية عن إرادته لهما ومن تبعهما، لا هما فحسب، وإلا لقال: بعنقَيهما

ورأسيهما؛ فتأمّل.

(٧)يناديه ويهدّده قاصداً: أنّنا سنرجع لأصلك ونسبك المجهول، بعد أن نسبَك معاوية إليه وأَلحقكَ به وبرّأكَ من ماء الزّنا الّذي جئتَ منه.

(٨)أي: كان مريضاً شديد المرض.

(٩)القُطْقُطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرّيّة بالطّف، به كان سِجْن النّعمان بن المنذِر. تأريخ اليعقوبي٢: ١٥٦ نقلاً عن معجم البلدان.

(١٠)يعني أصحاب الحسين عليه السلام تقدّموا للقتال.

(١١)أي يُهَذِّبه.

(١٢)اللبّة: موضع النَّحر.

(١٣)تأريخ اليعقوبي ٢: ٢٤١ـ٢٤٥.

(١٤)جاء في كتب التّأريخ في فترة من خَلَف يزيد بن معاوية في الحكم بعد موته في صَفر سنة ٦٤هـ: «ثمّ مَلَكَ معاوية بن يزيد بن معاوية، وأمّه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، أربعين يوماً، وقيل: بل أربعة أشهر، وكان له مذهب جميل، فخطب النّاس، فقال: أمّا بعدَ حمدِ الله والثّناء عليه، أيّها النّاس فإنّا بُلينا بكم وبُليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا، ألا وإنّ جدِّي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولَى به منه في القرابة برسول الله، وأحق في الإسلام، سابِق المسلمين، وأوَّل المؤمنين، وابن عمِّ رسول ربِّ العالمين، وأبى بقيّة خاتم المرسلين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتَّى أتته منيّته وصار رهناً بعملِه، ثمَّ قلَّدَ أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقَلَّت منعته، وانقطعت مدّته، وصار في حفرته رهناً بذنبِه، وأسيراً بجرمِه. ثمَّ بكى، وقال: إنَّ أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قَتَّل عترة الرّسول، وأباح الحرمة، وحرَّق الكعبة، وما أنا المتقلّد أموركم، ولا المتحمّل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدّنيا مغنماً لقد نلنا منها حظّاً، وإن تكن شرّاً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها». المصدر السّابق٢: ٢٥٤.

(١٥)المصدر السابق٢: ٢٤٧ و٢٤٨.

(١٦)أي التّراب.

(١٧)أي الأسوء وكلّ ما يشين.

(١٨)المفند المهوّر: أي الكاذب المتهوّر.

(١٩)أي تتناوبهم.

(٢٠)أي ستروهم.

(٢١)يعني عُبيد الله بن زياد الذي نسبه معاوية إليه وألحقه به وبرّأه من ماء الفجور الذي انحدر منه فلم يُعرف فِراشه ولا أصله.

(٢٢)أي طردك إياه من المدينة وحرم جدّه ' إلى مكّة وحرم الكعبة بيت الله الحرام.

(٢٣)العائر من السهام: ما لا يُدْرَى راميه.

(٢٤)الأراقل، قيل هنا بمعنى: المفازات.

(٢٥)أي ربيع النساء وجليسهنَّ.

(٢٦)يعني الحسين بن علي عليه السلام.

(٢٧)يقصد ابن زياد.

(٢٨)راجع تأريخ اليعقوبي٢: ١٦٢ـ ١٦٤.

(٢٩)فقد ورد في كتب التّأريخ في بيان أحداث سنة ٦٣هـ من فترة حكم يزيد ما يلي: «وقَدِم الحُصَين بن نُمَير مكّة فناوَش ابن الزُّبير الحرب في الحَرم، ورماه بالنيران حتَّى أحرق الكعبة، وكان عبد الله بن عُمير الليثي قاضي ابن الزّبير، إذا تواقف الفريقان قام على الكعبة، فنادى بأعلى صوته: يا أهل الشّأم! هذا حرم الله الّذي كان مأمنا في الجاهلية يأمن فيه الطّير والصّيد، فاتّقُوا الله، يا أهل الشّأم! فيصيح الشّاميّون: الطّاعة الطّاعة! الكَرّة الكَرّة! الرّواح قبل المساء! فلم يزل على ذلك حتَّى أُحرقت الكعبة، فقال أصحاب ابن الزّبير: نطفئ النار، فمنعهم، وأراد أن يغضب الناس للكعبة»؛ المصدر السابق: ٢٥١ و٢٥٢.

(٣٠)وهو والي ابن الزبير كما سنشير لاحقاً.

(٣١)المصّيصة: مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشّام بين إنطاكيّة وبلاد الرّوم تقارب طرسوس.

(٣٢)المصدر السابق٢: ١٨٨.

(٣٣)مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب٣: ٢٩٩، وكنز العمّال، للمتّقي الهندي٤: ٢٥٥، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٤: ٣٣٢.

(٣٤)تفسير مجمع البيان، للطّبرسي رحمه الله ٥: ١١٤.

(٣٥)تأريخ اليعقوبي٢: ٢٤٥.

(٣٦)المصدر السابق٢ ص٢٤٥ و٢٤٦.

(٣٧)عين الوردة: رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة كانت فيها وقعة للعرب ويوم من أيّامها. تأريخ اليعقوبي٢: ١٧٣ هامش١ نقلاً عن معجم البلدان.

(٣٨)المصدر السابق: ص١٧٣.

(٣٩)المصدر السابق: من ص١٧٤ إلى ١٧٦.

(٤٠)أي طردك إياه من المدينة وحرم جدّه ' إلى مكّة وحرم الكعبة بيت الله الحرام.

(٤١)العائر من السهام: ما لا يُدْرَى راميه.

(٤٢)الأراقل، قيل هنا بمعنى: المفازات.

(٤٣)أي به مرض الجدري.

(٤٤)المصدر السابق: ص١٧٠ـ ١٧١.

(٤٥)المصدر السابق: ص١٧٨.

(٤٦)المصدر السابق: ص١٧٨ و١٧٩.

(٤٧)المصدر السابق: ص١٧٩.

(٤٨)كلامٌ نابٍ! مع أنّ محمّداً من خولة بنت جعفر الحَنفيّة ﵂، والحسن والحسين من إخوته من فاطمة بنت محمّد ' ، فيُنْسب لأُمّه بالحَنفيّة تمييزاً له عن الحسنين من الزهراء عليهم أفضل الصّلاة وأتم التّسليم. وفواطم جمع فاطمة، تُقال لنساء آل البيت وأبنائهم لكثرة تسميتهم نساءهم باسم فاطمة، تقول للرّجل منهم: يا ابن الفواطم، كما تقول: يا ابن الهواشم نسبة لجدِّهم هاشم.

(٤٩)يريد أن يَحْتَج عليه بما أقرَّ به من شرف نسبه والجهة الطّاهرة الّتي ينحدر منها.

(٥٠)المصدر السابق: ص١٧٩.

(٥١)رَضْوَى: جبل معروف بالمدينة.

(٥٢)المصدر السابق.

(٥٣)المصدر السابق: ص١٧٩ و١٨٠.

(٥٤)الفسطاط: بيت من الشَّعر.

(٥٥)المصدر السابق: ص١٨٠.

(٥٦)البَطَن: داء البطْن.

(٥٧)العطبول: المرأة الجميلة الفتيّة الطّويلة العنق. فعمر بن أبي ربيعة كان مولعاً بالتّعرّض للنّساء والتشبيب بهن، ممّا اضطرَّ عمر بن عبد العزيز لنفيه إلى دهلك ليبجنّبه عن ذلك.

(٥٨)المصدر السابق: ص١٨١ و١٨٢.

(٥٩)المصدر السابق: ص١٨٢ و١٨٣.

(٦٠)المصدر السابق: ص١٨٧.

(٦١)المصدر السابق: ص١٨٥.

(٦٢)نجدة بن عامر الحروري: رأس الفرقة النجديّة، نسبة إليه، من الحروريّة، ويعرف أصحابها بالنجدات، انفرد عن سائر الخوارج بآراء، كان أوّل أمره مع نافع بن الأزرق –رئيس فرقة الأزارقة من الخوارج– وفارقه لإحداثه في مذهبه، ثمّ خرج مستقلاً باليمامة، فأتَى البحرين وتسمَّى بأمير المؤمنين، قُتِل سنة ٦٩هـ، والحروري نسبة إلى حروراء.

(٦٣)المساور بن هند: شاعر معمِّر، قيل: ولد في حرب داحس والغبراء، هو وأبوه من أشراف بني عبس، شعراء، فرسان، وقال البغدادي: كان يهاجي المرّار الفقعسي، وأورد له أبياتاً رقيقة في هجاء بني أسد.

(٦٤)المصدر السابق: ص١٨٠ و١٨١.

الدعاء

وتكوين الشخصية الإيمانية

❐ الأستاذ: علي عبد المجيد عباس (*)

المقدمة

الدعاء ـ في أبعاده الفكريّة والعاطفيّة والسلوكيّة ـ من أوثق صلات الإنسان بمعبوده، ولعلّه العبادة الوحيدة التي تتخطّى كلّ شروط المكان أو الزمان أو المقدّمات التي قد تقيّد بها بعض العبادات الأخرى، وهذا ما يُكسبُ الدعاء أهميّة بيّنة، ودوراً بالغاً في جزئيات ـ كما في كلّيّات ـ حياة الإنسان؛ ويُكسب الدارسات التي تتناوله حساسيّةً وتأثيراً على الإنسان في آنٍ معاً.

من ههنا كانت أهميّة وإلحاح هذه الدراسة، وما زادَ موضوعَهَا عُمقاً هو تمحورها حول بناء الشخصيّة الإنسانيّة الإيمانيّة؛ ليكون بحثاً رابطاً ما بين القيم الرساليّة التي تكتنفها عبادة الدعاء، والآليّات الدقيقة التي تحتويها دراسات علم النفس والشخصيّة، ولعلّ هذا الربط (ما بين هذه المفردة الشرعيّة وقواعد علم النفس) مما شحّت به الدراسات التي دارت حول هذه العبادة؛ حيثُ أُلبست ـ في غالبها ـ منهجاً نمطيّاً تقليديّاً، وهو ما حرم المادّة الدينيّة من ربطٍ

(*) ماجيستير علوم قرآن، باحث إسلامي/ سوريا.

يُيَسّر لها ـ في الشكلِ على الأقل ـ فهماً أعمق للتقنيات التي تُفعّل العبادات، فضلاً عن العمل على تطوير هذه التقنيّات وتأكيد دورها في الواقع العمليّ للإنسان.

بيدَ أنّ هذه الدراسة ـ التخصصية إلى حدٍّ ما ـ لم تخلُ من ثغراتٍ قليلةٍ فرضتها عوامل الوقت وشحّ المصادر المتخصصة وحجمُ البحث المحدود؛ وهو ما يُلقي ـ على كاهل فرسان البحث العلميّ ـ مسؤوليّةً لإكمال هذا الجُهد، والغوص في عمق هذا النمط المهمّ فعلاً من الأبحاث، في ضوء ذات المنهجِ العلميِّ الـمُعتمد؛ وصفاً وتحليلاً، ما يُكسب هذه الدراسات سمةً العلميّةً والموضوعيّةً.. والفاعليّة لدى تطبيقها في الواقع.

مفهوم الدعاء:

كلمة الدعاء في الأصل اللغوي مرتبطة بـالفعل «دعا؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. قال أبو إسحاق: يقول ادْعُوا من اسْتَدعَيتُم طاعتَه ورجَوْتم مَعونتَه ... فالدعاء [عموماً] بمعنى الاستغاثة»[١].

وكلمة «الدعاء كالنداء، إلّا أنّ النداء قد يقال بـ: يا، أو: أيا، ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم»[٢].

ولعلّ الوجه الأقرب للاشتراك ما بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هو أنّ مفردة «دَعَوْتُ الله، أَدْعُوه دُعَاءً [أي]: ابْتَهَلْتُ إِلَيْهِ بالسّؤَالِ، وَرَغِبْتُ فِيمَا عِنْدَه مِنَ الْخَيْرِ، ودَعَوْتُ زَيْداً، نَادَيْتُه وطَلَبْتُ إِقْبَالَه، ودَعَا الْمُؤَذِّنُ الناسَ إلى الصّلَاةِ فَهوَ دَاعِي الله»[٣]، ومن ثمّ باتت الـمُفردة ـ لدى إطلاقها ـ تذهب ناحية هذه العبادة المخصوصة (عبادة الدعاء).

أمّا في الاصطلاح الخاصّ، فيُعتبر الدعاء أحد أبرز وجوه العلاقة بين العبد

وخالقه، وهو ـ اصطلاحاً ـ حالةٌ من التوجّه إلى المولى بطلب أيّ حاجةٍ أو دفع أخرى، وتتوزّع على مستوياتٍ (أو أشكالٍ عدّة)؛ كـ(الاستغاثة)، (التضرّع)، (الـمُناجاة)، (التوسّل)،..إلخ.

وهو «هيئة تنبع من ذروة الشوق نحو منزلة المعبود الذي هو الأفضل والأقدر، ويُحقق طلبات المؤمنين المشروعة ويُلبيها»[٤]، إنّما في إطار مصلحة العبد التي يعلمُها الله أكثر منه، وبلحاظ شرائط الدعاء التي تكفل له الإجابة إن عاجلاً أو آجلاً.

ومن منظورٍ آخر يُمكن تقسيم «معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه: فضربٌ منها توحيده والثناء عليه كقولك: يا الله لا إله إلا أَنت، وكقولك: ربّنا لكَ الحمدُ، إذا قُلْتَه فقدَ دعَوْته بقولك ربّنا، ثم أَتيتَ بالثناء والتوحيد، ومثله قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، فهذا ضَرْبٌ من الدعاء، والضرب الثاني مسأَلة الله العفوَ والرحمة وما يُقَرِّب منه كقولك: اللهم اغفر لنا، والضرب الثالث مسأَلة الحَظِّ من الدنيا كقولك: اللهم ارزقني مالًا وولداً، وإنما سمي هذا جميعه دُعَاء لأَن الإِنسان يُصَدّر في هذه الأَشياء بقوله يا الله يا ربّ يا رحمنُ، فلذلك سُمِّي دعاءً»[٥].

وبلحاظ كُلّ ما سلف يتّضح أنّ حالة الدعاء هي توجّهٌ من الإنسان نحو خالقه، طالباً الحاجات، وآملاً بالإجابة.

مفهوم الشخصيّة وجوانبها:

لا بُدّ أن نُشير في البدء إلى أنّ من الضرورة بمكان أن نتوسّع في توضيح مفردة الشخصيّة بشكلٍ وافٍ؛ يتناسب وتخصّص بحثنا الذي يدور ـ بكامله ـ حول تكوين الشخصيّة الإيمانيّة.

وعلى هذا الأساس نقول: إِنّ كلمة الشخصية اشتُقّت من كلمة (الشخْص)،

شَخْصِ الإنسان وغيره، والجمع أَشْخاصٌ وشُخُوصٌ، والشخْص لغةً: كلّ جسم له ارتفاع وظهور، والمرادُ به إثباتُ الذات فاسْتُعير لها لفظُ الشخْصِ[٦].

والمعنى اللغوي لمُفردة الشخصيّة يُلامس معناها في الاصطلاح؛ فالمعنى الاصطلاحي (في العلوم الحديثة) لهذه المفردة لا يفترق في جوانب كثيرة عن الأصل اللغوي، وهذا مما قد يسهّل التعاطي معه على خلاف بعض المصطلحات الآتية التي تبتعد في معناها الاصطلاحي المعقد عن وضوح المعنى اللغوي.

ويُعرّف علمُ النفس ـ غالباً ـ الشخصية بشكلٍ مقتضبٍ للغاية، وهو: «الفرديّة الواعية»[٧]؛ وإذ أنّ هذا التعريف أكثر من موجزٍ ومُقفل للوهلة الأولى، لا بدّ من التوسّع في تفاصيلٍ أكثر رحابةً لتناول هذه المفردة المحوريّة في البحث.

وقد اعتمدت اصطلاح علم النفس في مُنطلق بحثي؛ لأنّ البحث ينحو تجاه البناء النفسي لشخصية الإنسان من خلال الآليات القرآنية الإلهية، وإن كانت هناك معانٍ أخرى للمفردة ذاتها في علومٍ أخرى (بل حتى في علم النفس ذاته، إنّما بلحاظاتٍ أخرى)؛ ولهذا كان لا بدّ من التوسع في بيان دلالات هذه المفردة وسبر تفاصيلها؛ باعتبارها مفردةً رئيسةً يقوم عليها اللاحق من البحث.

وانطلاقاً من هذا، فإنّ الرأي الغالب لدى علماء النفس ينصّ على أنّ كلمة (الشخصية) تُنمى إلى المظاهر غير المعرفيّة لدى الشخص؛ أي إلى الانفعالات والإرادة، لا إلى الذكاء والاستعداد، وهو ما يعبّر عنه بـ: الجِبِلّة، وترتبط في الوقت ذاته بـ: (السلوك) والدوافع التي تجعل الإنسان يتصرف على هذه الطريقة أو تلك[٨].

وببيانٍ آخر، فإنّ «الشخصية هي العنصر الثابت في سلوك شخصٍ ما، وذلك ما يميّزه ويفرّقه عن الأشخاص الآخرين، فكلّ إنسانٍ هو في الوقت ذاته شبيهٌ بالأفراد الآخرين من جماعته الاجتماعية الثقافية، ومختلفٌ عنهم بالسمة

الوحيدة لتجاربه التي عاشها، وتميّزه ـ وهو الجزء الأكثر أصالةً من أناه ـ هو المكوّن الأساسي من شخصيته»[٩].

تأكيد القرآن الكريم على أهميّة عبادة الدعاء لدى الإنسان المؤمن:

لطالما كان القرآن الكريم ـ في توجيهاته المباشرة وغير المباشرة ـ باعثاً ومحفّزاً على حالة الارتباط الدائم بالله سبحانه، والتوجّه بالخطاب والدعاء إليه في كلّ المواقف التي تعترضه؛ وهو ما يجعله في حالة تواصل دائم مع خالقه، وإحساسٍ ـ بالغ الأهميّة ـ بالمراقبة الدائمة لله.

وفي هذه الحال تكون عبادة الدعاء قد أكسبت الإنسان فائدتين هامّتين:

الأولى: أنّها تربط الإنسان بخالقهِ في كلّ مواقف الحياة؛ فيسأله كُلّ حاجاته، ويطلبُ منه كلّ ما يهمّه؛ وبالتالي تتعمّق الروحيّة الإيجابيّة في شخصيّة الإنسان المؤمن، ويترقّى مستوى الإيمان في ذاته.

والثانية: أنّها تُكسب الإنسان الملتزم خصيصةً من أهمّ ما يُميّز المتّقين، وهي سمة المراقبة الدائمة لله، والإحساس باطّلاعه على كلّ حركات وسكنات الفرد؛ وهو ما يرتقي بالإنسان إلى أعلى كمالات السلوك الإنساني.

وفي غيرِ موردٍ تناول الكتاب الكريم حثّاً أكيداً على توجّه الإنسان دائماً بالدعاء إلى خالقه، وطلب الحاجات منه؛ كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، والغاية من هذه العبادة أنّ «دعاء الله تمرين على عبادته والالتجاء إليه والفزع إلى إلهيته وقدرته ... كلّ ذلك لكي ينقادوا مستوسقين إلى طاعته في أمور الدين والإيمان»[١٠].

كما «ونستفيد من الآية أعلاه مجموعة ملاحظات هي:

١. أنّ الله يحبّ الدعاء ويريده ويأمر به.

٢. لقد وعد الله بإجابة الدعاء، لكنّ هذا الوعد مشروطٌ وليس مطلقاً؛

فالدعاء واجبُ الإجابة، هو ما اجتمعت فيه الشروط اللازمة: للدعاء والداعي وموضوع الدعاء.

٣. الدعاء ـ في نفسه ـ نوع من العبادة؛ لأنّ الآية أطلقت في نهايتها صفة العبادة على الدعاء»[١١].

وفي موردٍ آخر يقول سبحانه موضّحاً مدى القرب الفعلي بين الله وعبده، ومؤكّداً ـ أيضاً ـ على التزام منهج الدعاء في التواصل مع الله سبحانه (بلحاظ كل ما تكتنفه هذه العبادة من أبعادٍ وفوائد طبعاً): ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، موضّحاً أنْ لا مسافة فارقة بين العبد وخالقه، وأنْ لا أستار تُضرب دون وصول نجواه إليه، فالله «قريبٌ من عباده، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يعلم أعمالهم، ويراقب أحوالهم، يجيب دعوة من دعاه مخلصاً له، [و] قد شفع دعاءه بالعمل الخالص لوجه الله سبحانه»[١٢]، وهذا غاية الحثّ على مناجاة الله ودعائه؛ إذ أنّ القرب بهذا الكيف يفتح قلب الإنسان وعقله على خالقه في كلّ ما يعيشه من فكرٍ وعاطفةٍ وسلوك.

هذا إلى جانب الكثير من الآيات ـ فضلاً عن الروايات ـ التي تتناول هذا الحثّ المتواصل على تمتين حالةٍ من الارتباط الدائم بين الإنسان والخالق؛ من خلال عبادة الدعاء التي تقفز فوق كُلّ عوامل الزمان والمكان.

ومن جملة ذلك على سبيل المثال لا الحصر طبعاً:

ـ ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

ـ ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ـ ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ـ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

[الكهف: ٢٨].

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦].

إلى جانب جُملةٍ سواها من الآيات القرآنيّة الكريمة التي تتناول مفردة الدعاء ذاتها، وتحثّ الفرد الملتزم على التمسّك بهذه العبادة؛ باعتبارها من عوامل القرب من الله من جهة، ونيل الغايات في الحياة من جهةٍ أخرى.

الدعاء والجوانب الثلاثة للشخصيّة:

النقطة الأولى: أثر عبادة الدعاء في الجانب الفكري (العمق الفكري):

أثر الدعاء في عمليّة النمو المعرفي لدى الإنسان:

من الضرورة بمكان ـ للباحث في مجال بناء وتكوين الشخصيّة الإنسانيّة ـ الإلمام بآلية تشكّل الحالة المعرفيّة لدى الإنسان، وطريقة إدراكه للمعارف التي يكتسبها طيلة فترة حياته، وحتى في سنيّ العمر الأولى؛ ولذا كان لا بُدّ من فهمٍ تخصّصيٍّ لعمليّة النموّ المعرفيّ لدى الإنسان، ومن ثمّ الانتقال إلى بيان أثر عبادة الدّعاء في تشكيل هذه العمليّة أو تفعيلها.

ويتداخل هذا الأمر ـ أي عنوان (النموّ المعرفيّ ـ بشكلٍ بيّنٍ مع (عمليّة التعلّم أو التعليم)؛ وبالتالي بات لزاماً لنا الإطلال ـ بإيجاز ـ على فهم الجنبة المعرفيّة في شخصيّة الإنسان، والتي تعتبر المولّد الرئيس لسلوكه، كما ينبغي أن نتناولَ آليّة التعلّم لديه.

بيدَ أنّه لا بدّ ـ قبل الشروع بذلك ـ من الإشارة إلى أنّ تناول هذه النظريات لا يعني تبنّيها بالمطلق، بل يمكن النقاش في كلّ تفصيلٍ منها؛ إذ فيها ما يُصنّف ضمن القواعد العمليّة المساهمة في عمليّة التعلّم فعلاً، وفيها ما لم يسلّم به الكثيرون من أهل الاختصاص، وحتّى أنّ بعضها بات يُصنّف ـ اليوم ـ كأفكار بسيطة لم تتمتّع حين إطلاقها بالنضج الكافي لتحليل ظاهرة التعلّم واكتساب

المعارف لدى الإنسان.

في هذا السياق اختلفت (نظريات التعلّم) التي بدأت تتبلور في المراحل الأخيرة من تاريخ البشريّة في فهمها وتحليلها لهذه الخاصيّة البشريّة؛ فبين من ارتأى حالة (الإشراط)[١٣] و(المثيرات)[١٤] أساساً للتعلم؛ كما هو الحال عند بافلوف، ومن اعتبر السلوك والتجارب دافعاً أولاً لذلك؛ كما هو رأي المدرسة السلوكية،.. وغيرهم، إلا أنّ أغلب النظريات اتفقت على عوامل ثلاثة، اعتبروها بمثابة العوامل الرئيسة التي تُساهم في تشكيل خبرات ومعارف الإنسان؛ ألا وهي:

١) النضج البيولوجي (الجسدي والنفسي).
٢) التفاعل مع البيئة الطبيعيّة من حوله.
٣) التفاعل مع المجتمع (البيئة الاجتماعيّة)[١٥].

الغاية من إيراد التوضيح السابق كانت الإضاءة على الفكرة العلميّة التي تتناول تكوّن الحالة المعرفية لدى الإنسان، وهي تتأثّر ـ بطبيعتها ـ بكُلّ التجارب التي يمرّ بها الإنسان في واقعه؛ وجدانيةً كانت أم عمليّةٍ أم فكريّة.

الدعاء يندرج في السياق ذاته، بل ومن جهاتٍ عدّة؛ فمن جهةٍ أولى يُعتبر الدعاء ـ بما يحتويه من قيمٍ فكريّةٍ ـ إثراءً للجانب المعرفي لدى الإنسان (النضج الفكري)، ومن جهةٍ ثانيةٍ تعتبر التجربة الوجدانيّة (حالة الارتباط بالله) التي يعيشُها الدّاعي عامل تأثيرٍ عاطفيٍّ في الشخصيّة أيضاً، ومن جهةٍ ثالثةٍ تُضفي حيويّة العاطفة التي يُفيضها الدعاء على شخصيّة الإنسان نمطاً من الفكر الإيجابي (الفكر المتفائل المرن) الذي يفتح أمام العقل الإنسانيّ آفاقاً أُخرى من التعاطي مع مُفردات الحياة وفهمها؛ إذ إنّ العاطفة الحيويّة السليمة تثمر ـ بدون أدنى شكٍّ ـ نمطاً سليماً من التعاطي الفكري والنظرة الفكريّة نحو الحياة (على عكس الإنسان الذي يعيش جموداً عاطفياً أو عُقداً وأزماتٍ عاطفيّة؛ فهو

بالتأكيد سيعيش ضيقاً ـ إن لم نقل تطرّفاً ـ في عمليّة التفكير وفهم الواقع.

ولعلّ من أجمل نماذج القيم الفكريّة في الدعاء، ما نورده عن إمامٍ اشتهر وامتاز بمدرسة الدعاء لديه، ولا لبس أنّ كلّ الأئمة ^ كانوا في السياق ذاته، وهو الإمام زين العابدين عليه السلام؛ حيث أورد في الصحيفة السجّاديّة في دعاء راقٍ لطلب الحوائج من الله سبحانه وتعالى موحياً بهذه الثمرة الفكريّة الرائعة للدعاء، وهو ما سنوضحه عقب إيراد النص:

«اَللّهمّ يَا مُنْتَهَى مَطْلَبِ الْحَاجَاتِ، وَيَا مَنْ عِنْدَه نَيْلُ الطّلِبَاتِ، وَيَا مَنْ لاَ يَبِيعُ نِعَمَه بِالْأَثْمَانِ، وَيَا مَنْ لاَ يُكَدِّرُ عَطَايَاه بِالِامْتِنَانِ، وَيَا مَنْ يُسْتَغْنَى بِهِ وَلاَ يُسْتَغْنَى عَنْه، وَيَا مَنْ يُرْغَبُ إِلَيْهِ وَلاَ يُرْغَبُ عَنْه، وَيَا مَنْ لاَ تُفْنِي خَزَائِنَه الْمَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لاَ تُبَدِّلُ حِكْمَتَه الْوَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لاَ تَنْقَطِعُ عَنْه حَوَائِجُ الْمُحْتَاجِينَ، وَيَا مَنْ لاَ يُعَنِّيهِ دُعَاءُ الدّاعِينَ. تَمَدّحْتَ بِالْغَنَاءِ عَنْ خَلْقِكَ وَأَنْتَ أَهْلُ الْغِنَى عَنْهمْ، وَنَسَبْتَهمْ إِلى الْفَقْرِ وَهمْ أَهْلُ الْفَقْرِ إِلَيْكَ، فَمَنْ حَاوَلَ سَدّ خَلّتِهِ مِنْ عِنْدِكَ وَرَامَ صَرْفَ الْفَقْرِ عَنْ نَفْسِهِ بِكَ فَقَدْ طَلَبَ حَاجَتَه فِي مَظَانِّهَا، وَأَتَى طَلِبَتَه مِنْ وَجْهِهَا، وَمَنْ تَوَجّهَ بِحَاجَتِهِ إِلى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَوْ جَعَلَه سَبَبَ نُجْحِهَا دُونَكَ، فَقَدْ تَعَرّضَ لِلْحِرْمَانِ، وَاسْتَحَقّ مِنْ عِنْدِكَ فَوْتَ الْإِحْسَانِ. اَللّهمّ وَلِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ قَصّرَ عَنْهَا جُهْدِي، وَتَقَطّعَتْ دُونَهَا حِيَلِي، وَسَوّلَتْ لِي نَفْسِي رَفْعَهَا إِلى مَنْ يَرْفَعُ حَوَائِجَه إِلَيْكَ، وَلاَ يَسْتَغْنِي فِي طَلِبَاتِهِ عَنْكَ، وَهِيَ زَلّةٌ مِنْ زَلَلِ الْخَاطِئِينَ وَعَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ الْمُذْنِبِينَ، ثُمّ انْتَبَهْتُ بِتَذْكِيرِكَ لِي مِنْ غَفْلَتِي وَنَهَضْتُ بِتَوْفِيقِكَ مِنْ زَلّتِي وَرَجَعْتُ وَنَكَصْتُ بِتَسْدِيدِكَ عَنْ عَثْرَتِي، وَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّي كَيْفَ يَسْأَلُ مُحْتَاجٌ مُحْتَاجاً وَأَنّى يَرْغَبُ مُعْدِمٌ إِلى مُعْدِمٍ، فَقَصَدْتُكَ يَا إِلهِي بِالرّغْبَةِ وَأَوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجَائِي بِالثِّقَةِ بِكَ، وَعَلِمْتُ أَنّ كَثِيرَ مَا أَسْأَلُكَ يَسِيرٌ فِي وُجْدِكَ، وَأَنّ خَطِيرَ مَا أَسْتَوْهِبُكَ حَقِيرٌ فِي وُسْعِكَ، وَأَنّ كَرَمَكَ لاَ يَضِيقُ عَنْ سُؤَالِ أَحَدٍ وَأَنّ يَدَكَ بِالْعَطَايَا أَعْلَى مِنْ كُلِّ يَدٍ»[16].

إنّ هذا النمط من الدعاء ينطلق ليزرع ومضاتٍ فكريّةٍ بالغة العمق والأثر في فكر الإنسان، من خلال كلّ الواقعيّة التي يختزنها في طيّاته، وخلال شرحه الموضوعيّ تماماً لواقع الإنسان في هذه الحياة؛ وارتباطه اللصيق بالمشيئة الإلهيّة، وبالتالي إنضاج الفكر الإنساني في هذا الجانب المحوري من فهم الإنسان لذاته وشخصيّته؛ إذ «أنّ هذا الدعاء ينطلق ليركّز في ذهنية الإنسان الفكرة التي تنفتح على الكلّي القدرة، الكريم في العطاء، الواسع في النعماء، الذي لا يضيق كرمه عن سؤال أحد، كما أنّ يده بالعطايا أوسع من كل يد، والذي يستغنى به و لا يستغنى عنه، ويرغب إليه ولا يرغب عنه. كما ينفتح على الإنسان المحتاج إلى ربّه؛ لأنّ ذلك ليس شيئاً ذاتياً ينطلق من سرّ الغنى في شخصه، بل هو شيء طارئ، يستمدّه من عطاء ربه، في ما يمنحه من قدرة، أو يعطيه من إمكانات.

و إذا كان الإنسان كلّ إنسان، في موقع الحاجة إلى الله، فكيف يتوجّه الإنسان الواعي إلى مثله ليرفع حاجته إليه؟ وهل ذلك إلّا لون من ألوان الغفلة عن حقيقة الفقر الإنساني أمام حقيقة الغنى الإلهي؟! بالإضافة إلى أنّها زلّة من زلل الخاطئين، وعثرة من عثرات المذنبين؛ لأنّها خطيئة تتصل بالانحراف عن خطّ الاستقامة في التصور التوحيدي للإنسان، وبالخلل في الوعي الإيماني للحقيقة الإلهية في معنى وجود الإنسان، وحركته، وفي سعة القدرة وشموليتها؛ وهكذا تتبلور لدى الإنسان مسألة الاستعانة بالله وحده، بعيداً عن الاستعانة بغيره.

إنّ هذا الدعاء يعالج المسألة في الدائرة الفكرية النظريّة على أساس إثارة مسألة الحاجة الذاتية لدى الإنسان في جميع مواقعه وأشكاله؛ لتكون رادعاً عن توجه الإنسان إلى مثله، وغفلته عن توجّهه إلى ربه»[١٧]، وهو مستوى فكريّ غايةٌ في العمق لدى النظر إلى واقع الوجود والحياة، وبالتالي البناء على هذا الفهم في تسيير السلوك والعمل.

النقطة الثانية: أثر عبادة الدعاء في الجانب النفسي (ترشيد العاطفة):

تأثير الميول والعواطف في شخصيّة الإنسان:

مما لا يُختلف فيه أنّ عوامل العاطفة والميول التي تنضوي عليها الشخصيّة الإنسانيّة تتمتّع بتأثير بالغٍ في مجمل حياة الفرد؛ في شخصيّته وقناعاته وسلوكه.. وجُلّ ما يعيشُه.

ومن الصعوبة بمكان أن يتمكّن الإنسان من التحكّم بجملة الميول هذه دونما عثرةٍ هنا أو خطأ هناك؛ بل يتعدّى الأمر إلى درجة أنّ النسبة الأكبر من الأشخاص يتعاملون مع الواقع وينطلقون في عملية تشكيل قناعاتهم وتكوين سلوكهم، من خلال منظومة الميول هذه بكلّ ما فيها من عثراتٍ وهفوات.

كما تدخل العواطف أحياناً في أصل تقييم الإنسان للصواب والخطأ في الفكر، والسلامة والانحراف في الفعل؛ فتصبح مجمل منظومته الفكريّة أو السلوكيّة قائمة على أسس مغلوطة، وهو ما قد يحرف دفة شخصيّته (عقلاً وسلوكاً) بشكلٍ خطير، ويُبعده عن الإنصاف والموضوعيّة في جُلّ ما يعيشُه.

دور عبادة الدعاء في ترشيد العاطفة (الهوى):

لطالما تناولت عبادة الدعاء جوانب الشخصيّة الإنسانيّة بأسلوبٍ علاجيّ (ونركّز ههنا على مفردة العلاج)، سواء كان ذلك بطريقةٍ مُباشرةٍ أم غير مُباشرة، واكتنزت الأدعية المأثورة قيماً تربويّةً بالغة الأهميّة والحساسيّة؛ إنْ على صعيد الفكر أو الانفعال أو ما ينجمُ عنهما من سلوك.

وقد تناولت جُلّ الأدعية الكريمة ـ كما تلمّسنا في الاستقصاء الموّسع الذي قمنا به ـ هذا الجانب العاطفي في الشخصيّة تحت مُسمّى (الهوى)، وعمدت إلى توضيح أثره في واقع الإنسان ومسيرة حياته، وبيان كمّ الفساد الذي تُلحقه بواقعه كخطوةٍ علاجيّةٍ توعويّةٍ أولى، ثُمّ نحت باتّجاه الحثّ الفاعل على إعادة تصويب المسيرة بُغية إصلاح الحياة التي يعيش، وطلب العون على ذلك من الله

الخالق للنفس والقادر على ضبط ما يجيش فيها كخطوةٍ ثانية، والوعد الأكيد بضمان القرب من الخالق، والفوز برضوانه الأخروي لمن يضبط إيقاع هواه ضمن خطوط الشرع والصلاح كخطوةٍ داعمةٍ أخيرة.. إذن فنحنُ أمام آليّاتٍ ثلاث نوضّحها فيما يلي:

١) تناولت عبادة الدعاء جُلّ انفعالات الإنسان وعواطفه وهواه من منظورٍ واقعيٍّ يُوضّح له بجلاءٍ تامّ أنّ الانطلاق في الفكر أو السلوك من خلال العاطفة مؤدّاه الضرر الحتمي في واقع الحياة هذه. وغالباً ما تأتي هذه النقطة ضمن خطابٍ يعيشُ حالة الاعتراف والإقرار بالخطأ، وهذه من أروع تقنيات التربية وبناء الشخصيّة؛ التي تعتمد على الانطلاق من داخل الإنسان في تقييم الواقع، بدل تسليط ضوء التخطيء عليه من الخارج. ومن ذلك ما نراه في دُعاء المعصوم حين ينطق بلسان الإقرار بالتعثّر والزلل في الواقع من خلال سيطرة الهوى على لحظات اتخاذ القرار؛ وبالتالي (يكبو) بالإنسان خطؤه، وتُسقه زلّته، فيعود، وههنا عظمة الأسلوب التربوي الداخلي، مُقرّاً للمولى بالخطأ الذي اقترفه، مُتبتّلاً إليه أن يقيه من هذه الزلّات ويُقيله من تبعاتها؛ إذ يقول في سياق إشارته إلى الله سبحانه متسائلاً ـ بأسلوبٍ من الإشارة والتوسّل الواضحين للذات الإلهيّة ـ : «**فَمَن المقيل عثراتي من كبوات الهوى**»، وما أوصلني إليه هذا الهوى من زللٍ في الفكر والسلوك، وفسادٍ في الواقع الذي أعيشه. وفي موقفٍ آخر ـ من جُملة أمثلةٍ كثيرةٍ للغاية ـ يتوجه الداعي إلى مولاه بطلب العصمة من الوقوع في زلّة الهوى هذه؛ إنّما بلحاظ أنها تُردي الإنسان وتوصله إلى مواقع لا يحمد العاقل نفسه إن وقع فيها، فيتوجّه إلى المولى متوسلاً: «**اللّهمّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنْ هَوىً يُرْدِي مَنْ يَرْكِبُه**»، ويُسقطه في فساد الواقع.

٢) في المرتبة الثانية عمدت عبادة الدعاء إلى الحثّ على تقويم هذا الواقع، والسعي نحو خلق واقعٍ أكثر صلاحاً واستقامةً، واللجوء ـ في سبيل ذلك ـ إلى الله سبحانه متضرّعاً بالاستغاثة وطلب العون لكبح جماح هذا الهوى، حيث نرى الدّاعي متوجهاً بالاستغاثة نحو مولاه، قائلاً: «**فيا غوثاه ثُمّ واغوثاه بك يا الله؛ من هوى قد غلبني**»، وأسقطني في فسادِ الحياة، وأتوجه إليك بدعائي لتنقذني من شراكه. ونرى هذا المعنى أكثر جلاءاً في الدعاء المأثور عن الإمام الحسين عليه السلام، حين يطلب ـ بلسان التعليم لكلّ الدعاة ـ من الله عز وجل أن يكون هو الموجه له في سعيه نحو ضبط النفس والسيطرة على هواها؛ فيقول: «**إِلَهِي إِنّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ يُمَنِّينِي، وَإِنّ الْهَوَى بِوَثَائِقِ الشهْوَةِ أَسَرَنِي؛ فَكُنْ أَنْتَ النصِيرَ لِي حَتّى تَنْصُرَنِي وَتُبَصِّرَنِي**...»، وبالتالي ـ كما هو لسان الداعي ههنا ـ أتمكنُ من تغيير الفساد الذي ألمّ بواقعي جراء السقوط في عقدة الهوى هذه.

٣) أمّا الخطوة الثالثة الداعمة فهي اتّجاه الدّعاء ليعد الإنسان وعداً قطعيّاً، بأنّ العودة إلى الله سبحانه، والالتزام بالضوابط الشريعة التي أقرّها ـ سبحانه ـ كفيلةٌ بتقريب الإنسان من خالقه؛ قُرباً يُدخله في كُلّ أجواء النعم والعطاءات الإلهيّة، ويُبعده عن كلّ العقوبات والعذابات. ومن ذلك فما ورد في الدعاء الذي يتوجّه فيه الإنسان لخالقه مبتهلاً إليه أن يعصمه من سلطان الهوى ويجعله من الذين انتجبهم للقرب منه من خلال التزام الطاعات التي يحيبها المولى، فيقول سائلاً المولى: «**وَتَعْصِمَنِي مِنَ الْهَوى الْمُسَلّطِ عَلى عَقْلِي، وَتَجْعَلَنِي مِنَ الذينَ انْتَجَبْتَهمْ لِطاعَتِكَ**...».

ومن خلال هذه الآليّات الثلاث التي تنتهجها عبادة الدعاء ـ إلى جانب سواها في مناحٍ أُخرى طبعاً ـ نستطيع أن نتلمّس دوراً بيّناً للدّعاء في ترشيد

عاطفة الإنسان، وضبط إيقاع هذا العصف الوجداني الذي يتحكّم أو يُؤثر بقسمٍ كبيرٍ من سلوك الإنسان.

ومن ثمّ يعود الدعاء ليرسم للإنسان طريق النجاة من سيطرة أو طغيان حالة الهوى على ذاته ومجريات حياته، فيأخذ بيد الإنسان للالتجاء إلى الله مجدداً ضمن آليّةِ تلقينٍ إيجابيٍّ مميّزة، فيطلب من الله سبحانه ـ بعد الإقرار الكامل ـ أن يُعينه على إطلاق الحركة الإصلاحية في ذاته؛ وذلك من خلال الإقرار بالخلل، وتحليل مسبباته بشكلٍ بيّن، فيقول في دعائه: «**إلهي ومولاي.. أجريت عليّ حُكماً اتّبعت فيه هوى نفسي، ولم أحترس فيه من تزيين عدوّي؛ فغرّني بما أهوى، وأسعده على ذلك القضاء؛ فتجاوزت بما جرى عليّ من ذلك بعض حدودك، وخالفت بعض أوامرك**...»، ثمّ ينطلق ليطلب من الله المدد في عمليّة الإصلاح وإعادة التوجيه نحو الصواب.

النقطة الثالثة: أثر عبادة الدعاء في الجانب السلوكي (ضبط السلوك):

لّما كان السلوك وليداً لكُلّ من مفردتي الفكر والعاطفة، كان انطلاق الإنسان في ضبط وإصلاح هاتين المفردتين انطلاقاً عمليّاً في ضبط السلوك، بيدَ أنّ عبادة الدعاء لم تُغفل هذا الجانب ـ أيْ: السلوكي ـ مطلقاً، بل أولته رعايةً خاصّة باعتباره الجبهة الشخصيّة الأولى التي تُلامس الواقع الخارجي..

ومن هنا نتلمّس في بعض الأدعية توجيهاً مباشراً إلى الحالة السلوكيّة السليمة؛ ومجدداً من خلال الارتباط بالخالق سبحانه، والارتكاز على تسديده في هذا الصدد، بعيداً عن الارتباط بأيّ من عوامل الفساد في الواقع، أو التأثّر بأيّ من الأشخاص الفاسدين في المجتمع، وهو ما نجده جليّاً في دُعاءٍ راقٍ للغاية للإمام السجّادعليه السلام يقول فيه:

«**اللهم إني أخلصت بانقطاعي إليك، وأقبلت بكلّي عليك، وصرفت وجهي**

عمن يحتاج إلى رفدك، وقلبت مسألتي عمن لم يستغن عن فضلك... فكم قد رأيت، يا إلهي، من أناس طلبوا العزّ بغيرك فذلّوا، وراموا الثروة من سواك فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتّضعوا، فصحّ بمعاينة أمثالهم حازم وفّقه اعتباره، وأرشده إلى طريق صوابه اختياره، فأنت، يا مولاي، دون كلّ مسؤول موضع مسألتي، ودون كلّ مطلوب إليه وليّ حاجتي، أنت المخصوص قبل كل مدعوّ بدعوتي، لا يشركك أحد في رجائي، ولا يتفق أحد معك في دعائي، ولا ينظمه وإياك ندائي. لك يا إلهي، وحدانية العدد، وملكة القدرة الصمد، ومن سواك مرحوم في عمره، مغلوب على أمره، مقهور على شأنه، مختلف الحالات متنقّل في الصفات، فتعاليت عن الأشباه والأضداد، وتكبّرت عن الأمثال والأنداد، فسبحانك لا إله إلّا أنت»[18].

إنّ هذا النمط من الارتباط السامي بالخالق سبحانه يُصرّح بما لا يدع مجالاً للّبس، أنّ الإنسان الذي يعيش هذا التواصل مع الخالق هو إنسانٌ ينطلقُ في حركةِ سلوكٍ رشيدةٍ وسليمة.

إنّ هذا النمط من الدعاء «يعالج المسألة في الدائرة الواقعية العملية، على أساس التجربة الحسيّة في مشاهدات الإنسان المؤمن للنماذج البشرية، التي عاشت الانبهار بالقوة الظاهرية لبعض الناس، فاندفعت إليهم لتطلب العزة بهم، والرفعة من خلالهم، والثروة بواسطتهم، فكانت النتائج خيبات أمل كبيرة دفعت الإنسان بعيداً عن قضاياه وحاجاته؛ لأنّ الذين تطلّع إليهم، وتوجّه نحوهم، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً إلّا بإذن الله، فكيف يملكون أن يدفعوه عن غيرهم من دون إذنه، وإذا كانت المسألة مرتبطة بالله بشكل مباشر، فلماذا يبتعدون عنه، ويقتربون من غيره، في ما لا يملكه أحد إلّا هو؟!»[19]، وهذا ما يكفُلُ تعديل سلوك الإنسان من الحالة الأولى المنخدعة ببعض الظواهر، إلى الحالة الثانية المتعمّقة في فهم الواقع والحقيقة، والارتكاز عليها عبر

دعامتي الفكر والعاطفة السليمتين للنهوض بسلوكٍ مستقيمٍ ناضج.

الخاتمة:

ارتكازاً على ما ورد في طيّات ما أسلفناه، يمكننا أن نتلمّس بوضوحٍ أبعاد مفردة الدعاء من المنظار الشرعي، إلى جانب إطلالةٍ وافيةٍ ودقيقةٍ على مصطلح (الشخصيّة) الإنسانيّة، وذلك كمدخل لتحرّي العمق في التعاطي مع موضوع وعنوان تكوين الشخصيّة، كما أبرز البحث جانباً من التأكيد الحثيث للقرآن الكريم على التزام عبادة الدعاء؛ بالنظر ـ طبعاً ـ إلى ما لها من آثار عمليّة في الواقع الحياتي الذي يعيشه الإنسان الملتزم.

وما يُمكن من خلاله تلخيص ما خلصنا إليه، حول أثر الدعاء في تكوين الشخصيّة الإيمانيّة، هو أثره الفاعل في مناحٍ ثلاث:

الأوّل: أثر عبادة الدعاء في الجانب الفكري (تنمية العمق الفكري لدى الإنسان المؤمن)، ودور عبادة الدعاء في تطوير عمليّة النمو المعرفي لديه.

والثاني: أثر عبادة الدعاء في الجانب النفسي (ترشيد الجانب العاطفي من شخصيّة الإنسان)، والدور الفاعل الذي تؤدّيه عبادة الدعاء في هذا الصدد.

أمّا الثالث فهو: أثر عبادة الدعاء في الجانب السلوكي (بحيثُ يتمّ ضبط أنشطة السلوك ضمن أُطر الوعي الفكري، والرّشد العاطفي).

ومن الأهميّة بمكانٍ للمتعمّقين في الإطار المعرفيّ ذاته أن يُفيضوا في كلٍّ من المحاور الثلاثة التي تمّ استعراضُها (العقلي، العاطفي، السلوكي)؛ إذ أنّ كُلاً منها جديرٌ بحقّ أن يكون عنواناً قائماً بذاته، وموضوعاً بحثيّاً يتمتّع بالجدّة والأهميّة والإثراء المعرفي والعمليّ.

ونأمل من الله أن يكون هذا الجهد خطوةً أولى في سياق تطوير هذا النمط من الدراسات والأبحاث.. وهو ـ سبحانه ـ من وراء القصد.

* * *

الهوامش:

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج١٤، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ، ص٢٥٧.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دمشق، الدار الشاميّة، ١٤١٢هـ، ص٣١٥.

(٣) مصباح المنير، ج٢، لا.م، لا.ت، ص ١٩.

(٤) المُختاري، محمد حسين، فلسفة المناجاة والتضرّع والدّعاء، قم، دار مهدي يار، ١٤٢٣هـ، ص٢٤.

(٥) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج١٤، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ، ص٢٥٧.

(٦) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط١، ج٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ص٥١.

(٧) سيلامي، نوربير، المعجم الموسوعي في علم النفس، ج٣، ترجمة وجيه أسعد، دمشق، وزارة الثقافة، ص١٤٠٦.

(٨) انظر: المصدر نفسه، ص: ١٠٦-١٠٧.

(٩) انظر: المصدر نفسه.

(١٠) البلاغي النجفي، محمد جواد، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ج١، قم، مؤسسة البعثة، ط١، ١٤٢٠ هـ، ص٦١.

(١١) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، قم، مدرسة الإمام علي (ع)، ١٤٢١هـ، ص ٢٩٩.

(١٢) الزحيلي، وهبة، تفسير الوسيط، ج١ دمشق، دار الفكر، ١٤٢٢هـ، ص٨٩.

(١٣) ومعناه حصول ارتباطٍ وتلازم لدى العقل بين شيئين، كالتلازم بين رؤية الثلج والإحساس بالبرد لدى البعض، أو رؤية الثعبان والشعور بالخوف، أو كما في تجربة بافلوف الشهيرة (الإشراط الكلاسيكي) الذي ربط فيها إشراطاً ما بين صوت الجرس وتقديم قطعة لحمٍ للكلب، بحيث بات لُعاب الكلب يسيل لدى سماع صوت الجرس حتى بدون تقديم قطعة اللحم له..، وكان يرى أنّ مثل هذا النمط من التعلّم هو قاعدة رئيسة في عملية اكتساب المعرفة، إنّما بشكلٍ

أكثر تعقيداً.

(١٤) وهي محفزات خارجيّة أو داخليّة تؤدّي إلى استجابات واعية أو غير واعية.

(١٥) انظر: نشواتي، عبد المجيد، علم النفس التربوي، ط ٩، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م، ص١٥١.

(١٦) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، قم، دار الهادي، ١٣٧٦ش، ص٧٠.

(١٧) فضل الله، محمد حسين، من وحي القرآن، ج١، بيروت، دار الملاك، ط٢، ١٤٩١هـ، ص٧٧.

(١٨) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، قم، دار الهادي، ١٣٧٦ش، ص ١٣٦.

(١٩) من وحي القرآن، ج١، ص٧٨، مرجعٌ سابق.

مصطلحات فكرية عامة

(القسم الأول)

❐ إعداد: المحرر الثقافي

تمهيد

إنّ الملاحظ في بلادنا ـ من قديم الأيام ـ أنّ العالم الديني والمشتغل بأمور الدين يُسأل عن كلّ ما يهمّ الناس والمجتمع في معاشهم ومعادهم، واشتدّ هذا في زماننا بعد أنْ دخل العالم الديني في معترك الحياة السياسية والاجتماعية العامة، ولم يقتصر الأمر عليه، بل تعدّاه إلى النخب المثقفة دينياً، والتي تتصف بالوعي والمسؤولية.

ولذلك أصبح من الضروري على عالم الدين والمتصدّي للأُمور العامة، وللنخب الثقافية الواعية أنْ تتعرّف على مجموعةٍ من الاصطلاحات الرائجة في الوسط الثقافي والفكري والسياسي والاجتماعي؛ وذلك لضرورتين:

الأُولى: ما تقدّم من أنّ الناس تتوقع مِمّن تقدّم ذكره أنْ يجيب عن تساؤلاتهم، والتي كثيراً ما تشتمل على اصطلاحات لا ربط لها بالأُمور الدينية.

الثانية: أنّ بعض المتصدّين قد يحاولون أنْ يستعملوا مثل هذه الاصطلاحات في معانيها المرتكزة عندهم، وفي الواقع يكون المراد منها عند

أهل المصطلح معنى آخر، فيوجب ذلك وصف مطلقها بالجهل، وكثيراً ما يؤدّي ذلك إلى سقوط منزلته في أعين الناس، الأمر الذي يؤثّر على تأثير كلامه ووعظه لهم.

وعلى هذا الأساس ارتأى المحرّر الثقافي في هذه المجلّة أنْ يتناول في كلّ عددٍ مجموعةً من هذه المصطلحات، بطريقةٍ مبسطة وواضحة، ولتكون الفائدة أتمّ لم نقتصر على تعريف المصطلح فحسب، بل بيّنا وجه نشوئه، ومتى عُمِل به، وتطوّر المصطلح، وجملة من الأُمور المرتبطة به.

١. **الأيديولوجية** (Idealogy):

أوّل من استعمل هذا الاصطلاح الفيلسوف الفرنسي ديستات تريسي (Tracy Destutt) (١٧٥٥ - ١٨٣٦) في كتابه عناصر الايديولوجية. يعني تريسي بالأيديولوجية علم الأفكار، أو العلم الذي يدرس مدى صحة أو خطأ الأفكار التي يحملها الناس، هذه الأفكار التي تتولّد منها النظريات والفرضيات التي تتلاءم مع العمليات العقلية لأعضاء المجتمع.

وانتشر استعمال هذا الاصطلاح بحيث أصبح لا يعني علم الأفكار فحسب، بل النظام الفكري والعاطفي الشامل الذي يعبّر عن مواقف الأفراد حول العالم والمجتمع والإنسان. وقد طبّق هذا الاصطلاح بصورة خاصة على الأفكار والعواطف والمواقف السياسية التي هي أساس العمل السياسي وأساس تنفيذه وشرعيته.

والأيديولوجية السياسية هي الأيديولوجية التي يلتزم ويتقيد بها رجال السياسة والمفكرون السياسيون إلى درجة كبيرة بحيث تؤثر على كلامهم وسلوكهم السياسي، وتحدّد إطار علاقتهم السياسية بالفئات والعناصر الأخرى. والأيديولوجيات السياسية التي تؤمن بها الفئات والعناصر المختلفة

في المجتمع دائماً ما تتضارب مع بعضها، أو تتسم بالأسلوب الإصلاحي، أو الثوري الذي يهدف إلى تغيير واقع وظروف المجتمع. لكن جميع الايديولوجيات تكون متشابهة في شيء واحد ألا وهو أسلوبها العاطفي وطبيعتها المحرّكة لعقول الجماهير.

تعبّر الأيديولوجية بصورة عامة عن أفكار يعجز العلم الموضوعي برهان حقيقتها وشرعيتها، لكن قوة هذه الأفكار تظهر من خلال نغمتها العاطفية وتكتيكها المحرّك للجماهير والذي يتناسب مع الحدث الاجتماعي الذي ترمي القيام به.

إنّ المفهوم الماركسي للأيديولوجية يعبر عن شكل وطبيعة الأفكار التي تعكس مصالح الطبقة الحاكمة التي تتناقض مع طموحات وأهداف الطبقة المحكومة خصوصاً في المجتمع الرأسمالي. ويحدّد البروفسور كارل منهايم (Karl Mannheim) معنى الأيديولوجية في كتابه: الأيديولوجية والطوبائية الذي نشره عام ١٩٣٦، فيقول بأنّها الأفكار المشوهة التي تطلقها الطبقة الحاكمة لتحافظ على النظام الاجتماعي الحالي، أو النظام الاجتماعي السابق، أو هي التعبير الفكري لجماعة من الجماعات، وهذا التعبير يساعدها على تحقيق أهدافها وطموحاتها. والأيديولوجية حسب آراء وتعاليم البروفسور منهايم هي: كلمة معاكسة للطوبائية التي يعني بها المثالية، أو العمل من أجل المجموع. إنّ دراسة الأيديولوجية هي من الدراسات الأساسية التي يهتمّ بها علم الاجتماع خصوصاً علم اجتماع الدين وعلم اجتماع السياسة، وتشكّل الموضوع الأساسي الذي يدور حوله علم اجتماع المعرفة.

٢. البروليتاريا (Proletariat):

مصطلح سياسي يُطلق على طبقة العمال الأُجراء الذين يشتغلون في الإنتاج

الصناعي، ومصدر دخلهم هو بيع ما يملكون من قوّة العمل، وبهذا فهم يبيعون أنفسهم كأيّ سلعة تجارية. وهذه الطبقة تعاني من الفقر نتيجة الاستغلال الرأسمالي لها، ولأنّها هي التي تتأثر من غيرها بحالات الكساد والأزمات الدورية، وتتحمل هذه الطبقة جميع أعباء المجتمع دون التمتّع بمميزات متكافئة لجهودها. وحسب المفهوم الماركسي فإنّ هذه الطبقة تجد نفسها مضطرة لتوحيد مواقفها ليصبح لها دور أكبر في المجتمع.

لقد نشأت البروليتاريا في إنجلترا خلال النصف الثاني من القرن الماضي (الثامن عشر) على إثر الثورة الصناعية التي قامت منذ ذلك الحين في جميع البلدان المتقدمة في العالم.

كان الحافز لهذه الثورة الصناعية هو اختراع الآلة البخارية ومختلف أنواع آلات الغزل والأنوال الآلية وعدداً كبيراً من الأجهزة الميكانيكية الأخرى، التي بحكم ثمنها الباهظ لم يكن قادراً على شرائها سوى كبار الرأسماليين، مِمّا أدّى إلى تغيير شامل لنمط الإنتاج السابق، وإلى إزاحة الحِرفيين القدامى؛ نظراً لأنّ هذه الآلات أصبحت تنتج سلعاً أفضل وأرخص من تلك التي أنتجها أولئك الحرفيين بأنوالهم اليدوية وأدواتهم البدائية.

وهذا ما يفسّر كيف أدّى دخول الآلة على النشاط الصناعي برمّته إلى تحويله بين أيدي كبار الرأسماليين، وإلى إفقاد الملكية الحرفية الصغيرة (أنوال، أدوات عمل...) كل ما لها قيمة، مما مكّن الرأسماليين من السيطرة على كل شيء، في حين فقد العمال كلّ شيء.

ولقد أدخل نظام المانيفاكتورة ـ أوّل الأمر ـ في صناعة النسيج والملابس، ثم ما إن كانت الانطلاقة الأولى لهذا النظام حتى انتشر سريعاً ليشمل سائر الفروع الصناعية كالطباعة وصناعة الخزف والمعادن، وأصبح العمل مقسما أكثر فأكثر بين مختلف فئات العمال، بحيث إِنّ العامل الذي كان في السابق ينجز عمله

كاملاً صار لا يؤدّي إلا جزءاً فقط من هذا العمل. وقد سمح تقسيم العمل هذا بإنتاج سلع على نحو أسرع، وبالتالي بكلفة أقل، وصار دور العامل مقتصراً على أداء حركة آلية جدُّ بسيطة ومكررة باستمرار تستطيع الآلة أداءها ليس فقط بنفس الجودة بل بأفضل منها.

وسرعان ما سيطرت المكننة والصناعة الكبيرة على جميع فروع الإنتاج الواحد تلو الآخر تماماً مثلما حصل بالنسبة للغزل والنسيج، وهكذا وقعت كلّ الفروع الصناعية بين أيدي كبار الرأسماليين، وفقد العمّال بذلك هامش الحرية الذي كانوا يتمتعون به سابقاً. وزيادة عن المانيفاكتورة ذاتها وقعت الأنشطة الحِرفية شيئا فشيئاً تحت سيطرة الصناعة الكبيرة؛ إذ تمكّن كبار الرأسماليين من إزاحة المنتجين الصغار المستقلين، وذلك بإنشاء الورشات الكبرى حيث المصاريف العامة أقلّ، وإمكانية تقسيم العمل أوفر. وهذا ما يفسّر الإفلاس المتزايد من يوم لآخر للطبقة الحِرفية الوسطى والتغيير الشامل في وضعية العمال ونشوء طبقتين جديدتين سرعان ما انصهرت فيها بقية الطبقات شيئاً فشيئاً، ألا وهي:

ـ طبقة كبار الرأسماليين الذين يحتكرون في كلّ البلدان المتحضرة ملكية وسائل العيش والمواد الأولية وأدوات العمل (الآلات والمصانع) اللازمة لإنتاج وسائل العيش. إنّها طبقة البرجوازيين أو البرجوازية.

ـ طبقة الذين لا يملكون شيئاً والمضطرين إلى بيع عملهم للبرجوازيين مقابل الحصول على الضروريات لإبقائهم على قيد الحياة. إنّها طبقة البروليتاريا أو البروليتاريون.

ما هي الظروف التي يبيع فيها البروليتاريون عملهم للبرجوازية ؟

إنّ العمل سلعة ـ كغيرها من السلع ـ وبالتالي يتحدّد سعرها على أساس نفس القوانين المعمول بها بالنسبة لأيّة سلعة أخرى. وفي ظلّ سيادة الصناعة

الكبرى أو المنافسة الحرة يساوي سعر أيّ بضاعة ما ـ دائماً ـ ما يعادل كلفة إنتاجها. وبالتالي يكون سعر العمل هو أيضاً مساوياً لكلفة إنتاج العمل. لكنّ كلفة إنتاج العمل تتمثّل في كمية وسائل العيش الضرورية لجعل العامل قادراً على استئناف ومواصلة عمله، ولإبقاء الطبقة العاملة بصفة عامة على قيد الحياة. فالعامل إذن لا يتقاضى مقابل عمله سوى الحدّ الأدنى الضروري لتأمين تلك الغاية. وهكذا يكون سعر العمل أو الأجر هو الحدّ الأدنى الضروري لإبقاء العامل على قيد الحياة. وبما أنّ الأحوال الاقتصادية قد تسوء تارة وتزدهر تارة أُخرى، فإنّ العامل يتقاضى مقابل عمله أقلّ أو أكثر حسب تلك الأحوال، تماماً مثلما يتقاضى الرأسمالي مقابل بيع سلعة ثمنها قد يرتفع أو ينخفض حسب الأحوال الاقتصادية.

وهكذا، كما يتقاضى الرأسمالي ـ إذا عادلنا بين ازدهار الأحوال و كساده ـ ما يساوي كلفة الإنتاج لا أكثر ولا أقلّ، فإنّ العامل لن يتقاضى كذلك أكثر أو أقلّ من الحد الأدنى لإبقائه على قيد الحياة. ومع تغلغل التصنيع الكبير في جميع فروع الإنتاج، يتعاظم التطبيق الصارم لهذا القانون الاقتصادي للأجور.

٣. الأوتوقراطية (Autocracy):

مصطلح يطلق على الحكومة التي يرأسها شخصٌ واحد، أو جماعة، أو حزب، لا يتقيّد بدستور أو قانون، ويتمثّل هذا الحكم في الاستبداد في إطلاق سلطات الفرد أو الحزب، وتوجد الأوتوقراطية في الأحزاب الفاشيّة أو الشبيهة بها، وتعني الكلمة باللاتينية الحكم الإلهي، أيْ: أنّ وصول الشخص للحكم تمّ بموافقة إلهية، والأوتوقراطي هو الذي يحكم حكماً مطلقاً، ويقرّر السياسة دون أية مساهمة من الجماعة، وتختلف الأوتوقراطية عن الديكتاتورية من حيث إنّ السلطة في الأوتوقراطية تخضع لولاء الرعية، بينما في الدكتاتورية نجد أنّ

المحكومين يخضعون للسلطة بدافع الخوف وحده. وكان هذا الحكم سائداً إبان القرون الوسطى، في روسيا القيصرية، وفي عدد من دول أوروبا الشرقية.

٤. البيروقراطية (Bureaucracy):

يأتي أصل كلمه بيروقراطية من الفرنسية من كلمه بيرو (Bureau) ،أي: مكتب ، وترمز للمكاتب الحكومية التي كانت في القرن الثامن عشر، والتي كانت تغطى بقطعه من القماش المخملي الداكن اللون، ومن اليونانية من كلمة (Kratos)، أي: القوّة، (السلطة، والسيادة)، وقد استخدمت كلمة البيروقراطية للدلالة على الرجال الذين يجلسون خلف المكاتب الحكومية ويمسكون بأيديهم بالسلطة، ولكن توسّع هذا المفهوم ليشمل المؤسسات غير الحكومية، كالمدارس والمستشفيات والمصانع والشركات وغيرها، وهو تنظيم نموذجي من المفروض أن يؤدّي إلى إتمام العمل على أفضل وجه. وغالباً ما تطلق البيروقراطية على الانضباط، وتطلق بعض الأحيان على أنّها تعبير عن المجتمع الحديث.

إذاً البيروقراطية تعني نظام الحكم القائم في دولة ما يُشرف عليها ويوجهها ويديرها طبقة من كبار الموظفين الحريصين على استمرار وبقاء نظام الحكم؛ لارتباطه بمصالحهم الشخصية؛ حتى يصبحوا جزءاً منه، ويصبح النظام جزءاً منهم، ويرافق البيروقراطية جملة من قواعد السلوك ونمط معين من التدابير تتصف في الغالب بالتقيد الحرفي بالقانون، والتمسك الشكلي بظواهر التشريعات، فينتج عن ذلك (الروتين)؛ وبهذا فهي تعتبر نقيضاً للثورية، حيث تنتهي معها روح المبادرة والإبداع وتتلاشى فاعلية الاجتهاد المنتجة، ويسير كل شيء في عجلة البيروقراطية وفق قوالب جاهزة، تفتقر إلى الحيوية. والعدو الخطير للثورات هي البيروقراطية التي قد تكون نهاية معظم الثورات.

٥. التكنوقراطية (Technocracy):

مصطلح سياسي نشأ مع اتّساع الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجي، وهو يعني (حكم التكنولوجية)، أو حكم العلماء والتقنيين، وقد تزايدت قوّة التكنوقراطيين نظراً لازدياد أهمية العلم ودخوله جميع المجالات وخاصة الاقتصادية والعسكرية منها، كما أنّ لهم السلطة في قرار تخصيص صرف الموارد والتخطيط الاستراتيجي والاقتصادي في الدول التكنوقراطية، وقد بدأت حركة التكنوقراطيين عام: (١٩٣٢) في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كانت تتكوّن من المهندسين والعلماء، والتي نشأت نتيجة طبيعة التقدّم التكنولوجي. أمّا المصطلح فقد استحدث عام (١٩١٩) على يد (وليام هنري سميث) الذي طالب بتولي الاختصاصيين العلميين مهام الحكم في المجتمع الفاضل.

وقد حاولت هذه الحركة صياغة مجموعة من المبادئ والأسس ـ أسهم في وضعها عدد من المهندسين والاقتصاديين وطلاب العلوم الاقتصادية ـ كأهداف لهذه الحركة:

١. أنّ الظواهر الاجتماعية يمكن قياسها، واستناداً إلى ذلك القياس يمكن استنباط إدارة المجتمع.

٢. استخدام الأدلة في إنتاج البضائع والخدمات جعل من المتعذر تقدير قيمة الحاجات المنتجة بوساطة أيّ بضاعة وحدها كالذهب، ومن ثم إلى تهديم نظام الأسعار.

من هو التكنوقراطي؟

التكنوقراطي كما يقول جان وليم لابيير: «**هو الخبير المدعو إلى المشاركة في صياغة القرارات التي يفيد منها في ممارسة السلطة الفعلية، إمّا بتأثيره الغالب على أصحاب السلطة الشرعية، أو بالنيابة عنهم في حلوله محلهم، أو ـ أخيراً ـ**

باستيلائه على السلطة الصريحة باسم الشرعية العقلية».

ولننتبه إلى مفهوم (الشرعية العقلية) التي هي من امتيازات التكنوقراطي، وهي الشرط الأساس الذي يقوم عليه أيّ تصوّر لتحديث المجتمع، باعتبار أنّ التكنوقراطي هو (عقل مُؤَسّس) وليس شخصاً يحتلّ مركزاً أو وظيفة، ويملك بحكم (عقله) شرعية دستورية وقانونية لأن يكون حاكماً. فوجود البنية العقلية المجربة، والممارسة الميدانية التي تولّد الخبرة كشرطين أساسيين في توصيف مهمة التكنوقراطي المعاصرة هما اللتان ترجحان كفة مسؤول عن آخر.

كما علينا أن ننتبه إلى أن التكنوقراطي يُدعى لشغل منصب ما من قبل السلطة، بمعنى أنّ كيانه المعنوي دائماً هو خارج السلطات، وكلمة (يُدعى)، تعني أنّه يكلّف بمهمة ما محددة ضمن وقت؛ ولذا لن يكون التكنوقراطي منتمياً لأيّ حزب أو ايديولوجية، كما أنّه لن يكون طامحاً باحتلال منصب دائم في الدولة؛ لأنّه وهو يشغل منصب وزير ـ مثلاً ـ فتوزيره جاء بناء على كفاءته، وليس على منصبه الحزبي أو العشائري أو القومي؛ فالتكنوقراطون شريحة اجتماعية اكتسبت الخبرة والكفاءة عن طريق العمل والعقل والانتظام والشرعية القانونية والتعليمية والخبرة الميدانية.

وتتحدث إحصائيات كثيرة أنّ من بين ثلاثة آلاف شخص يتخرجون من كليات الإدارة لا يكون من بينهم (تكنوقراط) إلّا بحدود (٢٥٠) متخرجاً، وهذا يعني أنّه ليس كلّ من تخرّج من كلية متخصصة يمكنه أن يكون تكنوقراطيا. فالشهادة ليست إلا عتبة لمدخل غير مأمون العواقب إذا لم تصاحب المتخرج تجربة في الأعمال الميدانية والخبرات العملية والاجتهاد والبحث، والفشل والنجاحات.

وبالطبع ستكون الدعوة للتكنوقراطي مفتوحة أومؤقتة، ليمارس عبرها سلطته المعرفية بالأمور التي كلّف بها مرحلياً. إنّه الخبير الذي يوظّف خبرته

لصياغة قرارات تتلاءم وسياسة الدولة في هذه المرحلة، وربط هذه القرارات بالمراحل السابقة لتطور ميدانه، ثم فتح آفاق أخرى للمستقبل قياساً على نتائج بحوثه.

ومن هنا ـ ونتيجة لكونه مرتبطاً بعجلة التطور ـ يمكنه أن يحلّ محلّ القادة في شرح القرار الذي تمّ اتخاذه، وعليه لا يمكن لرئيس وزراء أن ينصب وزيراً للداخلية في مرحلة ما، ثم يجعله وزيراً للمالية في مرحلة لاحقة لا تفصل بينهما إلا بضعة أيام دون أن يصطحب معه في قفزته المارثونية هذه خبراء إداريين وعسكريين وماليين وأصحاب شركات ناجحة بغض النظرعن إنتماءاتهم السياسية والدينية والقومية؛ كي يكون ـ بهم ـ وزيراً للمالية، حيث إنّ الوزير ليس شخصاً بل فريق عمل متكامل يستثمر العقول والخبرات والكفاءات. فالتكنوقراطي رجل دولة، وخبير بعمله، يوظف قدراته العقلية والمهنية من اجل إنجاح خطة واضحة المعالم.

٦. الحصانة البرلمانية (Parliamentary):

هي الحرمة المعطاة للبرلمان بشخصية أعضائه، وذلك كي يستطيع النائب أنْ يؤدّي مهامه ويضطلع بصلاحياته ضمن مناعة قانونية استثنائية. هذه الحصانة متصلة بأصولها التاريخية بطبيعة النظام البرلماني الذي منذ نشأته إلى أن يتكوّن بشكل سلطة قائمة بذاتها، الذي تنبثق منه بطريقة الانتخابات، وصالحة من ثمّ لأن تسنّ القانون بوصفه القاعدة السامية والأساسية التي تخضع الدولة بأجمعها من حكام ومحكومين إلى أوامرها.

ومن جرّاء ذلك اكتسبت الحصانة البرلمانية درجة المؤسسة العالمية المتصلة اتصالاً عضوياً بنظرية الديمقراطية التمثيلية، وهي ظاهرة من ظواهر الدساتير المدنية.

تشتمل هذه الحصانة على امتيازين خارجين عن القانون العادي الذي ينطبق على جميع المواطنين، وهما:

أوّلاً: اللامسؤولية.

ثانياً: الحرمة الشخصية.

وهما يعنيان الحصانة عن الدعاوى الجزائية من جهة، وعن الإجراءات الجزائية من جهة ثانية، وتستهدف هذه الحصانة حماية شخص النائب فقط في جميع أعماله وتنقلاته. ومداها يبقى مقتصراً عليه دون أعضاء أسرته أو منزله أو مكتبه أو معاونيه أو مكان حزبه وهذه الحصانة تتناول مراسلاته البريدية والبرقية ومكالماته الهاتفية وذلك لسرّيتها القانونية.

إذاً الحصانة النيابية هي: ضمانة دستورية بعدم اتّخاذ أيّ من الإجراءات الجنائية في غير حالة التلبس بالجريمة ضدّ أحد أعضاء البرلمان أثناء انعقاده بغير إذن من المجلس التابع له ذلك العضو من الناحية الإجرائية.

وهي نوعان: حصانة موضوعية وحصانة إجرائية.

الحصانة الموضوعية، هي: امتياز مقرّر لمصلحة الوظيفة البرلمانية، وليس امتيازاً شخصياً لمصلحة عضو البرلمان؛ ولذا لا يمكنه التنازل عنها.

فالحصانة الموضوعية تعني عدم مسؤولية أعضاء البرلمان عن الأقوال أو الأفكار والآراء التي تصدر منهم أثناء ممارستهم لوظائفهم النيابية.

وأجمع فقهاء القانون الدستوري على أنّ الحصانة الموضوعية من النظام العام، ومستمرة ودائمة، سواء أثناء مدة العضوية أم بعد انتهائها، وأنّ للعضو حقّ التمسّك بها في أيّ وقت وفي أيّ حالة كانت عليها الدعوى، فهي تمنع كلتا المسؤوليتين المدنية والجنائية من أصولها، فلا يعدّ هناك أمراً يعاقب عليه أصلاً.

أمّا الحصانة الإجرائية فتعني عدم جواز اتّخاذ أية إجراءات ضد أيّ من أعضاء البرلمان في غير حالة التلبس بالجريمة إلا بعد إذن المجلس التابع له،

ولهذا يطلق عليها الحصانة ضدّ الإجراءات الجنائية، وعادة يقرّرها الدستور لأعضاء المجالس التشريعية، ومؤداها: عدم جواز اتخاذ الإجراءات الجنائية ضدّهم قبل الحصول على إذن المجلس.

إنّ الحصانة البرلمانية الإجرائية لا تمتدّ إلى حالة التلبس بالجريمة؛ إذ أنّ الأمر يتطلب تدخّلاً فورياً من جانب مأموري الضبط القضائي، فكان لا بدّ من الاعتراف لهم باتّخاذ الإجراءات المناسبة للمحافظة على أدلة الجريمة من العبث أو الضياع.

وتمتاز الحصانة الإجرائية بأنّها محدّدة المدة؛ حيث تسري خلال فترة انعقاد المجلس فقط، وهي لا تنفي الجريمة ولا تمنع العقاب أصلاً، بل تحول فقط دون اتخاذ إجراءات جزائية تمس شخص النائب أو عضو المجلس أثناء انعقاد المجلس، فهي حصانة محددة المدة.

كما أنّها قاصرة على الدعاوى الجنائية، وبناء عليه فهي لا تمانع من اتّخاذ أي إجراء مدني مهما كان نوعه، فيمكن لأيّ فرد أن يرفع أيّ دعوى مدنية أمام القضاء ضدّ أيٍّ من الأعضاء، وأثناء دورات الانعقاد دون إذن من المجلس، ويدخل ضمن ذلك الدعاوى التي يطلب فيها المدّعون تعويضاً عن جرائم ارتكبها أعضاء البرلمان وحكم بإدانتهم فيها، أو التي ترفع عليهم بصفتهم مسؤولين عن الحقوق المدنية.

هذا بالإضافة إلى الحالات التي تزول فيها الحصانة البرلمانية الإجرائية والتي يجوز فيها تحريك الدعوى الجزائية ضدّ عضو البرلمان، وهي أربع حالات:

١. صدور إذن من المجلس.
٢. انتهاء دورة انعقاد المجلس.
٣. التلبّس بالجريمة (الجرم المشهود).
٤. انتهاء ولاية المجلس.

التفرقة بين الحصانة البرلمانية الموضوعية والبرلمانية الإجرائية:

تختلف الحصانة الموضوعية عن الحصانة الإجرائية في الأمور التالية:

ـ الحصانة الموضوعية تمنع أصلاً المسؤوليتين الجنائية والمدنية عن كلّ ما يبديه عضو البرلمان من الأقوال والآراء بمناسبة عمله البرلماني. أمّا الحصانة البرلمانية الإجرائية فهي لا تنفي الجريمة، ولا تمنع العقاب أصلاً، بل تحول دون اتخاذ إجراءات ضدّ عضو البرلمان بدون إذن المجلس أثناء دورة الانعقاد، وإذن رئيس المجلس في غير حالة الانعقاد.

ـ الغرض من الحصانة الموضوعية هو ضمان حرية المناقشة والرأي والتصويت، أمّا الحصانة الإجرائية فالغرض منها عدم انتزاع العضو من مقعده أثناء الدورة.

ـ الحصانة الموضوعية حصانة دائمة ونهائية، فلا يصحّ مؤاخذة نائب سابق عمّا أبداه من الآراء والأفكار في المجلس مدّة نيابته بحجة أنّ العضوية زالت عنه، والحصانة البرلمانية الإجرائية مؤقتة وتزول بزوال صفة النائب.

والحصانة الموضوعية والإجرائية وإن اختلفتا في بعض النواحي إلا أنّهما يتفقان بأنّهما من حقوق المجلس والوظيفة البرلمانية لا العضو ذاته، فلا يجوز للعضو أن يتنازل عنهما.

وتمثّل الحصانة سواء كانت موضوعية أم إجرائية استثناء من القانون العام، اقتضته ضرورة جعل السلطة التشريعية ـ الممثل الحقيقي للأمة ـ بمنأى عن اعتداءات السلطات الأخرى وطغيانها، وهي وإنْ كانت في ظاهرها تخلّ بمبدأ المساواة بين الأفراد، إلا أنّ عدم المساواة هنا لم يقرّر لمصلحة النائب، بل لمصلحة سلطة الأمة، ولحفظ كيان التمثيل النيابي وصيانته ضدّ كلّ اعتداء، ولكن ليس معنى ذلك أنْ يصبح أعضاء البرلمان دون بقية الأفراد فوق القانون لا حسيب عليهم ولا رقيب. فالحصانة في الواقع ليست طليقة من كلّ قيد أو

حد؛ بل هناك ضوابط وقيود عديدة تحدّ من نطاقها إذا ما تجاوز عضو البرلمان الحدود المسموح بها، أو الحدود المشروعة لها، فهي عندما تقرّرت إنما كان لهدف محدّد وواضح لا يجوز تجاوزه أو الخروج عليه، وإلا تعرّض عضو البرلمان للمسؤولية كاملة.

ورغم أهمية موضوع الحصانة البرلمانية على هذا النحو، ورغم أنّه موضوع قديم إلّا أنّه يكاد يكون من الموضوعات التي لم تُطرق بشكلٍ معمّق من جانب رجال الفقه الإسلامي عامة، وعلماء السياسة الشرعية، إلا أنّ التشريعات الوضعية كفلت لاعتبارات معينه لبعض الأشخاص التمتّع ببعض الحصانات، ومن هؤلاء رئيس الدولة وأعضاء البرلمان والقضاة والدبلوماسيين، حيث يتمتّع الجميع بالحصانة الجنائية، والحكمة من حصانتهم هي عدم تمكين الحكومة من التأثير عليهم في عملهم أو منعهم من أداء واجبهم.

ويجمع الفقه الوضعي على أنّ الحصانة البرلمانية في أيّ من الدساتير التي تضمنتها ليست امتيازاً للعضو، ولكنّها ضمان للهيئة التشريعية نفسها في مجموعها؛ باعتبارها ممثلاً للشعب لتحقيق استقلالها، وفي الوقت نفسه تعتبر ضماناً لحرية العضو في القيام بواجباته داخل المجلس الذي يتمتع بعضويته، وهو في مأمن من خصومه السياسيين أو تعنت السلطة التنفيذية معه.

وعلى ذلك، فإنّ القصد من الحصانة البرلمانية هو عدم تمكين السلطة التنفيذية من التأثير على أعضاء السلطة التشريعية عن طريق القبض والحبس أو المحاكمة الكيدية حتى تتجنّب أو تؤجّل معارضتهم لها، وتضفي الدساتير على أعضاء البرلمان حصانة تمنع من اتّخاذ إجراءات جنائية نحوهم دون إذن من المجلس التابعين له في غير حالة التلبس. وترى تلك الحصانة إلى وضع الأعضاء تحت حماية البرلمان، ومن البدهي أنّ عدم المسؤولية لا يشمل إلا ما يبديه العضو من الآراء والأفكار التي يبديها عضو البرلمان داخل قبة البرلمان أو خارج

المجلس بمناسبة قيامه بعمل برلماني. كأن يكون منتخباً في لجنة تحقيق برلمانية مثلاً منتدبة للعمل خارج المجلس. كما تشمل المناقشات والمداولات التي تتمّ في الجلسات أو اللجان واقتراح مشروعات القوانين، والأسئلة الشفوية والمكتوبة التي توجّه إلى الوزراء، فاصطلاح الآراء والأفكار لا يجسّدان في الواقع سوى الأسلوب أو النهج العادي واليومي لأعضاء البرلمان، فهو يغطّي أنشطة أعضاء البرلمان في كافة الأجهزة التي يشتمل عليها، ويلاحظ أنّ عدم المسؤولية لا يتعدّى إلى ما يصدر من النائب من أفعال كالضرب، ويتمتع بهذه الضمانة ولو شملت الأقوال والآراء قذفاً أو سباً أو دعوة لارتكاب جريمة أو تحبيذ لها.

إلا أنّ الحصانة في التشريعات الإسلامية تقتصر على عدم مساءلة النائب عمّا يصدر عنه من نقد لسياسة الحكومة وما يتعلّق بها، ولا تمتدّ هذه الحصانة إلى ما يصدر من البرلماني من شتم وقذف؛ لأنّ ذلك يصادم الشريعة الإسلامية، حيث أنّ التشريع الجنائي الإسلامي لا يفرّق في نصوصه ولا في تطبيقاته بين الناس؛ نظرا إلى اختلاف مناصبهم أو أجناسهم.. وإنما الجميع أمامه سواسية، كما أنّ ذلك يفتح الباب بمصراعيه أمام ضعاف النفوس من البرلمانيين ـ وما أكثرهم ـ إلى الشطط في استعمال هذه الحصانة لأغراض شخصية قد تصل حدّ الابتزاز والاعتداء على أفراد الشعب، والذي هو مصدر كلّ السلطات.

٧. الدبلوماسية (Diplomacy):

هي مجموعة القواعد والأعراف والمبادئ الدولية، التي تهتم بتنظيم العلاقات القائمة بين الدول والمنظمات الدولية، والتوفيق بين مصالح الدول المتباينة، وهي أيضاً فنّ إجراء المفاوضات في الاجتماعات، وعقد الاتفاقيات والمعاهدات. ويطلق لفظ الدبلوماسية كذلك على ما يتصف به الدبلوماسي العريق، من لباقة وحسن تصرف، وتهذيب رفيع، وحذر وحيطة وبراعة في

تحقيق أهدافه، من دون إثارة نقمة أحد، أو حفيظته.

وهي كلمة يونانية اشتقت من كلمة (دبلوم) أو (دبلون)، ومعناها طبق أو طوى أو ثنى. فلقد كانت تختم جميع جوازات السفر ورخص المرور على طرق الامبراطورية الرومانية وقوائم المسافرين والبضائع على صفائح معدنية ذات وجهين مطبقين ومخيطين سوياً بطريقة خاصة، وكانت تذاكر المرور هذه تسمّى (دبلومات). واتسعت كلمة (دبلوما) حتى شملت وثائق رسمية غير معدنية، وهي التي تمنح المزايا أو تحتوي على اتفاقات مع جماعات أو قبائل أجنبية.

قال شيشرون (٤٣ – ١٠٦ ق.م) عن الدبلوماسية: استخدمت كلمة دبلوما بمعنى التوصية الرسمية التي تعطى للأفراد الذين يأتون إلى البلاد الرومانية، وكانوا يحملونها معهم ليسمح لهم بالمرور وليكونوا موضع رعاية خاصة. انتقلت الدبلوماسية اليونانية إلى اللاتينية، وإلى اللغات الأوروبية، ثمّ إلى اللغة العربية.

ـ الدبلوماسية في اللاتينية تعني: الشهادة الرسمية أو الوثيقة التي تتضمن صفة المبعوث والمهمة الموفد بها، والتوصيات الصادرة بشأنه من الحاكم بقصد تقديمه و حسن استـقباله أو تيسير انتقاله بين الأقاليم المختلفة، وكانت هذه الشهادات أو الوثائق عبارة عن أوراق تمسكها قطع من الحديد تسمّى (دبلوما).

ـ أمّا المعنى الثاني الذي استعمله الرومان لكلمة دبلوماسية، والذي كان يفيد عن طباع المبعوث أو السفير، وقصدت باللاتينية (بمعنى الرجل المنافق ذي الوجهين).

الدبلوماسية بالمفهوم الفرنسي: تعني مبعوث أو مفوّض، أيْ: الشخص الذي يُرسل في مهمة، أمّا كلمة سفير فتشتق من كليتيه،أيْ: تابع، خادم، وهو لقب يمنح فقط لممثلي الملوك).

إنّ الأسبان كانوا أوّل من استخدم كلمة سفارة أو سفير بعد نقلها عن

التعبير الكنسي، بمعنى الخادم. فاتسع مفهوم الدبلوماسية فيما بعد وأصبحت تستعمل في عدة معان:

أ. المهنة.

ب. المفاوضات.

ج. الدهاء والكياسة.

د. السياسة الخارجية.

الدبلوماسية في اللغة العربية:

كانت كلمة (كتاب) للتعبير عن الوثيقة التي يتبادلها أصحاب السلطة بينهم والتي تمنح حاملها مزايا الحماية والأمان.

وكلمة سفارة تستخدم عند العرب بمعنى الرسالة، أيْ: التوجه والانطلاق إلى القوم، بغية التفاوض، وتشتق كلمة: (سفارة من سفر)، أو (أسفر بين القوم إذا أصلح)، و (كلمة سفير هو من يمشي بين القوم في الصلح أو بين رجلين).

تعريف الدبلوماسية:

ـ تعريف آرنست ساتو: إنّ الدبلوماسية هي استعمال الذكاء والكياسة في إدارة العلاقات الرسمية بين حكومات الدول المستقلة.

ـ تعريف شارل كالفو: الدبلوماسية هي علم العلاقات القائمة بين الدول، كما تنشأ عن مصالحها المتبادلة، وعن مبادئ القانون الدولي، ونصوص المعاهدات والاتفاقات ومعرفة القواعد والتقاليد التي تنشأ. وهي: علم العلاقات، أو فنّ المفاوضات، أو فن القيادة والتوجيه.

ـ تعريف هارولد نيكلسو: يقول إنّ الدبلوماسية هي إدارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات، أو طريقة معالجة وإدارة هذه العلاقات بواسطة السفراء والممثلين الدبلوماسيين، فهي عمل وفنّ الدبلوماسيين.

ـ يقول الدكتور عدنان البكري. إنّ الدبلوماسية هي عملية سياسية تستخدمها الدولة في تنفيذ سياستها الخارجية في تعاملها مع الدول والأشخاص الدوليين الآخـــرين، وإدارة علاقاتها الرسمية بعضها مع بعض ضمن النظام الدولي.

ـ يقول مأمون الحموي: إنّ الدبلوماسية هي ممارسة عملية لتسيير شؤون الدولة الخارجية، وهي علم وفنّ علم ما تتطلبه من دراسة عميقة للعلاقات القائمة بين الدول ومصالحها المتبادلة ومنطوق تواريخها ومواثيق معـــاهدتها من الوثائق الدولية، في الماضي والحاضر. وهي فنّ لأنّه يرتكز على مواهب خاصة عمادها اللباقة والفراسة وقوة الملاحظة.

٨. الدكتاتورية (Dictatorship):

شكلٌ من الحكم السياسي الذي يتولاه فرد واحد، يحكم بحيث لا تقيّده قيود قانونية أو دستورية أو عرفية. وهكذا فإنّ الدكتاتورية نوعٌ من الحكم الاستبدادي. يحصل الدكتاتوريون على السلطة عادة بوسائل غير دستورية، وغالباً ما تكون عنيفة، ويحتفظون بها بالقوة.

والقاعدة التي يقدمها الدكتاتور لتولّي السلطة واستمرارها، والعنف الضروري لمواصلة حكمه هو الوجود المفترض للخلاف والخطر الخارجي.

وغالباً ما تقابل الشرعية باللجوء إلى استفتاء أو صياغة دساتير جديدة، وخلافة الزعامة تمثّل دائماً مشكلة للدكتاتوريين؛ لأنّ أيّ خلف مسمى قد يكون خطرا على سلطة الدكتاتور وحكمه، وقد تطبّق أية عملية نظامية لخلافة الزعامة لاستبدال الدكتاتور.

* * *

مع المولى أبي عبد الله الحسين عليه السلام في مواعظه

اتخاذ المعصية ذريعة لقضاء الحوائج

بقلم: رئيس التحرير

نص الموعظة:

روى الكليني رحمه الله في الكافي عن عِدّةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ، عَن شَرِيفِ بْنِ سَابِقٍ، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ أَبِي قُرّةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، قَالَ: «**كَتَبَ رَجُلٌ إلى الحُسَيْنِ عليه السلام: عِظْنِي بِحَرْفَيْنِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: مَنْ حَاوَلَ أَمْراً بِمَعْصِيَةِ الله كَانَ أَفْوَتَ لِمَا يَرْجُو وَأَسْرَعَ لِمَجِيءِ مَا يَحْذَر**»[1].

طالب الموعظة:

من الملاحظ في الرجل الذي أُلقيت إليه هذه الموعظة أنّه يتميّز بخصلتين:

الخصلة الأُولى: أنّه طلب الموعظة وسعى نحوها. فإنّ هناك صنفاً من الناس تأتيه الموعظة ولا يتّعظ بها، وصنفاً آخر منهم يسعى بنفسه نحو الموعظة، وهذا

الرجل من الصنف الثاني؛ حيث كتب هو إلى المولى أبي عبد الله الحسين عليه السلام يطلب منه أنْ يعظه، فكانت الموعظة. ولا شكّ أنّ الصنف الثاني هو الأفضل، خصوصاً إذا عمل بمقتضى الموعظة التي يطلبها.

وفي كلّ لحظةٍ من لحظات حياة الإنسان، هذا المخلوق الضعيف، نرى أنّه يمرّ بالمواعظ والعبر من دون أنْ يلتفت إليها، كيف والدّنيا «**دَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتّعَظ**»[٢]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةً لِذَوِي اللّبِّ والاعْتِبَارِ**»[٣]، وعنه أيضاً: «**مَنْ كَانَتْ لَه فِكْرَةٌ فَلَه فِي كُلِّ شَيْءٍ عِبْرَة**»[٤]، وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ كَتَبَ هَارُونُ الرّشِيدُ إِلى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ ‘ : عِظْنِي وَأَوْجِزْ. قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ تَرَاه عَيْنُكَ إِلّا وَفِيهِ مَوْعِظَة**»[٥].

فالطالب للموعظة تارةً يكون طالباً لموعظةٍ عامّة تصلح لكلّ أحدٍ، نظير الأدوية الشائعة، والتي تكون في متناول يد الجميع، وتصلح للاستشفاء ممّا شاع من الأمراض وعمّ، كأدوية الصداع والإسهال والإمساك ونحو ذلك من الأمراض الشائعة والعامة.

وأخرى يكون طالباً للموعظة الخاصّة التي تتناسب مع ابتلاء ومرض خاصٍّ وقع فيه، أو الموعظة التي تتناسب مع نفسيّةٍ خاصّة لشخصٍ ما.

فالأوّل لا يحتاج إلى أكثر من أنْ يرى بعين بصيرته، فإنّه وإنْ كان «**فِي كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَة**»، لكنّ الأعمى لا يُبصِر الطريق وإنْ كان واسعاً وسهل العبور.

فهو يحتاج إلى الطلب، ولكن طلبه يكون بالسعي نحو رفع الغشاوة وإزالة الحجب.

والثاني بحاجةٍ إلى البحث عن طبيبٍ يداوي له مرضه، ويصف له ما يلزمه في دنياه وآخرته.

والطبيب وإنْ كان يذهب أحياناً نحو المرضى، ولكن إنْ كان المرض خاصاً، مع ندرة الطبيب الخبير به، حينئذٍ يصبح لزاماً على المريض أنْ يسعى جهده

للمثول بين يدي الطبيب للاستفادة منه، حتى لو أدّى ذلك إلى صرف الأموال الطائلة وطيّ المسافات الشاسعة للوصول إليه.

فالذي يظهر ـ إذاً ـ من هذه الخصلة الأُولى، أنّ صاحبها من الذين يسعون نحو المواعظ، ولا يكتفون بالمواعظ العامّة المتوفّرة لكُلِّ أحد؛ لذلك كتب للمولى أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

الخصلة الثانية: أنّه طالبٌ للموعظة المختصرة.

الانشغال في شؤون الحياة الدنيا لا ينبغي أنْ يكون مانعاً للإنسان عن طلب الموعظة؛ إذ كما أنّ للجسد حاجات يقتضي الأمر طلب الرزق لأجلها، كذلك للروح حاجات لا تلبّى إلّا بالطلب، وكثرة الانشغال في المقام الأول لا ينبغي أنْ يكون على حساب المقام الثاني.

وعلى هذا الأساس ورد في جملة من النصوص استحباب الإجمال في الطلب في المقام الأوّل:

ـ ففي الصحيح عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثّمالِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ' فِي حَجّةِ الْوَدَاعِ: «**أَلَا إِنّ الرّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنّه لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتّقُوا اللهّ عَزّ وَجَلّ وَأَجْمِلُوا فِي الطّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنّكُمُ اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوه بِشَيْءٍ مِنْ مَعْصِيَةِ الله فَإِنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَسَمَ الْأَرْزَاقَ بَيْنَ خَلْقِهِ حَلَالًا وَلَمْ يَقْسِمْهَا حَرَاماً فَمَنِ اتّقَى الله عَزّ وَجَلّ وَصَبَرَ أَتَاه الله بِرِزْقِهِ مِنْ حِلِّهِ وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ السّتْرِ وَعَجّلَ فَأَخَذَه مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ قُصّ بِهِ مِنْ رِزْقِهِ الْحَلَالِ وَحُوسِبَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَة**»[٦].

ـ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، قَالَ: «**لِيَكُنْ طَلَبُكَ لِلْمَعِيشَةِ فَوْقَ كَسْبِ الْمُضَيِّعِ وَدُونَ طَلَبِ الْحَرِيصِ الرّاضِي بِدُنْيَاه الْمُطْمَئِنِّ إِلَيْهَا وَلَكِنْ أَنْزِلْ نَفْسَكَ مِنْ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمُنْصِفِ الْمُتَعَفِّفِ تَرْفَعُ نَفْسَكَ عَنْ مَنْزِلَةِ الْوَاهِنِ الضّعِيفِ وَتَكْتَسِبُ مَا لَا بُدّ مِنْه إِنّ الذينَ أُعْطُوا الْمَالَ ثُمّ لَمْ يَشْكُرُوا لَا مَالَ لَهم**»[٧].

ـ عَبْدِ الله بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهعليه السلام يَقُولُ: «**إِنّ الله تَعَالَى وَسّعَ فِي أَرْزَاقِ الْحُمْقَى لِيَعْتَبِرَ الْعُقَلَاءُ وَيَعْلَمُوا أَنّ الدّنْيَا لَيْسَ يُنَالُ مَا فِيهَا بِعَمَلٍ وَلَا حِيلَة**»[٨]. ولا يقصد من ذلك ترك الجدّ والعمل، بل المقصود هو الاتكال عليهما.

ومع قطع النظر عن ذلك، فإنّ الانشغال بطلب الرزق وشؤون الدّنيا مهما كَثُر، فلن يُعدِم الإنسان وقتاً ـ ولو قليلاً ـ بأنْ يسعى نحو موعظةٍ مختصرةٍ «**بِحَرْفَيْنِ**».

مضمون الموعظة:

بعد هذا التقديم عن أجواء الطالب لهذه الموعظة تعالوا معاً لنغترف من معين موعظة المولى أبي عبد الله الحسينعليه السلام.

تنهى هذه الموعظة عن اتخاذ المعصية وسيلةً للوصول إلى الغايات، إلّا أنّ النهي فيها كان بلسان بيان ما يترتّب على هذا الاتخاذ، من كون هذه الوسيلة لا توصل إلى المطلوب من جهةٍ، وتوقع صاحبها فيما يقصد الابتعاد عنه والحذر منه من جهةٍ أُخرى.

فالحسينعليه السلام يريد منّا أنْ نعيش في النقاء على مستوى الغاية والطريق الموصل إليها معاً، ولمّا كان الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا ينفكّ عن السّير نحو غاياته وأهدافه مهما دنت هذه الأهداف أو علت، وكان لا بدّ له في سبيل تحقيق هذه الأهداف من الاستعانة بطرقٍ متعددة تشترك بكونها قد توصل إلى المطلوب، وهذه الطرق تتنوّع إلى نوعين:

منها: ما يكون ملتوياً وخارجاً عن الحدود التي حدّدها الله تعالى؛ بحيث يعدّ السلوك فيها معصيةً من المعاصي.

ومنها: ما يكون في ضمن الأطر والحدود التي حدّدها الله وأحلّها لعباده،

ويعدّ السالك فيها غير خارج عن جادة الشريعة، بل قد يكون مطيعاً لله تبارك وتعالى.

والنوع الأوّل مهما كان سلساً وسهلاً ومريحاً من جهة البعد المادي والدنيوي، لا يخلو أمره عن حالتين:

الحالة الأُولى: أنْ لا يصل السالك من خلاله إلى مطلوبه، فلا يناله إلّا الوزر لسلوكه في الطريق الخارج عن حدود الله، ويدخل في سلك الظالمين، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

الحالة الثانية: أنْ يصل إلى مطلوبه، فتأخذه العزّة بالإثم؛ حيث إنّه إذا كان ملتفتاً إلى معصيته في الوسيلة، يكون مُقْدِماً ـ إنْ كان ما زال فيه بذرة الخير ـ مع التّردّد في الوصول إلى مبتغاه، فإذا وصل قد لا يلتفت إلى أنّ الله يمهله ولا يهمله، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وعليه، فهذه دعوة للإنسان أيّ إنسان، أنّه إذا أراد أنْ يصل إلى مبتغاه لا بدّ أنْ لا يسلك الطريق الذي لا يرتضيه الباري عزّ وجلّ، بل لا بد له من أنْ يعيش حالة النقاء والطهارة على مستوى الغاية والوسيلة الموصلة إليها.

علّة اختيار الإنسان للوسيلة المحرّمة:

لكي نتعرّف على السبب في ذلك أدعو للتأمّل في المثال التالي:

من المقاصد والغايات التي يسعى إليها الإنسان في هذه الحياة هو الغنى، مع قطع النظر عن قيمة هذا الهدف وصحته.

وفي الحسابات الدنيوية المادية يعتقد الإنسان أنّه كُلّما كانت الوسيلة الموصلة إلى الهدف تتميّز بالسرعة والسهولة تكون أربح وأنفع، والطرق المحرّمة

والملتوية كثيراً ما تكون كذلك.

فالوصول إلى الغنى عن طريق الكدّ والجهد بالسفر والسهر، وسلوك المعاملات التي أحلّها الله تعالى تتميّز بالصعوبة وتأخذ وقتها الكافي والطويل للوصول بصاحبها إلى مصافّ الأغنياء.

بينما في مقابل ذلك قد يكون الغشّ والاحتيال والمكر والخديعة أكثر ربحاً وأسرع نفعاً.

والإنسان بطبعه ميّال نحو الدعة والراحة والربح السريع، قال النبيّ ' : «**حُفّتِ الجّنّة بِالْمَكَارِه، وَحُفّتِ النارُ بِالشهَوَات**»[٩].

نماذج لاتخاذ المعصية ذريعة لقضاء الحوائج:

في حياتنا اليومية يمرّ معنا الكثير من النماذج التي تجعل المعصية وسيلةً لقضاء الحوائج والوصول إلى الغايات، أُشير إلى جملةٍ منها؛ لكي يكون الإنسان على بصيرةٍ من أمره، لنتعرّض بعد ذلك إلى الأُسلوب الناجع لعلاج هذه المشكلة التي عمّ الابتلاء بها في المجتمعات المختلفة.

النموذج الأوّل: الاستعانة بالرشوة

الحياة الاجتماعية في تشعباتها المختلفة لا تخلو من وقوع المنازعات والاختلافات، والأنظمة الوضعية والشريعة الإسلامية على حدٍّ سواء نصّبت مرجعاً للناس يرجعون إليه في فضّ نزاعاتهم ورفع اختلافاتهم، يطلق عليه اسم القاضي والحاكم بين الناس.

وكثيراً ما يكون مقام الإثبات غير مكتملٍ عند صاحب الدعوى، كما لو انتقل إليه ملكٌ بشراء، ولكن ضاعت الوثيقة أو فُقِد الشهود. أو يكون في الواقع كاذباً في ادّعائه، فيحاول أنْ يجبر هذا النقص ويعوّضه عن طريق الاستعانة بما يسمّى في الاصطلاح بالرشوة التي هي في المقام عبارة عن: «ما

يعطيه أحد المتخاصمين لإحقاق حقٍّ أو تمشية باطل».

والرشوة في حكمها الأوّلي مِمّا حرّمته الشريعة، سواء من ناحية الآخذ أم المعطي على تفصيل مذكورٍ في الكتب الفقهية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وفي الخبر عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام، قَالَ: «**السُّحْتُ ثَمَنُ الْمَيْتَةِ ... وَالرِّشْوَةِ فِي الْحُكْمِ**»[١٠].

وعليه فصاحب الحقّ أو الباطل يستعين بأمرٍ محرّم؛ لتحصيل حقّه أو باطله. وإذا أردنا نحسب بموازين ربّ العالمين التي لا ينظر فيها بميزان الربح والخسارة إلى البعد المادي فحسب، إذا أردنا ذلك سوف تكون النتيجة هي الخسارة الكبرى؛ لأنّه كثيراً ما لا تحصِّل الرشوة ما يبتغيه الراشي، بل توقعه في الخسائرة المادية الكبيرة فيما لو فُضِح أمره أو كان القاضي نزيهاً، يضاف إلى ذلك الغضب الرباني والعقوبة الأُخروية. ولو أوصلته الرشوة إلى ما يبتغيه فلا يكون شيئاً يذكر أمام الغضب الإلهي، والطرد من رحمته، وسلب التوفيق الذي يكون نتيجة حتمية لارتكاب المعاصي.

النموذج الثاني: إمالة قلوب الناس بالمكر والخديعة

السياسيون والذين يشتغلون في الشأن العام كثيراً ما يهمّهم أنّ يحظوا بموقعيةٍ في المجتمع الذي يكون محلاً لعملهم ونشاطهم، فيسعون بشتّى الطرق لصرف عقول الناس وإمالة قلوبهم باتجاههم.

فترى البعض من هؤلاء، وهم مَنْ له موقعية حقيقية، يرتفع في قلوب الناس من دون حاجة إلى أنْ يتوسّل إلى ذلك بأيّ وسيلةٍ مبتذلة، بل ربما لا يأتي في ذهنه الرغبة في أنْ يتربّع في قلوب الناس؛ لأنّه همّه وغرضه ليس ذلك، بل القيم العليا والأهداف السامية، وفي الخبر: «**مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَه**».

بينما أصحاب الدنيا، والمقامات الواهمة، يتوسلون في ذلك بالكذب والخداع

والاحتيال. ومن أبرز المصاديق على ذلك ما نشاهده من دفع الأموال الطائلة في مواسم الانتخابات التي تحصل في الكثير من الدول. ومثله استئجار الطواغيت وسلاطين الدنيا للأقلام المأجورة التي تمدحهم، وتمجّدهم، وتحسّن صورتهم أمام الجمهور والرأي العام؛ ولأجل ذلك يكثر الشعراء والمتملقون في بلاط الزعماء والملوك والأمراء.

العبرة النهائية:

بعد الالتفات إلى أنّ القدرة العظمى المتصرّفة في عالم الوجود والتكوين هو الله سبحانه وتعالى، وأنّه لا توجد قدرةٌ في الوجود يمكن لها أنْ تقف في وجه قدرته تبارك وتعالى، وأنّ الإنسان مهما سعى لا يستطيع أنْ يحصل على ما يغاير المشيئة الربانية.

فالرزق بيده الله يعطيه من يشاء...

وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يميلها حيث يشاء...

والحاجات طيّعةٌ بأمر الخالق يقضيها لمن يشاء...

فركوب المعصية لا ينزل رزقاً، ولا يميل قلباً، ولا ينجح طَلِبةً...

بل قد يورث حسرةً وخسارة وعداوة، كيف و «**مَنْ حَاوَلَ أَمْراً بِمَعْصِيَةِ الله كَانَ أَفْوَتَ لِمَا يَرْجُو وَأَسْرَعَ لِمَجِيءِ مَا يَحْذَر**».

وفي الصحيح عنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، قَالَ: «**إِذَا قَامَ الْعَبْدُ فِي الصّلَاةِ فَخَفّفَ صَلَاتَه قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ أَمَا تَرَوْنَ إلى عَبْدِي كَأَنّه يَرَى أَنّ قَضَاءَ حَوَائِجِهِ بِيَدِ غَيْرِي أَمَا يَعْلَمُ أَنّ قَضَاءَ حَوَائِجِهِ بِيَدِي**»[11].

فاعتبروا أحبّتي من الأُمور التي نشاهدها في حياتنا اليومية، فكم من متعبٍ نفسه لتحصيل المال، وليس له من جهده إلّا التعب، وكم ساعٍ وراء الجاه ولا يحصل إلّا على سوء السمعة.

وكم من رجل يسعى رزقه نحوه وإنْ لم يكن طالباً له.. وكم من إنسان يحصل له الذكر الجميل والسمعة الحسنة بين الناس وإنْ لم يكن ساعياً نحو ذلك.

فاعملوا عباد الله ما يطلب منكم، والباقي على الله تعالى...

* * *

الهوامش:

(١) الكُلَيْني، مُحَمّد بن يعقوب، الكافي ٢: ٢٧٣، كتاب: الإيمان والكفر، باب: من أطاع المخلوق في معصية الخالق، الحديث: (٣)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطّبعة الثّالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) الشريف الرضي، محمد بن الحسين الموسوي، نهج البلاغة: ٤٣٠، تحقيق وتصحيح: عزيز الله العطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، قم المقدسة.

(٣) اللّيثي الواسطي، علي بن مُحَمّد، عيون الحكم والمواعظ: ١٤١، تحقيق الشيْخ حسين الحسني، الطّبعة الأُولى ١٣٧٦ش، دار الحديث، قم.

(٤) المصدر نفسه: ٤٤٢.

(٥) الحرّ العاملي،محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة ١٥: ١٩٦، كتاب الجهاد، الباب: (٥)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطّبعة الأُولى ١٤١٢، قم.

(٦) الكافي ٥: ٨٠، كتاب المعيشة، باب الإجمال في الطلب، الحديث: (١).

(٧) المصدر نفسه: ٨١، الحديث: (٨).

(٨) المصدر نفسه: ٨٢، الحديث: (١٠).

(٩) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٦٧: ٧٨، الطّبعة الثّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التّراث، بيروت.

(١٠) الكافي ٥: ١٢٧، كتاب المعيشة، باب السحت، الحديث: (٢).

(١١) الكافي ٣: ٢٦٩، كتاب الصلاة، باب: من حافظ على صلاته أو ضيّعها، الحديث: (١٠).

❐ إعداد: هيئة التحرير

الأمين العامّ للمجمع العالميّ لأهل البيت يردّ على هجوم خطيب المسجد النبويّ على شيعة السعوديّة:

أدان سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ أختري، الأمين العامّ للمجمع العالمي لأهل البيت ^ بشدّة كلمة الشيخ الحذيفي إمام المسجد النبوي، معتبراً إيّاه من المرتزقة الذين لا يجرؤون على الحديث بشكلٍ يخالف رغبات أسياده. وكان الحذيفي قد اعتبر في حديثٍ له أنّ الشيعة هم من الروافض، وبالتالي: فهم كفّار.

وأشار سماحته في معرض ردّه عليه: إلى أنّ هذا الهجوم على الشيعة ما هو إلّا محاولة لتضليل الرأي العامّ عن الجرائم التي تُرتكب بحقّ الشيعة في السعودية، وفي المنطقة الشرقيّة خاصّة، من قِبل الحذيفي وأتباعه الذين يحملون الضغينة والحقد على أتباع أهل البيت ^ ، لا بل يتجاوز هذا إلى أئمّة أهل البيت ^ بالذات، وعلى كلّ حال، فإنّ هذه لم تكن هي الإساءة الأُولى في سجلّ الحذيفي، حيث إنّه اتّهم الشيعة بشكلٍ ظالم في موارد كثيرة.

وأضاف أختري: إن على الحذيفي أن يجيب الرأي العامّ

العربيّ والإسلاميّ عن السرّ في خلوّ المناصب الحكوميّة في السعوديّة من أشخاص ينتمون إلى الطائفة الشيعيّة؟و لماذا يحرم المواطنون من أبناء هذه الطائفة من تسلّم شيءٍ من هذه المناصب؟!

ثمّ قال: إنّ القاصي و الداني يدرك معاناة أبناء الطائفة الشيعيّة في السعوديّة، والذين يبلغ عددهم الـ ٣ مليون مواطن وما يعانونه من هذه الحكومة الجائرة، فلا يمكن لأيّ إنسانٍ منصفٍ ومحايد أن يمرّ على هذه المآسي ويسكت عنها.. فكيف يمكن للحذيفي أن يتجاهل هذا وهو يرتقي المنبر ويأمر بالصلاة؟! أفليس ارتقاؤه المنبر مع علمه هذا يدلّ على وجود أغراضٍ ودوافع شخصيّة و نزواتٍ شهوانيّة؟!

وأكّد الشَّيْخ أختري على أنّ الحذيفيّ يعجز عن ردّ المقولات العقائديّة التي يطرحها الشيعة، ولذلك تراه يتهكّم بها ليفرّ من الإشكالات التي ترد على مذهبه، ولذلك أيضاً نجده يتخذ منبر المسجد الحرام ومسجد النبي ' محلاً للهجوم على الآخرين، والإفتاء بتكفير الشيعة، بل والمسلمين عموماً.

* * *

بيان المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام تنديداً بتهديد نظام آل خليفة لـ «الشيخ عيسى قاسم» وعلماء البحرين

أصدر المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام بياناً مهمّاً ندّد فيه بتهديد نظام آل خليفة لـ «سماحة الشيخ آية الله عيسى أحمد قاسم» وجملة من علماء البحرين، كما حذّر الحكومة البحرينيّة من أيّة إساءة أو تعرّض بسوء لسماحته.

وفيما يلي نصّ هذا البيان الهام:

بسم الله الرحمن الرحيم

{ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ

بِٱللَّهِ حَسِيبًا }[الأحزاب: ٣٩].

قبل ستّة أشهر نهض شعب البحرين مطالباً بحقوقه المشروعة كسائر شعوب المنطقة التي تتعرّض للظلم والاستبداد، فواجه أشدّ أنواع العنف والتنكيل والقتل والاعتقال والتشريد.

لقد حملت ثورة أبناء البحرين طابعاً سلميّاً، ولم يستخدم الثوّار فيها أيّ نوعٍ من أنواع العنف، ولم يحملوا بأيديهم أيّ نوعٍ من السلاح، خلافاً لما شاهدناه في بعض الثورات، كمصر وليبيا واليمن.

ولا ريب في أنّ الدور الأكبر في سلميّة هذه النهضة المباركة يعود إلى القيادة الحكيمة لعلماء الدين، وبخاصّةٍ: سماحة آية الله الشيخ عيسى قاسم، وخطب الجمعة التي لطالما حثّ فيها الناس على التحلّي بالوعي والتزام السلميّة في حركتهم، كما دعا أيضاً الحكومة إلى الالتزام بالقانون وإنصاف الناس. ولطالما حذّر سماحته أيضاً شعب البحرين من مخاطر الوقوع في فخّ التفرقة والانشقاق، وسعى جاهداً إلى إفشال مؤامرات الأعداء الرامية إلى إشعال فتنةٍ طائفيّةٍ بغيضة في هذا البلد.

لكنّ نظام آل خليفة، ومع شديد الأسف، لم يدرك هذه المواقف المشرّفة، وبدلاً من أن يضع نصائح العلماء نصب عينيه، ويعيد إلى أبناء البحرين حقوقهم المشروعة التي يطالبون بها، فقد أقدم على تهديد وإرهاب آية الله الشيخ عيسى قاسم، هذا العالم الربّانيّ، متّهماً إيّاه بخرق القانون والتدخّل في المحاكمات الجارية! بل إنّه فوق ذلك راح يقدّم له النصح داعياً إيّاه إلى أن يستفيد بشكل سليم من منبر رسول الله ' !! هذا بينما نرى أنّ علماء البحرين عامّةً، وآية الله قاسم خاصّةً، لا يملكون أيّ سلاح يجابهون به ضغوط الحكومة، واحتلال آل

سعود، سوى القلم والكلمة، وهم لم يستخدموهما إلّا لخدمة شعب البحرين، ولما فيه صلاح الدولة، والدفاع عن المظلومين، وهذا هو ما أوصى به رسول الله ' في الحديث المعروف: «من أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم».

ومن هنا، يرى المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام أنّ رسالة التهديد التي بعثها وزير العدل البحرينيّ هي مؤامرة شريرة، تكشف عن النوايا القذرة الشيطانيّة لحكومة البحرين ضدّ هذا الشعب المظلوم والعلماء الصالحين الذين يدعون أبناء شعبهم إلى ضبط النفس. ويطالب المجمع هذه الحكومة بالاستجابة العاجلة لمطالب الشعب.

والمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام باعتباره مؤسّسةً ينضوي تحت لوائها مئات العلماء والنخب في العالم الإسلاميّ، يحذّر حكومة البحرين من الإساءة أو التعرّض بأيّ سوء لسماحة آية الله عيسى قاسم، وسائر العلماء؛ لأنّ هذا يُعدّ إهانةً للعلم والدين، ولن يصمت المسلمون وعلماؤهم إزاءه، بل ستكون له نتائج وخيمة على البحرين في المنطقة والعالم.

المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام

٢٤ رمضان المبارك ١٤٣٢ هـ

* * *

البيان الختامي للمؤتمر الخامس للجمعيّة العامة للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام

في ختام المؤتمر الدولي الخامس للمجمع العالميّ لاهل البيت عليهم السلام أصدر أعضاء الجمعيّة العامّة للمجمع العالميّ بياناً أكّدوا فيه على ضرورة ترسيخ مبدأ الوحدة الإسلاميّة وتوحيد الأمّة وتقاربها. وفيما يلي نصّ هذا البيان الهام:

بسم الله الرحمن الرحيم

أُقيم بفضل الله ولطفه وعناية

بقية الله الاعظم الإمام المهدي المنتظر(عج) المؤتمر الخامس للجمعية العامة للمجمع العالميّ لأهل البيتعليهم السلام، وبحضور أكثر من ٦٠٠ من النخب والمفكّرين الشيعة من أعضاء الجمعيّة العامّة في مدينة طهران، وذلك بتاريخ ١٢ إلى ١٥ شوال ١٤٣٢هـ.

وقد جدّد المؤتمرون في بداية هذا المؤتمر العهد مع الإمام الخميني الراحلرحمه الله في مرقده الطاهر، كما جدّد المؤتمرون عهد الولاء مع ولي أمر المسلمين سماحة آية الله العظمى الإمام الخامنئي واستمعوا إلى نصائحه القيّمة حين تشرّفهم بزيارة ثامن الحجج الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام. وقد التقى المؤتمرون في هذا اللّقاء الكبير مع رئيس الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، حيث تحدّث إليهم في لقائه واستمع إلى آرائهم. وقد ناقش المؤتمرون خلال أربعة أيّام المشاكل والأزمات والمعوّقات التي يعاني منها المسلمون عامّةً وأتباع أهل البيتعليهم السلام بشكلٍ خاصّ.

وفي ختام هذا المؤتمر الدوليّ، أصدر أعضاء الجمعيّة العامّة للمجمع العالميّ لأهل البيتعليهم السلام بياناً أكّدوا فيه على ضرورة ترسيخ مبدأ الوحدة الإسلاميّة وتوحيد الأمّة وتقاربها.

وإليكم أهمّ النقاط التي أكّد عليها المشاركون في هذا المؤتمر:

١. تعتبر الصحوة الإسلاميّة التي عمّت العالم الإسلاميّ امتداداً للثورة الإسلاميّة في إيران، ومتأثرةً بالوعي الذي أوجده الإمام الخميني الراحلرحمه الله، والإنجازات المذهلة لحركات المقاومة الإسلاميّة وانتصاراتها في لبنان وفلسطين. لذلك، وضمن تهنئتهم الشعوب الثائرة في تونس ومصر واليمن وليبيا على انتصاراتهم الكبيرة، يحذّر أعضاء الجمعيّة العامة للمجمع العالميّ لأهل البيتعليهم السلام الثوّار من خطر مصادرة هذه

الثورات ودماء شهدائها.

٢. يعلن المشاركون في هذا المؤتمر عن دعمهم ومساندتهم للانتفاضة الإسلاميّة لشعب البحرين المظلوم ومطالبه المشروعة، كما يعلنون عن دعمهم ومساندتهم لعلماء البحرين الذين لعبوا دوراً كبيراً في تحريك هذه الانتفاضة السلميّة، وخصوصاً سماحة آية الله الشيخ عيسى قاسم، ويطالبون بإطلاق سراح المعتقلين من علماء الدين، والطلاب الجامعيّين، والكوادر الطبّيّة، والشباب، وجميع أبناء الشعب الأبرياء الذين أُودعوا السجون لأشهرٍ عديدة في سجون آل خليفة. كما ونشجب التعتيم الإعلاميّ الذي ساهمت في تنفيذه منظومة الإعلام الاستكباريّ التي جهدت لإخفاء المظالم التي تقع على أرض البحرين.

٣. يعلن المشاركون في المؤتمر الخامس للجمعيّة العامة للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام عن رفضهم وشجبهم للمجازر التي يرتكبها الإرهابيّون صنيعة الاستكبار العالميّ بحقّ الشعبين: العراقيّ والأفغانيّ، ويطالبون المنظّمات الدوليّة التي ترعى حقوق الإنسان وأحرار العالم جميعاً أن يعلنوا عن رفضهم وشجبهم لإراقة هذه الدماء البريئة ليمنعوا، وبكافّة الأشكال، هذه المجازر التي ترتكبها يد الإرهاب.

٤. يعتبر المؤتمرون ـ وكما أشار قائد الثورة الإسلاميّة في لقائه أمس أعضاء الجمعيّة العامة ـ أنّ الدعوة للوحدة الإسلاميّة ونبذ الخلاف بين المذاهب الإسلاميّة يمثّل أحد أهم وصايا وتعاليم أهل البيت عليهم السلام إلى أتباعهم. ويرى المجتمعون أنّ إقامة مؤتمراتٍ من هذا القبيل تساهم في ترسيخ الوحدة الإسلاميّة وتوحيد أبناء هذه الأمّة.

٥. يشجب المؤتمرون المجازر التي يرتكبها الإرهابيّون

والمتشدّدون ممّن وقعوا فريسة التضليل الغربيّ ـ وخصوصاً في حقّ أتباع أهل البيت عليهم السلام ـ والتي ساهمت في تشديد حالة الإرباك الأمنيّ في هذا البلد الكبير ـ عدداً ومساحة ـ، فممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المجازر لم يمكن لها أن تتحقّق لولا دعم المحتلّين الأمريكان الذين لا يتردّدون في قتل الأبرياء ولو باستخدام الطائرات من دون طيار، ولهذا نطالب المسلمين جميعاً، وأتباع أهل البيت عليهم السلام بشكلٍ خاصّ، إلى إيصال مظلوميّة الشعب الباكستاني إلى إسماع العالم ليمنعوا هذا العنف الأعمى.

٦. أكّد المؤتمرون على حقوق المسلمين وضرورة منح الحرّيّات الدينيّة في بلدان آسيا الوسطى، وانتقدوا دولتي أذربيجان وطاجيكستان على المضايقات التي تُعمِلها بالنسبة إلى مواطنيها المسلمين وأتباع أهل البيت عليهم السلام بشكل خاصّ، وتحرمهم من حقوقهم الطبيعيّة.

٧. يرى أعضاء الجمعيّة العامّة أنّ جذور غالبيّة المظالم التي تقع على المسلمين وشيعة أهل البيت عليهم السلام تعود إلى ظاهرة التخويف من الإسلام، والتشيّع، وإيران، والتي يحاول العالم الغربيّ الترويج لها اليوم، وهي ما تؤدّي إلى حدوث مشاكل كثيرة للمسلمين في جميع أنحاء العالم.

٨. يعلن المؤتمرون عن دعمهم القاطع للمقاومة الإسلاميّة وحزب الله في لبنان، ويعتقدون أنّها اليوم تمثّل الخطّ الدفاعيّ الأوّل في مقابل النظام الصهيونيّ وقوى الغرب الجائرة، ويعلنون عن كامل دعمهم لها في مقابل الهجوم الجائر الذي تتعرّض له من قبل الاستكبار العالميّ، في مؤامرةٍ هزيلة المعالم تتجسّد في المحكمة الدوليّة البائسة التي لا تهدف سوى إلى الإضرار بهذه المقاومة الباسلة.

٩. يحيّي أعضاء الجمعيّة العامّة

في مؤتمرهم هذا الدور الرياديّ لـ «الإمام السيّد موسى الصدر» في سبيل خدمة مذهب أهل البيت عليهم السلام وجهاده من أجل المحرومين والمستضعفين، والخدمات القيّمة التي قدّمها من أجل الإسلام وقضايا الأمّة، ويفتقدون تضحياته، وهم يعتبرون أنّ فكّ أسره ـ وخاصّةً بعد زوال نظام الطاغية معمّر القذافي ـ هو قضيّة مركزيّة في اهتمامات المؤتمرين ويطالبون المجلس الانتقاليّ في ليبيا عدم تأخير أيّ جهد في سبيل ذلك.

١٠. يعتبر المؤتمرون أنّ العقلانيّة والاعتدال والعمل على تحقيق التعايش السلميّ بين الأديان والمذاهب تمثّل إحدى أهمّ متطلّبات عصرنا الحاضر، وأنّ أيّ حركةٍ متطرّفة تبعث على الفتنة الطائفيّة، فهي تُعتبر مخالفةً لما أمر به القرآن الكريم وأرشد إليه النبي الأكرم ' وعترته الطاهرة عليهم السلام.

١١. يرى المؤتمرون أنّ على أتباع أهل البيت عليهم السلام ممّن يطلقون على أنفسهم اسم «شيعة باب علم رسول الله ' ، أمير المؤمنين عليه السلام»، التأكيد على نشر العلم وتعميق الجانب الثقافيّ بين أبناء الطائفة الشيعيّة نساءاً وشباباً وأطفالاً، وفي جميع أنحاء العالم، وكذا الاهتمام بتعليم القرآن ومعالمه ومعارفه، والحثّ على مطالعة التفاسير، والعلوم القرآنيّة، والانتهال من تراث أهل البيت عليهم السلام الثقافيّ، والتعريف بمذهبهم بطريقةٍ علميّة ممنهجة في مراكز الدراسات والبحوث، وفي جميع أنحاء العالم، باعتبارها أهمّ متطلّبات الإنسان المعاصر.

١٢. يرى المؤتمرون أنّ السعي لتعميق حالة الإيمان والالتزام بأحكام الإسلام واحترام القيم الدينيّة في المجتمعات الشيعيّة أمر مهمّ جدّاً. ويؤكّدون على ضرورة ترسيخ الوحدة داخل البيت الشيعي، ومنع مظاهر الخلاف بين

أتباع أهل البيت عليهم السلام.

١٣. يدعو المؤتمرون الأثرياء، والأغنياء، والمحسنين، والوجهاء من أتباع أهل البيت عليهم السلام إلى المساهمة في أعمال الخير ومساعدة أبناء جلدتهم، ودعم إخوتهم واخواتهم الذين يعانون من حدوث البلايا الطبيعيّة، أو الجفاف الذين أصاب الشعب الصومالي، أو الذين تضرّروا أثناء الثورات في البلدان العربيّة. ويعدّ هذا التعاضد أولويّة وضرورة اليوم.

وفي الختام، نشكر الله تعالى الذي وفّقنا ـ نحن الأعضاء في الجمعيّة العامّة للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام ـ لإقامة المؤتمر الخامس، الذي يُعدّ خطوةً نحو تطوير واقع الطائفة الشيعيّة في العالم. سائلين المولى القدير أن يتقبّل أعمالنا ويجعلها مرضيّةً من قِبَل سيّدنا ومولانا صاحب العصر والزمان الإمام المهدي المنتظر(عج).

كما ينبغي لنا أن نقدّم الشكر الجزيل لسماحة قائد الثورة الإسلاميّة الذي دعم عمل المجمع بشكل دائم، وخصوصاً هذا المؤتمر بالذات.

كما نقدّم شكرنا الجزيل لمسؤول الروضة الرضويّة المقدّسة وجميع العاملين فيها لحسن ضيافتهم أعضاء المؤتمر. كما يقدّم المؤتمر جزيل شكره للأمين العامّ والهيئة العامّة والمسؤولين في المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام لإقامتهم هذا المؤتمر الكبير.

نأمل أن يقام المؤتمر السادس للجمعيّة العامّة للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام بعد أربع سنوات وقد تحسّن الواقع الثقافيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ والعلميّ والقانونيّ لأتباع أهل البيت عليهم السلام، وفي جميع أنحاء العالم، وصار أفضل ممّا هو عليه الآن، وأن يكون الأُفق أكثر رحابةً ممّا هو عليه الآن. ﴿وَقُلِ

ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ } [التوبة: ١٠٥].

المؤتمر الخامس للجمعيّة العامّة للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام.

شوّال المكرم ١٤٣٢ ـ سبتمبر ٢٠١١.

* * *

أعضاء المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام يجدّدون العهد مع الإمام الخميني رحمه الله

بعد زيارة ضيوف المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام مرقد السيّد الإمام روح الله الخميني رحمه الله، التقوا حفيده سماحة حجّة الإسلام السيد حسن الخميني، الذي تحدّث إليهم في كلمة مختصرة أشاد فيها بمناقب أمير المؤمنين عليه السلام، واصفاً إيّاه بأنّه عليه السلام كان أكبر معجزة للنبيّ الأعظم ' وإنّه لمصدر فخر للشيعة، بل للمسلمين عامّةً. ووفقاً لما أفادته وكالة أهل البيت عليهم السلام للأنباء ـ أبنا ـ فقد تحدّث في هذا اللّقاء أيضاً سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ أختري، الأمين العامّ للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام، قائلاً: إنّه لفخر كبير للنخب والمثقّفين الشيعة أن يعيشوا هذه اللّحظات في محضر سماحة الإمام الخميني، فإنّ لهذا الإمام حقّاً على جميع الشيعة، وعلى المسلمين في هذا العصر فرداً فرداً. وأضاف: لقد منح الإمام الخمينيّ رحمه الله المجتمع الإسلاميّ حياةً جديدة، وأحيى هذا الدين، ووهب للمسلمين هويّتهم، وأوصل الشيعة بالخصوص إلى مقاماتٍ رفيعة.

* * *

أعضاء الجمعيّة العامّة للمجمع يتشرّفون بضيافة ثامن الحجج عليه السلام ويلتقون قائد الثورة الإسلاميّة دام ظله:

حلّ أعضاء الجمعيّة العامّة

المشاركون في المؤتمر الخامس للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام ضيوفاً على الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام في مدينة مشهد المقدّسة. وفور وصولهم إلى أرض خراسان، انطلقوا لزيارة غريب الغرباء ليجدّدوا عهد الوفاء معه عليه السلام. ووفقاً لما أفادته وكالة أهل البيت عليهم السلام للأنباء ـ أبنا ـ، فبعد أداء الضيوف للصلاة والزيارة انتقلوا في نفس المدينة ليحلّوا ضيوفاً على قائد الثورة الإسلاميّة الإمام الخامنئي دام ظله. وقد رحّب سماحته في هذا اللّقاء بضيوف المؤتمر الكرام وتحدّث إليهم عن أحداث الساعة والواقع الذي تعيشه الأمّة الإسلاميّة وأتباع أهل البيت عليهم السلام.

وأكّد سماحته في هذا اللّقاء على دور الثورة الإسلاميّة في نشر معارف أهل البيت عليهم السلام قائلاً: إنّ من دواعي فخر الشيعة اليوم، تأسيس أوّل نظام سياسيّ يتبنّى الإسلام في عالمنا المعاصر، وعلى أرض شيعيّة. وأشار قائد الثورة الإسلاميّة إلى ضرورة ترسيخ الوحدة الإسلاميّة قائلاً: إنّ على الشيعة أن يتحرّكوا لإنجاز الوحدة الإسلاميّة، رغم المؤامرات الكثيرة التي تساهم في إيجاد حالةٍ من التمييز المذهبي. وتناول سماحته في هذا اللّقاء أيضاً واقع الصحوات الإسلاميّة قائلاً: ستكون هذه الصحوات المتأثّرة بالثورة الإسلاميّة في إيران، المدخل لتحوّلاتٍ كبيرة تشهدها المنطقة.

وبعد اللقاء أدّى الحضور صلاتي المغرب والعشاء بإمامة سماحة قائد الثورة الإسلاميّة، وتناولوا طعام العشاء في مضافة الإمام الرضا عليه السلام.

وكان قد تحدّث قبل خطاب قائد الثورة الإسلاميّة كلّ من الشيخ كاظم العمري من السعودية، والشيخ نعيم قاسم من لبنان، والسيّد عمّار الحكيم من

العراق، والشيخ أكبري من أفغانستان، والشيخ حسن سلطان من البحرين، والسيّدة هاجر الحسيني من أمريكا. كما قدّم الأمين العام للمجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام تقريراً عن منجزات المجمع العالميّ خلال السنوات الأربع الماضية، وموجزاً عن المؤتمر الخامس لأهل البيت عليهم السلام.

* * *

الغرب يبيع المنامة أسلحة محرّمة لاستهداف الشعب الأعزل والمسالم:

ذكر الطبيب البحرينيّ (إبراهيم العرادي) أنّ الأسلحة التي تأتي من الولايات المتحدة وغيرها إلى البحرين ما هي إلّا للتوجيه نحو صدور الشباب، معتبراً أنّ أبناء البحرين هم من يدفعون ثمن سياسة ازدواجيّة المعايير التي تمارسها الولايات المتّحدة.

وأضاف العرادي: أنّ هناك ارتفاعاً في عدد الإصابات النوعيّة برصاص الشوزن الانشطاريّ المحرّم دوليّاً، والذي يأتي إلى البحرين من دولٍ غربيّة، وذلك بعد انتهاء مهمّة لجنة بسيوني للتحقيق، مشيراً إلى أنّ الشهيد الطفل أحمد القطان سقط بإحدى هذه الرصاصات المحرّمة.

وإذ أكّد العرادي إدانته لبيع الدول الغربيّة أيّة أسلحة للنظام البحريني الذي لن يستخدمها إلّا ضدّ الشعب البحرينيّ الأعزل، أشار إلى أنّ الثورة في البحرين تُسمّى بالمظلومة للتعامل المزدوج المعايير معها من قبل أدعياء حقوق الإنسان في العالم. واتّهم العرادي السلطات بإقحام الكادر الطبّي في السياسة وجرّهم إليها، معتبراً أنّ على المعارضة أن تتحرّك أكثر على الأرض، في وقتٍ لا تجد من يسمعها، فيما يقبع زعماؤها في السجون ويتعرّضون لانتهاكاتٍ يوميّة ومستمرّة.

* * *

على هامش فعاليّات مؤتمر الصحوة الإسلاميّة:

أكّد الدكتور علي أكبر ولايتي، وزير الخارجيّة الإيرانيّ الأسبق، أنّ القضيّة الإسلاميّة هي من إحدى أهمّ القضايا العالميّة، معتبراً أنّ الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة هي اليوم حاملة لواء الموجة الجديدة من الصحوة الإسلاميّة، وهذا ما يعترف به جميع أصحاب الرأي، بمن فيهم المعارضون والمؤيّدون. وأوضح ولايتي: أنّ هذا الإقبال على الحضور، ومستوى المشاركة والتمثيل وحضور أصحاب الرأي والمفكّرين من ذوي الأذواق والمناهج المتعدّدة، إنّما يعكس مدى ترحيبهم بالمؤتمر في هذا المجال، مضيفاً: لقد لبّى أكثر من ٩٠٪ من المدعوّين للمشاركة في هذا الاجتماع دعوة إيران، وهناك ممثّلون عن جميع فرق ومؤسّسات العالم الإسلاميّ شاركوا في هذا المؤتمر.

وتابع الأمين العام للمؤتمر الدوليّ للصحوة الإسلاميّة قائلاً: إنّ الانتصار الذي حقّقه كلّ من إيران وحزب الله لبنان وحركة حماس والشعبان العراقيّ والأفغانيّ أصبح اليوم قدوةً يُحتذى بها من قِبَل جميع المسلمين، ومن الطبيعي لذلك أن نشهد إقبالاً واسعاً على القيم الإسلاميّة.

وأضاف: إنّ العلماء والمفكّرين المشاركين يتطلّعون إلى مواصلة أعمال هذا المؤتمر، حيث دعوا إلى تفعيل أمانةٍ عامّةٍ دائميّة للمؤتمر، لتقديم الاستشارات ومتابعة القضايا ذات العلاقة، موضحاً: إنّنا الآن بانتظار قرار اللّجان في هذا المجال.

فيما قال الأستاذ مختار السديري، المفكّر التونسيّ: إنّ المؤتمر فيه إبداع من الناحية التنظيميّة، وهذا شيء جديد في

العالم الإسلاميّ؛ لأنّه، ولأوّل مرّة يُعقد مؤتمر يعتني بالصحوة الإسلاميّة التي انطلقت منذ زمن طويل. وأشار السديري إلى أنّ الصحوة الإسلاميّة في تونس قد انطلقت بقوّة بعد إسقاط نظام زين العابدين بن علي، مؤكّداً: أنّ التونسيّين قادرون على مواجهة المؤامرات التي تُحاك ضدّ ثورتهم، وسيفوّتون الفرصة على أعداء هذه الثورة. كما ثمّن السديري كلمة قائد الثورة الإسلاميّة، مشيراً إلى أنّ الإمام القائد قد أوضح كيف يمكن المحافظة على الثورات، وعلى استمرارها، بما يكفل نجاحها واستفادة الشعوب من الصحوة الإسلاميّة.

ومن جانبه، اعتبر خبير مركز الدراسات الاستراتيجيّة بماليزيا الأستاذ محمّد الفرا أنّ الصحوة الإسلاميّة الناتجة عن الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة تتحدّى التوغّل الأمريكيّ في المنطقة، وقال: إنّ تيّار الصحوة الإسلاميّة سيخلق تحدّياتٍ أساسيّة للعالم الاستكباريّ. وأضاف: إنّ الصحوة الإسلاميّة اليوم متأثّر بالثورة الإسلاميّة الإيرانيّة، وهي تعدّ العنصر الرئيسيّ لانتفاضة الشعوب في منطقة الشرق الأوسط حتي تتمكّن من تحقيق مطالبها وإنهاء هيمنة الحكومات العميلة. واعتبر الفرّا أنّ جذور الانتفاضات الشعبيّة في المنطقة تعود إلى التعاليم الإسلاميّة، وقال: إنّ الانتفاضة الإسلاميّة تعمّ اليوم أنحاء المنطقة وتتصدّى غالبيّة الشعوب للأنظمة الديكتاتوريّة بما تحمله من توجّهات دينيّة، وبالرغم من وجود دوافع سياسيّة واقتصاديّة تقف أيضاً وراء اندلاع هذه الانتفاضات الشعبيّة، لكنّ الدوافع الإسلاميّة هي التي أدّت إلى الصحوة واليقظة بين شعوب المنطقة.

وأكّد الفرّا أنّ أمريكا والكيان الصهيونيّ هما الخاسر الرئيسيّ

لموجة الصحوة الإسلاميّة في المنطقة، ولذلك من الطبيعي أن يعارضا وبشدّة تيار الصحوة الإسلاميّة في المنطقة، وذلك بسبب تعرّض مصالحهما الاستكباريّة للخطر.

* * *

برنامج عن فلسطين في قناة فرانس برس يثير غضب الصهاينة:

أثار برنامج عن الأراضي الفلسطينيّة بثّته قناة فرنسيّة جدلاً أرغم قيادة القناة على مقابلة سفير إسرائيل في باريس، وممثّلي يهود فرنسا، كما ذكرت القناة السبت. وقالت القناة العامّة لفرانس برس: «تمّ أخذ مواعيد بين السفارة الإسرائيليّة والمجلس التمثيليّ للهيئات اليهوديّة الفرنسيّة وبين رئيس التلفزيون: ريمي فليملان، ومدير الأخبار: تييري تويليه.

والسبب في هذا الجدل هو برنامج «عين على الكوكب» الذي أُذيع على هذه المحطّة بعنوان (هل الدولة الفلسطينيّة ما زالت ممكنة؟). وقال رئيس المجلس التمثيليّ للهيئات اليهوديّة الفرنسيّة ريتشارد براسكييه في رسالة مفتوحة إلى ريمي فليملان: إنّ هذا البرنامج أثار غضب الجالية اليهوديّة ودهشة مريرة. وأُنشئت في الوقت نفسه مجموعة على الفايسبوك باسم قاطعوا فرانس تلفزيون تطالب القناة بسحب هذا البرنامج وتقديم اعتذار!!

* * *

إعلام الرياض يحرّض على قتل شيعة المملكة:

اعتبر خبير سعوديّ أنّ النظام في بلاده لا يبحث عن حلولٍ للمشاكل بينه وبين المواطنين، وإنّما يبحث عن غطاء لارتكاب المزيد من الانتهاكات بحقّهم، متّهماً إعلام الرياض بالتحريض على قتل

الشيعة في المملكة. وقال الباحث السياسيّ السعوديّ حمزة الحسن: إنّ الاتّهامات التي تُوجَّه لكلّ معارضٍ في بلاده صارت معروفة، حيث إنّه متّهم إمّا طائفيّاً أو بالعمالة للخارج. وأضاف الحسن: إنّ الحكومة السعوديّة تدرك تماماً أنّ النشاط الذي جرى في المملكة هو في مجمله سلميّ، وأنّها هي التي بدأت استخدام الرصاص وجرحت العشرات من المواطنين، وهي ليست المرّة الأُولى. وأشار إلى أنّ تصنيف الدولة للمحتجّين بأنّهم إرهابيّون لا يختلف عن تصنيف من سبقهم من المعارضين من نفس المنطقة بأنّهم محاربون لله ورسوله، وقد تمّ إعدام مجموعةٍ منهم بالفعل تحت هذا العنوان!! واتّهم الحسن الحكومة بأنّها لا تريد أن تتقدّم بحلولٍ، أو أن تعترف بالمسؤوليّة، بل هي ـ بدلاً من ذلك ـ تحاول إلقاءها على المواطنين والخارج، معتبراً أنّ هذه الحكومة لا تملك إلّا التأجيج الطائفيّ لمواصلة الحلّ الأمنيّ والعقاب الجماعيّ عبر نقاط التفتيش وإطلاق الرصاص وتوجيه الإهانات للمواطنين. كما اتّهم الحسن قناة العربيّة السعوديّة بأنّها أداة بيد النظام السعوديّ، حيث قامت بالتأجيج الإعلاميّ وبثّ عشرات التعليقات التي تدعو وتحضّ على قتل جميع الشيعة بكلّ طوائفهم في السعوديّة.

* * *

إيران أوّل دولة إسلاميّة تنتج الكهرباء النوويّة:

أكد مندوب إيران لدى الوكالة الدوليّة للطاقة الذرّيّة علي أصغر سلطانيّة أنّ اتّصال محطّة بوشهر النوويّة بالشبكة العامّة للكهرباء، هو إنجاز كبير يبيّن مدى إرادة الشعب الإيرانيّ وعزمه على تحقيق مطالبه الشرعيّة بالرغم من كلّ الضغوط الدوليّة. واعتبر سلطانيّة أنّ تشغيل محطّة بوشهر النوويّة

يوجّه رسالةً للعالم بأنّ الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة دخلت مرحلةً جديدةً من التطوّر، وأنّها الدولة الإسلاميّة الوحيدة في الشرق الأوسط التي تمتلك مفاعلاً نوويّاً يعمل تحت إشراف الوكالة الدوليّة للطاقة الذرّيّة. وأكّد سلطانيّة أنّ محطّة بوشهر النوويّة تحظى بدرجة سلام وأمانٍ عالية، ولا تمثّل أيّ خطر على البيئة والمنطقة، وأنّها تعمل طبق المقاسات والمعايير العالميّة، موضحاً أنّه وعلى مدى السنين الماضية استعانت إيران بكبار المتخصّصين والخبراء النوويين في مجال السلامة من العالم وإيران، وكانت هذه المحطة تحظى بإشراف هؤلاء الخبراء على مدى تلك السنين.

كما جدّد سلطانية تأكيده على سلميّة النشاطات النوويّة الإيرانيّة، موضحاً أنّ الدول العالميّة والوكالة الدوليّة للطاقة الذرّيّة إذا امتنعوا عن تأمين الوقود لإيران فإنّها ستنتج الوقود بنفسها. وحول تشكيك الغرب بالبرنامج النوويّ السلميّ الإيرانيّ، إضافةً إلى تشكيكه بسلميّة فعاليات محطة بوشهر، أكّد سلطانية بالقول: إنّ تشغيل هذه المحطّة وإنتاج الطاقة الكهربائيّة فيها أثبت للعالم كلّه أنّ هذه المحطّة تعمل لتأمين الاحتياجات السلميّة للبلاد، ولا توجد أيّ برامج أو فعاليات عسكرية فيها، داعياً الغرب إلى إعادة النظر في سياساته تجاه طهران وترك سياسة التصعيد وإصدار القرارات والتوجّه إلى طاولة الحوار والتفاوض بصورة حضاريّة.

* * *

الصحوة الإسلاميّة وتجلّيات يوم القدس:

سنة بعد سنة يتبيّن للرأي العام العالميّ والإسلاميّ بشكلٍ خاصّ الأبعاد الاستراتيجيّة للإعلان

العالميّ لمؤسس الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران الإمام الراحل السيّد روح الله الموسوي الخميني بتسميته آخر جمعة من شهر رمضان المبارك بيوم القدس العالميّ. فقد استشرف الإمام بإعلانه التاريخيّ هذا آفاق المستقبل أمام العرب والمسلمين بأنّ ما أُخذ بقوّة الأمر الواقع لا يمكن أن يتحوّل إلى حقيقةٍ إذا ما اجتمع المسلمون على حقّهم في مقابل اجتماع المستكبرين على باطلهم. وهكذا.. وبعد أكثر من ثلاثين سنةً على انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران وإطاحتها برجل الغرب الطاغوت محمد رضا بهلوي، بدأت مرحلة جديدة من كتابة التاريخ بأيدٍ محلّيّة بعد أن كان حكراً على قوى الاستكبار العالميّ، فاستقلّت إيران مطلقةً باستقلالها صحوةً إسلاميّة عارمة تركت بصماتها في مختلف دول العالم، ولا سيّما في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان، مسجّلةً انتصاراتٍ كبيرة على قوى الغطرسة والاستبداد. ولم تتوقّف تلك الصحوة على الرغم من تعدّد المؤمرات ووفرة الأموال التي صرفت في سبيل إجهاضها، والتي كان أبرزها حرب صدام المفروضة على الجمهوريّة الإسلاميّة في ثمانينيّات القرن الماضي، والحروب الإسرائيليّة على لبنان وفلسطين، والاحتلال الغربيّ لكلٍّ من أفغانستان والعراق، والتي باءت جميعها بالفشل. ولم تقف صحوة الشعوب عند حدود الدول التي تشهد حروباً خارجيّة، بل إنّها امتدّت لتدكّ مداميك أنظمةٍ دكتاتوريّةٍ لطالما قهرت شعوبها، كما كان حال تونس ومصر وليبيا، وصولاً إلى ما نشهده اليوم من بوادر سقوطٍ وانحلالٍ لنظامَي اليمن والبحرين، والحبل على الجرّار.. وكلّ ذلك ببركة الصحوة الإسلاميّة التي تمثّل القدس رمزها الرئيس.

* * *

(فاطمة) اسـم لنحـو ٤ ملايـين فتاة إيرانيّة:

أعلنت دائرة الأحوال المدنيّة بالجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة إقبال الشعب الإيرانيّ على تسمية بناتهم باسم «فاطمة»، تيمّناً ببضعة الرسول الأعظم ' . ونقلاً عن العلاقات العامّة لدائرة الأحوال المدنيّة: فقد تمّ إحصاء حوالي ٤ ملايين فتاة تحمل هذا الاسم المقدّس في موقع هذه الدائرة، ممّا يُظهر مدى حبّ وولاء الشعب الإيرانيّ لهذه السيّدة العظيمة ولوالدها الرسول الكريم ' . وجاء في تقرير نشره موقع الدائرة: أنّ ٣ ملايين و٩٣٦ ألفاً و٦٩ بنتاً تمّ تسميتها بهذا الاسم الشريف، كما وأُطلق اسم «زهراء» على مليونين و٦٤٨ ألفاً و٦٦٩ فتاة، فيما تمّت تسمية ١٤٥ ألفاً و١٠٠ فتاة باسم «ريحانة»، وإطلاق اسم «محدّثة» على ١٦٠ ألفاً و٤٣٩ فتاة، علماً بأنّ هذه الأسماء كلّها هي من جملة أسماء وألقاب هذه السيّدة الجليلة ÷ .

* * *

تحريف المصحف الشريف فـي كبرى البلدان الإسلاميّة:

أكّد تقرير أذاعته قناة الجزيرة أنّ ٩٠٪ من نسخ المصحف الشريف الموجودة في أندونيسيا تُنتجها مطابع غير إسلاميّة، وهو ما يجعل الطبعات عرضةً للخطأ. وأوضح «أدانغ كارتانا»، مدير مطبعة بانشا سيمباتي لطباعة المصحف الشريف: أنّ التعامل مع النسخ داخل هذه المطابع يتمّ بإهمالٍ في الجمع والتوزيع لا يتناسب مع هيبة هذا الكتاب المقدّس. ممّا يتسبّب في وجود أخطاءٍ مطبعيّةٍ عديدة، اكتشفتها جهات دينيّة، وأرجعت بعضها إلى أنّها لا يمكن إلّا أن تكون متعمّدة، وهو ما

ينكره أصحاب المطابع الشهيرة من غير المسلمين. وطالب أدانغ بتشديد مراقبة حركة طباعة القرآن في سوقٍ تنتج فيه بعض المطابع ملايين النسخ، مستخدمةً ورقاً وصفه بالمتدنّي، لبيعه بأسعارٍ رخيصة للطبقة الفقيرة، لافتاً إلى أنّ المسلمين قادرون على إنتاج عددٍ كافٍ من المصاحف. بينما نفى «هيري ويجويونو»، مدير مطبعة غراميديا كومباس، هذه الاتّهامات، مؤكّداً أنّه قام بإرساء قواعد سلوكٍ مهنيٍّ خاصّةٍ بطباعة المصحف الشريف، ضمن سلوك يتناسب مع قدسيّة الكتاب المقدّس، وأنه يستعين بخبراء إسلاميّين لتفادي وقوع أيّ أخطاء مهنيّة. وكانت وزارة الشؤون الدينيّة الأندونيسيّة قد أعلنت تأسيس لجان تصحيحٍ حكوميّة عام ١٩٥٧ لمراجعة طبعات المصحف الشريف، وفي أوائل الثمانيات استطاعت أندونيسيا وضع أوّل طبعة أندونيسيّة، بعد أن كان الاعتماد على طبعات هنديّة وعربيّة.

* * *

كيف ينظر المسيحيّون لمنهج مدرسة أهل البيت عليهم السلام؟

قال سفير إيران لدى الفاتيكان علي أكبر ناصري: إنّه في الظروف الراهنة التي يخاف فيها الغرب من تطرّف الوهابيّين والإسلام الطالبانيّ، فإنّ عالم المسيحيّة، وبخاصّةٍ: الفاتيكان، ينظر إلى مدرسة الشيعة المعتدلة والعقلانيّة بنظرة إيجابيّة. وأضاف ناصري: للأسف الشديد، فإنّ الفاتيكان ليست له معرفة كافية بمدرسة أهل البيت عليهم السلام، لكنّ استعراض محطّاتٍ مختلفة من سيرة أهل البيت عليهم السلام وأقوال المعصومين عليهم السلام في شتى الاجتماعات والمحافل قد لاقى ترحيباً كبيراً من قبل مفكّري الفاتيكان.

* * *

عرض ٢٤٠ ألف عنوان كتاب في المكتبة المتخصّصة في علوم أهل البيت عليهم السلام:

يُعرض حاليّاً في المكتبة المتخصّصة في علوم أهل البيت عليهم السلام في مدينة مشهد المقدّسة في الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة أكثر من ٢٤٠ ألف عنوان كتاب، وقد أطلقت الروضة الرضويّة المطهّرة في مدينة مشهد المقدّسة المكتبة المتخصصة في علوم أهل البيت عليهم السلام التابعة لها. وتحتوي هذه المكتبة على ٢٤٣ ألفاً و ٦٤١ عنوان كتاب معروضة أمام الزوّار، وهي تشتمل على ما يلي: المطبوعات والمخطوطات والنشرات الإلكترونيّة والمصادر الرقميّة، وغيرها... وتعتبر هذه المكتبة الأُولى من المكتبات التابعة للروضة الرضويّة المطهّرة التي تفتح أبوابها أمام الزوّار على مدار الساعة، وهي مكتبة متخصّصة تماماً في علوم أهل البيت عليهم السلام. توجد هذه المكتبة في مسجد كوهرشاد في مقام الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وقد تمّ إطلاقها مؤخّراً بهدف زيادة معرفة الزوّار بأهل البيت عليهم السلام.

* * *

فتوىً يهوديّة تحرّم تصفّح موقع التعارف الاجتماعيّ: الفيس بوك (Facebook)

اعتبر الحاخام الإسرائيلي أفراهام يوسيف أنّ تصفح اليهود لموقع التعارف الاجتماعيّ الإلكترونيّ الـ (فيس بوك) يخالف الشريعة اليهوديّة. وقال ابن الزعيم الروحيّ لحزب شاس الإسرائيليّ الحاخام عوفديا يوسيف: تلقّيْتُ هذه الفتوى اليهوديّة من والدي الذي أعرب عن استهجانه لنشاط الـ فيس بوك. وأضاف: لا ينبغي تدنيس التوراة والتعاليم الدينيّة اليهوديّة بنشرها على موقع

التعارف الذي يتصفّحه مستخدمون ينتمون إلى دياناتٍ أُخرى غير اليهوديّة. وأشار إلى أنّه يعلم أنّ عدد متصفّحي الـ فيس بوك على مستوى العالم قد تجاوز الـ ٥٠٠ مليون شخص، غير أنّ ذلك لا يعطي اليهود الملتزمين دينيّاً الحقّ في تصفّحه، مفيداً: أنّ الذنب سيزيد إذا نشر أيٌّ من هؤلاء أيّ تفاصيل تتعلّق باليهوديّة على موقع التعارف!!

* * *

تقرير دوليّ: العرب ينفقون المليارات على التسلّح ولا ينفقون على العلوم:

حذّر تقرير منظمة الأمم المتّحدة للتربية والعلوم والثقافة الـ (يونسكو) حول مستوى العلوم في العالم لعام ٢٠١٠ من تبعات ضعف الإنفاق العلميّ في العالم العربيّ. وجاء في هذا التقرير: أنّ البلدان العربيّة تفتقر إلى قاعدة متينة في مجال العلوم والتكنولوجيا، كما أنّ أداء نظمها الخاصّة بالتعليم العالي لا يزال ضعيفاً فيما يتعلق بتوليد المعارف. وقال التقرير: إنّ (المال السهل) المتأتّي من العائدات النفطيّة هو بمثابة سيفٍ ذي حدّين بالنسبة إلى البلدان العربيّة، ففي حين ساعدت هذه الأموال على تنمية البنية الأساسيّة في المنطقة، بقيت التنمية القائمة على العلوم والتكنولوجيا مهمّشةً حتى الآونة الأخيرة، وفي المقابل، تعتبر بلدان المنطقة من الدول التي تحتلّ المراتب الأُولى في العالم من حيث الإنفاق على السلاح. وذكر معهد ستوكهولم لأبحاث السلام: أنّ حجم إنفاق الدول العربيّة على صفقات السلاح في عام ٢٠٠٩ بلغ ٩٤ مليار دولار. ويضيف التقرير: أنّه على الرغم من الجامعات المرموقة الموجودة في المنطقة العربيّة، فإنّ الدول العربيّة تُعدّ ما لا يزيد على ٣٧٣ باحثاً لكلّ

مليون نسمة، علماً بأنّ العدد المتوسّط على المستوى العالميّ يبلغ ١٠٨١ باحثاً. وفضلاً عن ذلك، فإنّ الكثير من العلماء العرب يعيشون في نصف الكرة الغربيّ ولا يسهمون ـ بالتالي ـ في الناتج المحلّي الإجماليّ لبلدانهم. وما يزيد الأمور سوءاً ـ حسب التقرير ـ: ارتفاع معدّل البطالة في أوساط البحث والتطوير، وبخاصّةٍ: في صفوف النساء الباحثات اللّواتي يشكّلْنَ حوالى ٣٥ في المئة من العدد الإجماليّ للباحثين في الدول العربيّة، وذلك وفقاً لتقديراتٍ صدرت عن معهد اليونسكو للإحصاء.

* * *

قسيمة الاشتراك

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك

الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر

□ الجمهورية الإسلامية في إيران

(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠

□ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي

٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

الاسم : .....

العنوان : .....

.....

المدينة : .....

البلد : .....

المهنة : .....

مدة الاشتراك : .....

ابتداءً من : .....

.....

عدد النسخ : .....

برافق اشتراكي: □صك □صك بريدي □حوالة بريدية

أرسل هذه القسيمة مع قيمة الإشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص . ب ٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥

.....

الاشتراكات:

▣ **داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدّد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:**

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم ـ بانك تجارت / شعبة سميّة، شارع سميّة ـ رقم الحساب الجاري: ٤٦٣٥٤ ـ ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

▣ **خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم ـ بانك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ ـ ٢٧٠١ (بالدولار).**

ثمن النسخة:

▣ **الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.**

▣ **وفي باقي دول العالم 5 دولارات أمريكية أو ما يعادلها**

The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 18, No . 71, Autumn 2011